المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

الأخلاق عند المدرسة الوضعيّة

[أوجست كونت ومدرسته]

دراسة نقدية على ضوء الإسلام

إعداد الطالبة
عائشـــة علــي روزي الخوتاني

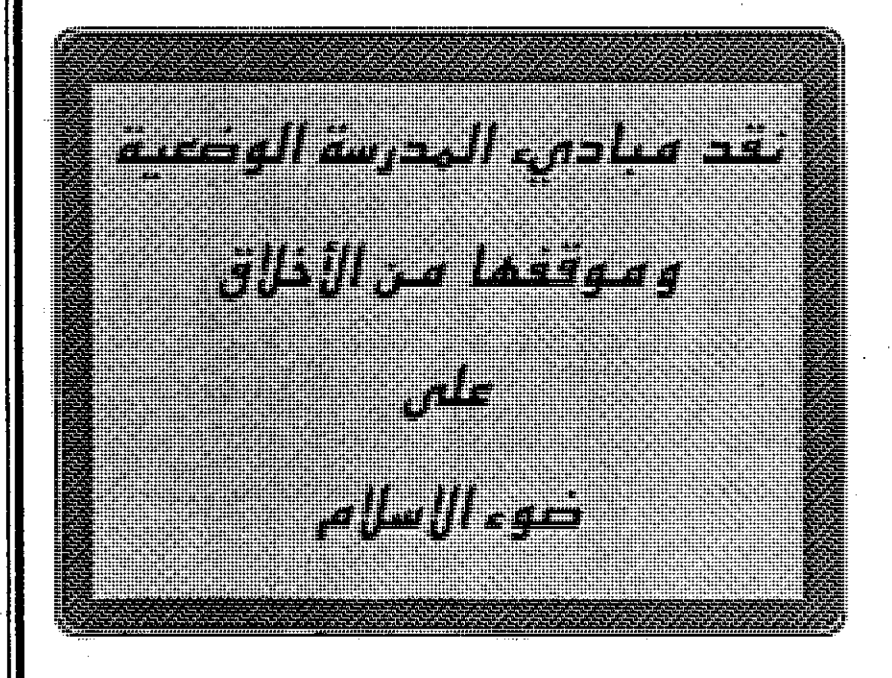
إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
بركات دويدار

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة

١٤١٢ هـ

المجلد الثاني


الباب الثاني


نقد مبادئ المدرسة الوضعية
وموقفها من الأخلاق
على
ضوء الاسلام

[بين يدي الباب]

أشرنا فيما سبق الى مدى تقدير الاسلام للحس والعقل كمصدرين للمعرفة في اطارهما وطاقتهما ، ورأينا كيف أنّهما قاصران عن إدراك عالم الغيب ووضع منهج للحياة يحقِّق السعادة الحقيقية للأحياء ممّا جعل البشر في أمسّ الحاجة إلي مصدر آخر للمعرفة يتسم بالرقي والنفاذ مغاير للحس والعقل .. وكانت رحمة الله بالناس أن جاء هذا المصدر مع رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه يبلغونه للناس وحياً من ربهم سبحانه وتعالى شاملا لتعاليم دينه اليهم .

وختم الله الرسل بمحمد ﷺ وأنزل دينه وحياً إليه ، وحفظه للناس بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وقد تميَّز الاسلام بالحق والصواب في كافة جوانبه يصفه اللهتعالى فيقول عنه :

﴿ ديناً قيماً ﴾ (١) .

ويعرفنا بأنه الصراط المستقيم . يقول تعالي :

﴿ وانَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٢)

ويوضح لنا أنه المنهج المحقِّق لسعادة الحياة . يقول تعالي :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (٣)

---

(١) الأنعام آية ١٦١ .

(٢) الأنعام آية ١٥٣ .

(٣) الأنفال آية ٢٤ .

ولذلك كان فضل الله علينا وعلى المؤمنين بالاسلام عظيماً فقد هدانا لدين الحق والصواب . يقول تعالي :

﴿ بل الله يمنُّ عليكم أنْ هداكم للإيمان ان كنتم صادقين ﴾ (١)

والحق فيه شامل لكل جوانبه ، فهو حق في بيان العقيدة بأركانها والمؤمن يسلم بذلك مع أنّها من الغيبيات ، وهو حق في جانب الشريعة إذ يحدد العبادات ، ويضع النظم ، ويشرع مكارم الأخلاق ، ويقدِّم كل هذا في صورة تربوية ، ويطلبه في شكل جميل محبب .

﴿ ولكن الله حبب إليكم الايمان وزيّنه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾ (٢)

وهو حق في تعامله مع الانسان فهو يعامله كبشر تختلف عناصره ، ويملك القوى الفطرية ذات المنازع والاتجاهات العديدة .. ولذا نجد دين الله تعالى لا يتعارض مع الفطرة الانسانية ، ولا يعلو عليها ، بل يكون في صورة بشرية . وفي طاقة الناس في توازن وتناسق ، وكمال .

لقد جعل الله الاسلام كاملاً يقول تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ (٣)

وحكم له بالهيمنة علي كل دين سبق بمعنى أن يوضح ماخفي ، ويصحح ما حرف ، ويكمل الناقص ، ويزيد ما تحتاجه البشرية في حركتها إلى يوم القيامة .

---

(١) الحجرات آية ١٧ .

(٢) الحجرات آية ٧ .

(٣) المائدة : آية ٣ .

يقول تعالي :

﴿وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ .(١)

لقد نسخت الأديان جميعاً وبقي الاسلام وحده ديناً خالدا للعالمين .

يقول تعالى :

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾(٢)

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٣)

﴿ إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٤)

ذلكم هو الاسلام دين الله الذي ارتضاه للناس أجمعين ولو سلطناه ناقداً للمدرسة الوضعيّة وموقفها من الأخلاق فإنه يظهر عوارها ، ويوضح ضلالها ، ويقف بتعاليمه الإلهية على النقيض منها تماما .

إنَّ الاسلام يختلف عن المدرسة الوضعية في تحديد مصادر المعرفة لأنّه يقر الوحي مصدراً رئيسياً للمعرفة . لأنَّه المصدر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بينما المدرسة الوضعية تعتبر الوحي وهم وخرافة ، وهذا ضلال كبير لأن اعتمادها على العقل المرتبط بالحس يقصر بها عن الحق والحقيقة لقصور الحس والعقل عن إدراك كثير من الحقائق منفردين أو مجتمعين ، كما أنكرت عالم الغيب والدين وبذلك ابتعدت عن الحقيقة والصواب الأمر الذي أدّى بها إلى الخطأ في كل ما ترتب على هذا الانكار . وعلى رأس أخطائها القول بنسبية الأخلاق . وتغاير القيم والآداب وانكار الدراسة النظرية الأخلاقية وهكذا .

---

(١) المائدة : ٤٨ .

(٢) الفرقان آية ١ .

(٣) الأنبياء آية ١٠٧ .

(٤) الأعراف ١٥٨ .

وبذلك أفقدوا الانسان استقراره ، وهدموا فطرته ، وجعلوه يعيش كالحيوان قلقاً ، مستذلاً .

وفي هذا الباب سأتناول بالنقد مواقف المدرسة الوضعيةٍ في مجال المعرفة والأخلاق على ضوء تعاليم الاسلام ولذلك سيأتي مكوناً من فصول هي :

الفصل الأول :

نقد موقف المدرسة الوضعية من المعرفة والدين .

الفصل الثاني :

نقد موقف المدرسة الوضعية من الأخلاق .

الفصل الثالث :

نقد المدرسة الوضعية في القول بنسبية الأخلاق .

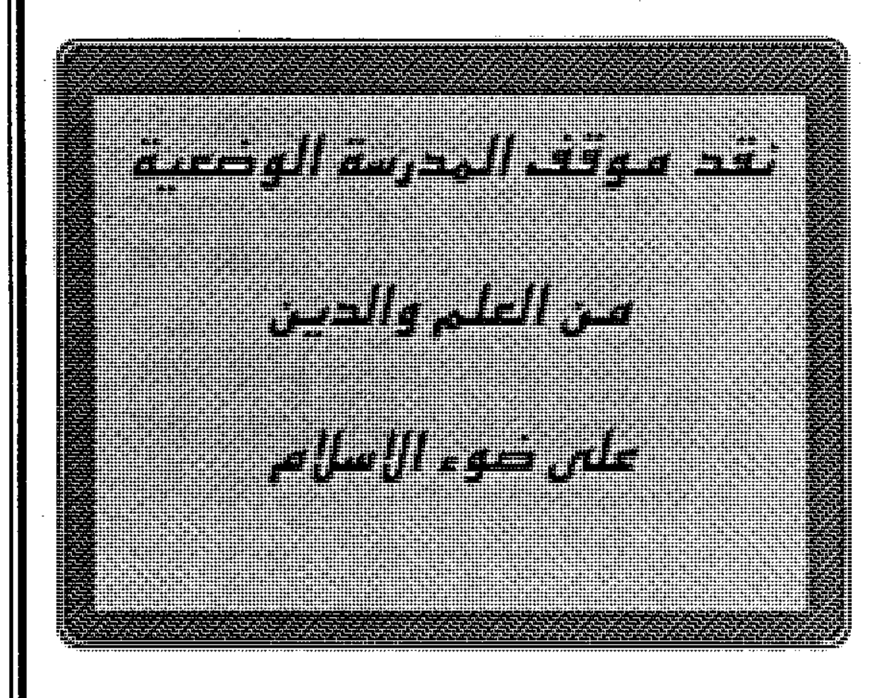
الفصل الرابع :

الأخلاق في الإسلام .

وستكون الدراسة خلال هذا الباب موضحة موقف الاسلام في المسألة مع بيان أخطاء المدرسة الوضعية في نفس القضية وتوضيح الآثار التي ترتبت على هذه الأخطاء .

والله الموفق ،،،


الفصل الأول


نقد موقف المدرسة الوضعية
من العلم والدين
على ضوء الإسلام

محتويات الفصل

يشتمل الفصل على تمهيد وخمسة مباحث :

المبحث الأول : تقدير الاسلام لدور الحس والعقل في المعرفة .

المبحث الثاني : قصور المعرفة النابعة من الحس والعقل .

المبحث الثالث : قصور العقل عن إدراك عالم الغيب .

المبحث الرابع : حاجة البشر إلى الرسالة .

المبحث الخامس :ضلال المدرسة الوضعية في نظرتها للعلم والدين .

تمهيد

اهتم الاسلام بمصادر المعرفة الحقيقيّة فلم ينكر العقل والحس مصدرين من مصادر هذه المعرفة ، بل اعترف بهما ، وأعطى كلاً منهما الاهتمام الذي يستحقه وَحدَّد له النطاق ، ورسم له المجال الذي يعمل فيه ، ومع العقل والحس يوجد مصدر آخر للمعرفة متميِّز عنهما ، وهو « الوحي الالهي » المتميِّز بالصواب ، والحق لا يتطرق إليه شك ، وهو المصدر الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وهو الحكم ، والفيصل في إمداد الانسان بالمعرفة اليقينية لأنّه من لدن الحكيم العليم .

فمزية الاسلام على المذاهب البشرية أنّه يعترف بمصادر المعرفة كلها ، ويعطي كلاً منها الاطار اللائق به ، ولا يجنح إلى مصدر واحد فقط ، وينكر ما عداه كما هو الحال في مذاهب البشر .

وتاريخ أوروبا خير شاهد على ذلك ، ففي العصور الوسطى الأوربية جنحت أوروبا إلى الدين النصراني المحرف وحده ، وجعلته مصدراً لكل المعارف ، مما أدّى بها إلى الانحراف ، والإضطراب .

فقد أهملت في سبيل ذلك المعارف التي تأتيها عن طريق الحس ، والعقل ، وتحكمت في حياة الناس باسم الدين المحرف هذا .

وقد ظهرت الوضعيّة التي كانت صورة من صور هذا الانحراف ، والاضطراب ، وفتنها ما حقّقه العلم من تقدم في المجالات الماديّة معتمداً على المعرفة الحسّية ، فنادت بالحسِّ وحده مصدراً للمعرفة اليقينية ، فلا شيء يقيني عندها إلا المعرفة الآتية من الواقع الحسّي ، ومن التجربة ، أمّا ما لا يخضع للتجربة ، ولا يمكن اختباره حسيًا فقد نادت الوضعيّة باهماله ، وتركه .

وفي سبيل ذلك وصمت الوضعية الايمان بالغيب بأنه إيمان بالخرافات وبالأساطير ، وأنكرت « الوحي الالهي » واعتبرته خرافة ، وأسطورة .

وقد وصل التخّبط بهذه المدرسة أن وضعت ديناً للناس يجعل من الانسانية إلهاً ، ومن التعاون بين البشر عبادة ، ومن التماثيل ، والمال ، والشهرة جنةً ونعيماً .. وهي في تخبطها تعجز عن الاختراع فتقتبس الشكل ، وتملأه بالضلال والهوى .

وفي هذا الفصل سأبيّن رأي الإسلام في مصادر المعرفة ، مع بيان ضرورة الوحي الإلهي للمعرفة الحقة ، ونقد أفكار الوضعية بالنسبة للمعرفة والدين .

وسأتتبع آراء المدرسة الوضعية مبينةً رأي الإسلام في كلٍ منهما ، مستدلة بالنص ، والعقل ، وآراء العلماء الأمر الذي يُبرز الحق ويبطل الباطل .

ولهذا سيأتي هذا الفصل مشتملاً على المباحث الآتية :

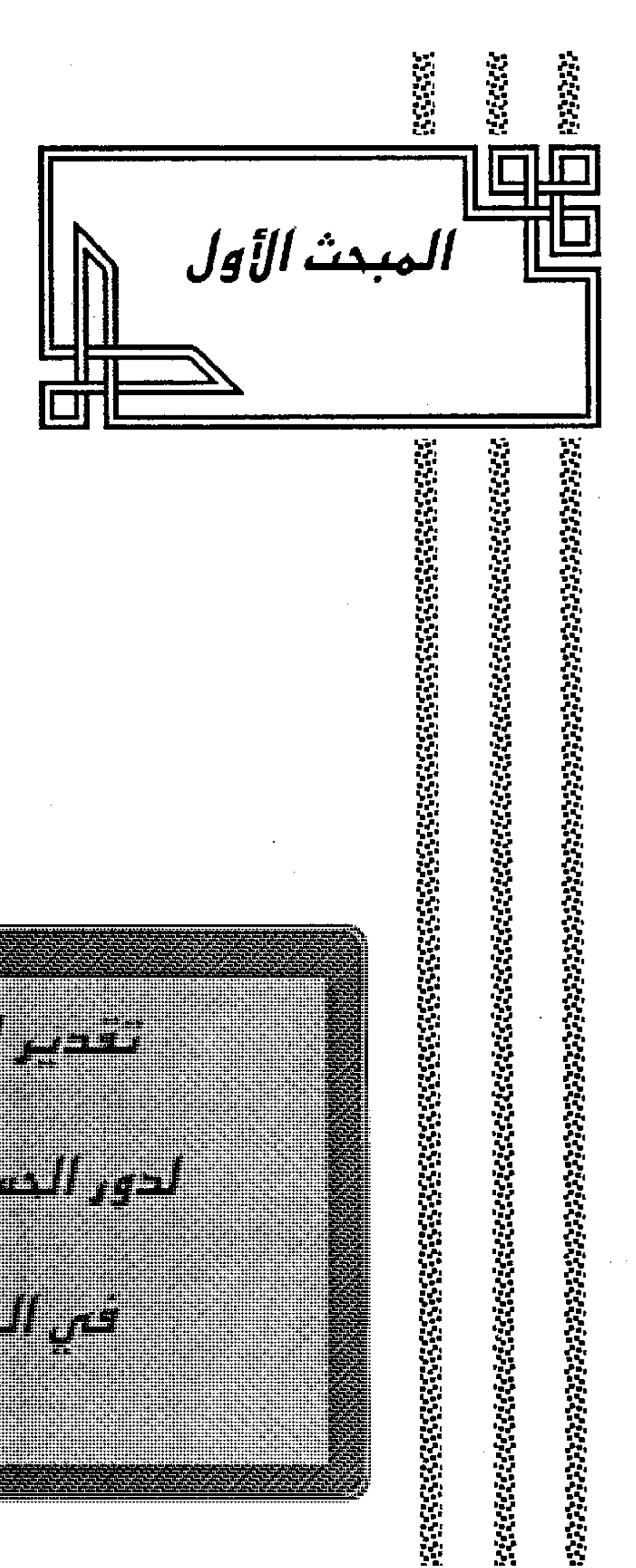
المبحث الأول : تقدير الاسلام لدور الحس والعقل في المعرفة .

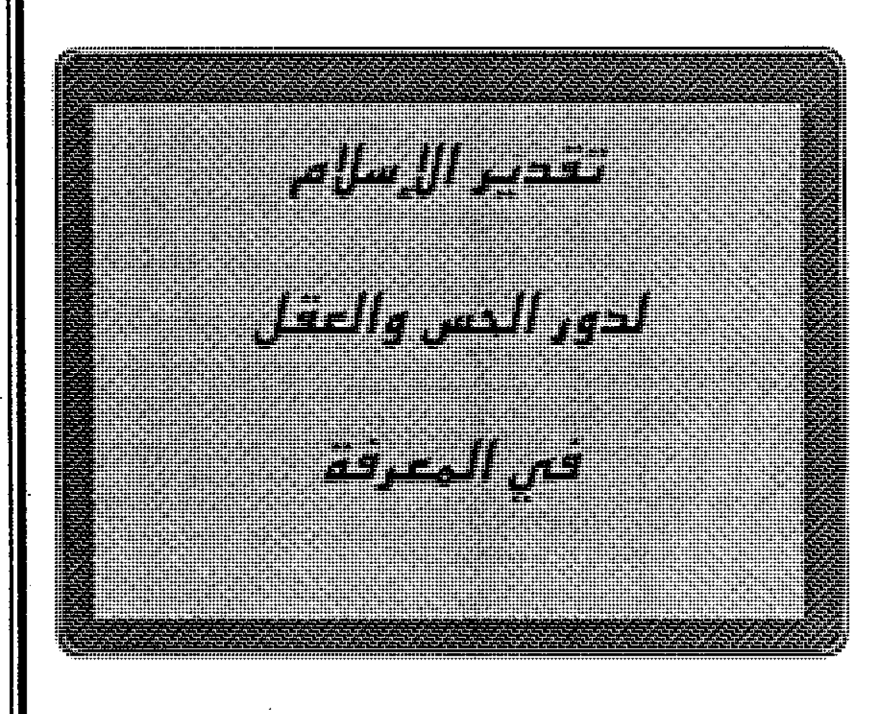
المبحث الثاني : قصور المعرفة النابعة من الحس والعقل .

المبحث الثالث : قصور العقل عن إدراك عالم الغيب .

المبحث الرابع : حاجة البشر إلى الرسالة .

المبحث الخامس : ضلال المدرسة الوضعية في نظرتها للعلم والدين .


المبحث الأول


تقدير الإسلام
لدور الحس والعقل
في المعرفة

المبحث الأول

تقدير الاسلام لدور الحس والعقل في المعرفة

خلق الله للانسان حواسه ، وجعلها وسيلة لإدراك الأشياء ، وامتّن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بخلق هذه الحواس حيث يقول تعالى :

﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ﴾ (١)

ويقول تعالي : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (٢)

ويقول تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٣)

فبالحواس يعرف الانسان الحياة من حوله ، وبواسطتها يمكن له أن يتصور الأشياء على ماهي عليه من شكل ، وحجم ، ولون ، وصورة ، وهي ركيزة العقل في إمداده بالتصوّرات المختلفة ، والاستفادة بالحواس في النظر ، والرؤية طريق للايمان ، والاعتقاد .

ولذلك نجد القرآن الكريم يوجّه إلى السير ، والنظر ، والرؤية لاستخلاص ما تدلُّ عليه .

يقول تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف بدأ الخلق ﴾ (٤)

ويقول تعالي : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٥)

ويقول تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ (٦)

---

(١) البلد آية ٨ ، ٩ .

(٢) النحل آية ٧٨ .

(٣) المؤمنون آية ٧٨ .

(٤) العنكبوت آية ٢٠ .

(٥) الأنعام آية ١١ .

وينعي الله تعالى على الذين يهملون حواسهم ، فلا يستفيدون منها ، ولا يصلون بواسطتها إلى الايمان ، ويشبههم حينئذٍ بالأنعام حيث يقول الله تعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ (١)

وإن الكافر ، والعاصي هو الانسان الذي لم يستفد بحواسه ، وجوارحه .

يقول الله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾(٢)

وكما يقدر الاسلام الحواس في إطار ما خلقت له ، يقدِّر كذلك العقل ، ويدعوه إلى التدبّر ، والتفكير ، والتأمّل ليكون المرء مؤمناً عن معرفة ، مسلماً عن يقين .

((ومن أهمل العقل فقد أسقط كرامته ، ويكفي أنه وضع نفسه في مكان سحيق بيّنه الله في قوله تعالى :

﴿ إنَّ شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ (٣)

فشبَّه الله من لا يعقل بالدابة لكونه أصم ، وأبكم أو سماه دابة من غير تشبيه لنفس السبب ، وذلك كله ذم وتقبيح على إهمال العقل ، والتدبر)) . (٤)

فالاسلام لا يطلب من معتنقيه إلغاء عقولهم كما تفعل المسيحية المحرفة ، بل بالعكس فإنه يوقظ العقول من سباتها ، وينعي على الذين ألغوا عقولهم وانقادوا لمعتقدات آبائهم دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء النظر والتفكر لمعرفة صحة ما عليه

---

(١) الأعراف ١٧٩ .

(٢) البقرة آية ٧ .

(٣) الأنفال ٢٢ .

(٤) الدكتور أحمد أحمد غلوش ـ الدعوة الإسلامية صـ ٢٥٠ .

آباؤهم ، وأجدادهم أو بطلانه ، وذلك في مثل قوله تعالى :

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ (١)

وقوله تعالي : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّة ، وإنّا على آثارهم مقتدون ، قال أوَ لو جئتكم بأهدى مِمّا وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ (٢)

فهؤلاء ألغوا عقولهم ، وتمسّكوا بالباطل تقليداً لآبائهم فاستحقّوا أن يكونوا هم والدواب سواء . قال تعالى :﴿ أم تحسب أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ ﴾ (٣)

والاسلام ينعي على الذين يسيرون في أمر عقيدتهم ، وحياتهم على الظن ، والأهواء قال تعالى :﴿ إن هي إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلّا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ وما يتبّع أكثرهم إلا ظناً إنّ الظن لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ (٥)

فالاسلام يدعو الناس إلى التيقّن في أمر العقيدة ، والتثبّت منها بالأدلة العقلية الصحيحة ، ويطلب من هؤلاء المقلّدين ، وأهل الضلال إثبات ما يقولون ، ويعتقدون، وإلاّ فهم على باطل .

يقول الله تعالى :﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلاّ الظن ، وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾ (٦)

---

(١) المائدة آية ١٠٤ .

(٢) الزخرف آية ٢٢ ـ ٢٤

(٣) الفرقان آية ٢٤ .

(٤) النجم آية ٢٣ .

(٥) يونس ٣٦ .

(٦) الأنعام آية ١٤٨ .

وكثير من الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بمثل قول الله تعالى :

﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

والقرآن الكريم حافل بالأدلة العقلية على إثبات وحدانية الله ، وتفرده بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وذلك في :

قول الله تعالى : ﴿ أم خُلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله ربِّ العرش عمّا يصفون ﴾ (٣)

وقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولَعَلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ (٤)

فهذه الآيات الكريمة تستثير العقل الانساني وتدعوه إلى التفكّر ، والتدبّر في أمر عقيدته ، ليكون على بيّنة من أمره ، وعلى يقين صادق لا يرقى إليه الشك فيما يؤمن به من وجود الله سبحانه ، فتدعوه إلى أن يفكر ، ويسأل نفسه عن أصل خلقته ، وهل وُجِد هكذا بدون خالقٍ خلقه ، وأخرجه من العدم إلى الوجود ؟ أم هو الذي خلق نفسه ؟ فإذا كان لا هذا ولا ذلك مّما يستقيم في أمر العقل الصحيح ، فالعقل إذاً يدعوه إلى الإيمان بخالقٍ خلقه وأوجده من العدم لا شريك له .

فالقرآن كله خطاب للعقل البشري ، ليتنبه من غفلته ، ويتفكر ، ويتدبّر ، فيما وجّهه الله إليه من الأدلة ليصل بعقله إلى توكيد فطرته التي بين جنبيه والتي تؤمن بالله تعالى .

وكذلك القرآن حافل بالأدلة العقلية على صدق الرسول ﷺ ومثل ذلك

(١) الطور آية ٣٥ ــ ٣٦ .

(٢) النحل آية ١٧ .

(٣) الأنبياء آية ٢٢ .

(٤) المؤمنون : آية ٩١ .

قول الله تعالى :

﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .(٢)

وقوله تعالى :

﴿ قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنّة ﴾ (٣)

وهكذا فالآيات كثيرةٌ جداً ، وهي تدعو الانسان إلى الاستفادة من عقله الذي وهبه الله له ، وميّزه تعالى به عن غيره للتوصّل إلى الحق بناءً على الأدلة العقلية ، السليمة فللعقل دور كبير في الحصول على المعرفة ، ودور العقل في قضية الايمان والهدى : [أن يتلقّى عن الرسالة ، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ومهمة الرسول أن يبلّغ ، ويبيّن ، ويستنقذ الفطرة الانسانية ممّا يرين عليها من الركام ، وينبّه العقل الانساني إلى تدبر دلائل الهدى ، وموحيات الايمان في الأنفس والآفاق ، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ، وأن يُقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية المؤدي إلى خير الدنيا ، والآخرة ﴾ (٤)

---

(١) يونس آية ١٦ .

(٢) النساء آية ٨٢ .

(٣) سبأ آية ٤٦ .

(٤) سيد قطب ـ في ظلال القرآن جـ ٢ صـ ٨٠٦ .

والقرآن الكريم أرشد العقل إلى المجالات التي يمكنه العمل فيها حتى يمكن للانسان أن يقوم بمهمة الخلافة في الأرض ، ويؤدي الأمانة التي أشفقت منها السموات والأرض ، والجبال ، فيكون جديراً بما كلّفه اللهتعالى به .

فالاسلام لايُنكر ما للعقل البشري من دور كبير في إمداد الانسان بالمعرفة ، بل إنه قد حثَّ الانسان على الاستفادة من هذا الكون الشاسع الذي سخّره الله تعالى له باستخدام كل ما لديه من قدرات عقلية وحسية ، وذلك لعمارة الأرض ، والقيام بمهمة الخلافة على أحسن وجه ، فحثه على العلم ، والتعليم ، وليس هناك دين اهتمّ بالعلم كما اهتمّ به الاسلام ، فرفع من شأن العلماء ، وأبرز دورهم في المجتمعات .

يقول الله تعالي : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولو الألباب ﴾ (١)

فهل بعد هذا من تشريف للعلماء ؟

---

(١) الزمر : ٩

وقال تعالى :

﴿ يرفع اللهالذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (١)

ولقد بين الله تعالى أنَّ الانسان لا يولد عالماً ، وإنّما يتلقّى العلم تدريجياً معتمداً في ذلك على حواسه ، وعقله معاً .

يقول الله تعالي :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٢)

كما أنَّ القرآن الكريم يدعو الانسان إلى التثبت في الرأى ، وعدم إصدار الأحكام إلا بعد التفكر ، والتدبر بكل الوسائل المتاحة له ، وذلك لكي يكون الانسان على بينةٍ من أمره ، ولا يخضع لمعتقدات باطلة ، وأوهام كاذبة .

يقول الله تعالى :

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علـــم إنّ السمــع والبصر والفؤاد كــل أولئـــك كان عنه مسئولا ﴾ (٣)

والآيات الكريمة التي تدعو الانسان إلى النظر ، والتفكر في عجائب خلق الله تعالى في الكون من حوله ، وفي هذا النظام البديع الذي تسـير بموجبه ظواهره كثيرة جدا ، وذلك ليتفكر الانسان ، ويصل بعقله إلى إثبات وجود الخالق عزَّ وجل ، وأن هذا الكون البديع لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه ، أو وجُد مصادفة ، ولا أن يكون قد أوجده حادث آخر مثله ، بل لابّد من خالقٍ قديم ، قدير خلقه على هذا النحو .

---

(١) المجادلة : ١١ .

(١) النحل : ٧٨ .

(٢) الاسراء : ٣٦ .

وكذلك تدعو الآيات الكريمة الانسان إلى البحث والدراسة ، واخضاع مظاهر الكون الماديّة للدراسة المستفيضة للاستفادة منها في تثبيت العقيدة وفيما يعود على الانسان بالنفع ، والفائدة في حياته ، وذلك في مثل قول الله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ (١)

وقوله تعالي :

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣)

وقوله تعالى :

﴿ أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سُطحت ﴾ (٤)

وقوله تعالى :

﴿ فلينظر الانسان مِمَ خُلق خُلِقَ من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنّه على رجعه لقادر يوم تبلىَ السرائر فما له من قوة ولا ناصر﴾ (٥)

فهذا الكون الشاسع بظواهره المحسوسة ميدان رحيب للعقل البشري للتفكر ، والتدبّر في آيات الله، والاستدلال بها على وجوده تعالى وتثبيت الفطرة الصحيحة في النفس الانسانية فيعيش الانسان مطمئناً سعيدا في حياته .

---

(١) يونس ١٠١ .

(٢) الذاريات ٢٠ ـ ٢١ .

(٣) البقرة ١٦٤ .

(٤) الغاشية ١٧ ـ ٢٠ .

(٥) الطارق : ٥ ـ ١٠ .

ودراسة الظواهر الكونية دراسة علميَّة مستفيضة تقوم على استخدام الحواس التي منحها الله لنا كالسمع ، والبصر ، في المشاهدة وإجراء التجارب العلمية عليها ممّا دعا الاسلام إليه المسلمين ، ليتوصّلوا إلى معرفة السنن التي سيَر الله عليها هذا الكون . (١)

ولقد فهم المسلمون هذه الآيات الكريمة ، وأخضعوا ظواهر الكون المحسوسة للدراسة العلمية المستفيضة القائمة على المشاهدة ، واجراء التجارب ، حتّى توصّلوا إلى معرفة القوانين التي تسير بموجبها هذه الظواهر ، وأدركوا بتوجيه عقولهم أنّ الله سبحانه ، وتعالى هو خالق هذه الظواهر ، وهو وحده الذي سيّرها على هذا النظام البديع ، وهو الذي سنّ قوانينها التي تسير بموجبها ، ولو شاء غير ذلك لكان له ما أراد سبحانه وتعالى .

ولكن الوضعيين يقصرون عن النظرة الاسلامية للحسّ الواقعي المعقول في أنهم يربطون بين الظواهر المحسوسة ، ولا يبحثون عن مُوجدها من العدم وخالقها ، ولا عن غاياتها ، بل يكتفون باكتشاف قوانين الربط فيما بينها ، ولو بحثوا لتوصّلوا إلى أن مُوجدها هو الله ، ومُقدِّر سننها هو الله ، وأنّ غاية الحياة الدنيا التي يعيشها الناس هي تعبيد الخلق للموجد العظيم الذي له الأمر كله ، واليه المرجع والمآب .

﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ (٢) ، ﴿وأن إلى ربك المنتهى ﴾ (٣)

---

(١) أنظر الموضوع بالتفصيل في : منهج التربية الاسلامية جـ ١ من صـ ٧٥ : صـ ١٠٤ . للشيخ محمد قطب الطبعة السابعة عام ١٤٠٣ هـ ، دار الشروق .

(٢) العلق آية ٨ .

(٣) النجم آية ٤٢ .

فهؤلاء الوضعيون عاشوا في إطار الظواهر الحسيّة ، وتصوروا أنّها كل الحقيقة وأطلقوا عقولهم تستنبط من هذه الظواهر العلم ، والدين ، والخلق ، وكل ما يحتاجونه في هذه الحياة فضلّوا ، وأضلّوا .

والمنهج العلمي التجريبي الذي يفخر الوضعيون به إنّما هو نتاج إسلامي أصيل توصّل إليه المسلمون لتطبيقهم تعليمات دينهم ، وتوجيهاته للحس ، والعقل في دراسة الكون ، وظواهره دراسة علمية دقيقة تعتمد علي المشاهدة والتجربة الحسية لأنّ هذه الظواهر تخضع لذلك .

ومن المسلمين استفاد الأوربيون هذا المنهج ، ونقلوه إلى بلادهم ، وأقاموا عليه حضارتهم المادية ، وفشلوا فيما وراءها .

يقول الاستاذ« محمد قطب » في هذا :

[لم يكن العلم وحده هو الذي أخذته أوربا عن المسلمين بجانب الرغبة في الحياة ، والرغبة في النهوض ، إنّما أخذت كذلك المنهج الذي تقيم عليه العلم وهو المنهج التجريبي]

واستشهد على ذلك بقول « بريفولت » في كتابه « الانسانية » :

[أساليب البحث في دأب ، وأناه ، وجمع المعلومات الايجابيّة ، وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقةالمستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماماً عن المزاج اليوناني ، أمّا ما ندعوه « العلم » فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة من طرق التجربة ، والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ... وهذه الروح ، وتلك المناهج العلميّة ـ أدخلها العرب إلى العالم الأوربي] . (١)

فباعتراف الأوربيين أنفسهم نرى أنّ المنهج التجريبي قد نشأ على أيدي المسلمين أول ما نشأ ، وما ذاك إلاّ لاتباعهم لتوجيهات دينهم الحنيف الذي اعترف بمصادر المعرفة من حس ، وعقل ، وحثّهم على استخدامهما في مجالهما ، وهو هذا الكون الماديّ كله .

---

(١) مذاهب فكريّة معاصرة صـ ٥١٥ .

يقول الدكتور « عبد الحليم محمود موضّحاً أنّ مجال عمل الحواس ، والعقل هو هذا الكون الماديّ :

[أمّا الطبيعة والكون من سمائه وأرضه ، ومن جباله ، وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره ، وشموسه ، أمّا المادة والطاقة ، أمّا أعماق البحار وآفاق السماء إنّ كل ذلك قد تركه ﴿الله﴾ للانسان يدرسه في مصنعه ، ومعمله بآلاته وأدواته وحثّه على أن يجول في ذلك ما استطاع إليه سبيلاً حتي يكتشف سنن الله الكونية ، ونواميسه الطبيعية ، ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولم يحجر الدين على الانسان في هذا المجال اللهم إلاّ الواجب الذي ينبغي أن يكون شعاره دائماً وهو أن يكون هدفة من كل ذلك الخير] (١)

فالاسلام إذاً قدّر الحواس ، وقدّر العقل ، واعترف بهما ، ووجههّما إلى المجال اللائق بهما ألا وهو النظر في هذا الكون الشاسع بكل ما يحويه من دلائل وموجبات على إثبات وجود الله ، واثبات قدرته التي لا حدود لها وتفرّده سبحانه بالخلق ، والسلطان لا شريك له ، والاستفادة من دراسة الكون في القيام بمهمة الخلافة على وجه الأرض على خير وجه ، وتدبّر التاريخ ، والعظة ، والاعتبار من سير الأمم القديمة .

يقول « سيد قطب » رحمه الله :

[ما من دين احتفل بالإدراك البشري ، وايقاظه ، وتقويم منهجه في النظر ، واستجاشته للعمل ، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة وتحريره من قيود الكهانة ، والأسرار المحظورة ، وصيانته في الوقت ذاته من التبدد في غير مجاله ، ومن الخبط في التيه بلا دليل .. ما من دين فعل ذلك كما فعله الاسلام .

وما من دين وجّه النظر إلى سنن الله في الأنفس وفي الآفاق ، وإلى طبيعة هذا الكون ، وطبيعة هذا الانسان ، وإلى طاقاته المذخورة ، وخصائصه الإيجابية وإلى سنن الله في الحياة البشرية معروضةً في سجل التاريخ ما من دين وسّع على الادراك في هذا كله ما وسّع الاسلام] . (٢)

---

(١) التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل صـ ٣٠ .

(٢) خصائص التصوّر الاسلامي صـ ٤٩ ـ ٥٠ .

وهكذا نصل إلى أنّ الاسلام قرر أنّ من مصادر المعرفة الحسّ ، والعقل فهو لم يلغِ دورهما ، ولم يطمس نورهما ، بل وجّههما إلى ميدانهما الذي يعملان خلاله ، ألا وهو هذا الكون المادّي المحسوس ليدرسانه دراسة واعية مستنيرة بهدي الله سبحانه وتعالى ، فيكتشفان ، ويخترعان ما شاء الله لهما ليقوم الانسان بدوره على أحسن وجه .

ومع اعتراف الاسلام بدور كل من الحس والعقل إلاّ أنّه يقرر أنّهما إذا تجاوزا مجالهما الذي حدّده لهما فانّهما يكونان عرضة للتيه ، والضلال .

فمع هذين المصدرين هناك مصدر ثالث يعلوهما ألا وهو « الوحي الإلهي » الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

يقول « سيد قطب » رحمه الله:

[الاسلام يعتبر مصدر الوحي هو المصدر الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، ولا يخضع للهوى ، ولا يتأثّر به ، ومن ثمّ فهو أعلى المصادر ، ولكنه في الوقت ذاته لا يلغي العقل ـ عندئذ ـ ولا يلغي المؤثّرات والمعارف التي تتلقّاها الكينونة الانسانية كلها ممّا حولها في الكون ... مع فارق واحد هو: أن المعرفة التي يتلقاها الانسان بمداركه من هذا الكون قابلة للخطأ والصواب ـ بما أنّها من عمل الانسان ـ أما ما يتلقّاه من الوحي فهو الحقُّ اليقين] . (١)

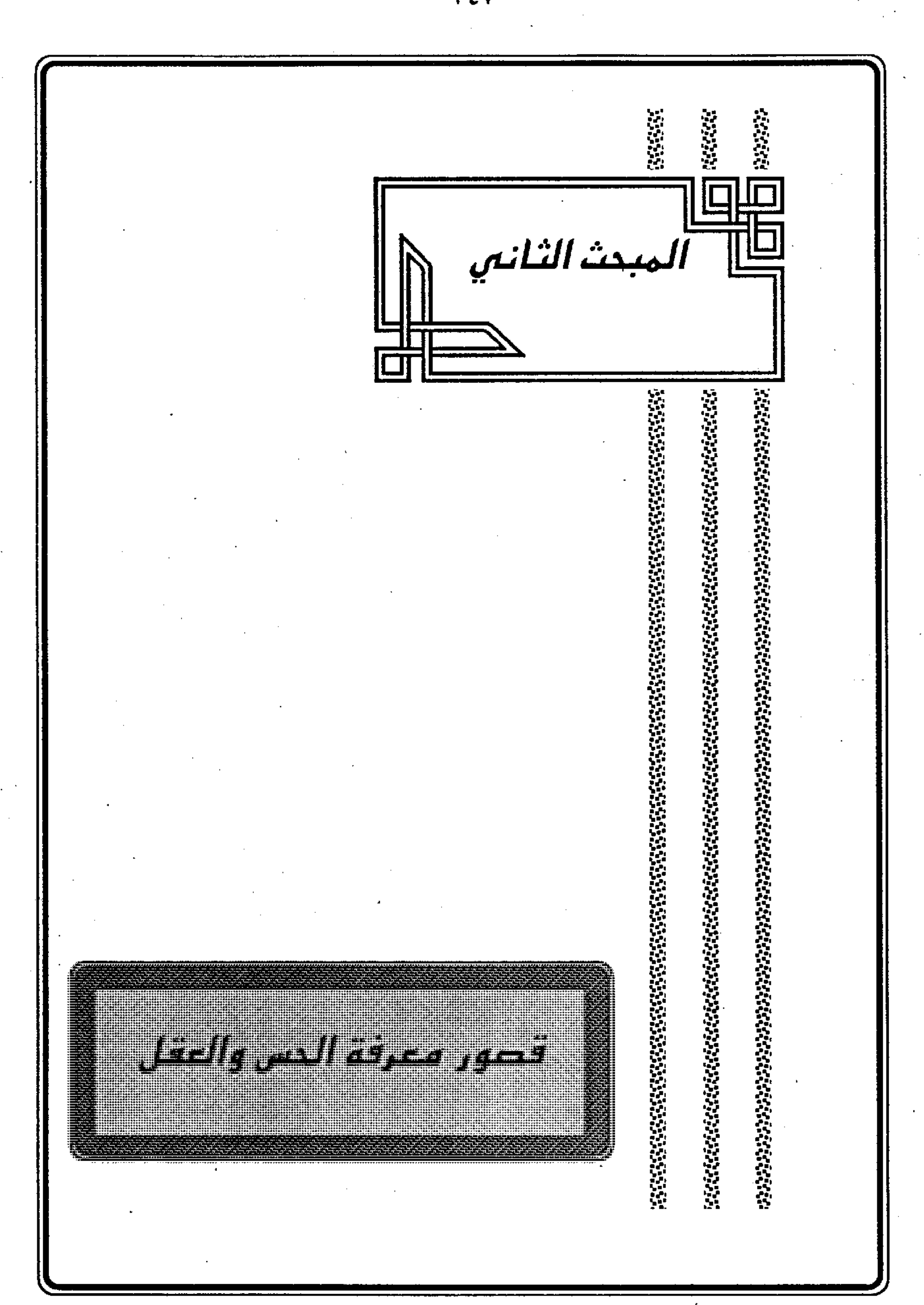
إن كل مصدر متأثّر بمنبعه ، فما منبعه الانسان محدود يتأثر بعوامل خارجة عن المدرك نفسه ، خاضع لآنية الزمن حيث هو عاجز عن كشف الغيب .

أمّا ما مصدره الله فهو حقٌ شامل يدرك الزمن كله ، والغيب كله ، والله على كل شيء قدير .

ومن هذا يتبّين لنا مدى الخطأ الذي وقعت فيه المدرسة الوضعية حين قصرت مصادر المعرفة عندها على الحسّ والعقل ، واعتمدت عليهما في كل شئون حياتها الدينيّة ، والدنيويّة ، وأهملت ما عداها ، فضلّت ، وأضلت فالمعرفة الآتية من الحسّ ، والعقل لا يمكن أن تفي بحاجات الانسان ، ولا أن تصل إلى اليقين والحق ، وهذا ماسنبحثه في المبحث التالي .

---

(١) المرجع السابق صـ ١٣٨ .


المبحث الثاني
تصور معرفة الحس والعقل

المبحث الثاني

قصور معرفة الحس والعقل

يقرر الاسلام أنّ هناك مجالات يصعب على العقل البشري خوضها ، والوصول فيها إلى أمر يقيني ، وذلك لأنّها فوق طاقته ، كما أنّها ليست ممّا يخضع لإدراك الحواس البشرية .

فمع اعتبار الاسلام للحواس ، والعقل مصدرين للمعرفة ، إلاّ أنّه لا يُوليهما ثقةً مطلقة ، فليست كل أحكام العقل البشري ، ومعلوماته يقينية ، وذلك لأنّ العقل يعتمد في معلوماته على الحسّ ، والحواس كثيراً ما تخطيء ، وتعطي العقل معلومات خاطئة .

وكذلك فقد [تبّين للباحثين أنّ مدى فاعلية الحواس البشريّة محدود ، ومقيّد ، فأذن الانسان تستطيع سماع الأصوات التي تتراوح ذبذباتها الصوتية بين ١٥ و ٢٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية ، ولا يمكنها أن تسمع ما دون ، أو ما فوق ، وكذلك عينه لا تستطيع أن ترى إلاّ الأجسام التي تتذبذب بين ٢٠ و ٤٠ ذبذبة في الثانية ، والتي تتحرك بسرعات أقل من سرعات النور .

يقول لنكولن برانت :

[إن ما يدركه الانسان عن الحقيقة التي تحيط به محدود بسبب عجز جهاز الابصار عنده ، ولو أنّ عينه كانت أكثر حساسية فتدرك مثلاً موجات الأشعة السينيّة لبدت له الدنيا مختلفة تماماً عما يراها الآن .

وما دامت العين لا ترى إلا بواسطة إنعكاس شعاع النور عن الجسم المتحرك إلى العين فإنّ هذا يعني استحالة مراقبة جسم يتحرك بسرعة أكبر من سرعة النور لأنّ النور لا يستطيع أن يدركه ، وينعكس عنه إلى عين المراقب] . (١)

---

(١) نقلا عن الدكتور : عبد الله عثمان الكوكي : منهج القرآن والعلم في إثبات الألوهية صـ ٣١٢ ـ ٣١٣ .

فهذه حقائق أثبتها العلم التجريبي عن محدوديّة الحواس البشرية ، وتعرّضها للخطأ ، وبالتالي تعرّض العقل أيضا لاعتماده على المعلومات التي تأتيه عن الحواس ، كما أنّ المقاييس التي يعتمد عليها العقل ، وهي الاستقراء ، والقياس عرضةٌ للخطأ أيضاً لأنّ هذه المقاييس تبني أحكامها على ما تأتيها به الحواس .

يقول الدكتور « عبد الحليم محمود » رحمه الله:

[الاستقراء ـ وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية ـ مبني على الحسّ .. ثم إن الاستقراء تام وناقص ، والتام ـ كما يعترف المناطقة لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه ، أمّا الناقص ـ وهو المهم في نظرهم ـ فإنّه في رأيهم أيضا ظني ، وهو لذلك عرضةٌ للتغيير في كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة » تلك قضيه من قضايا الاستقراء ، إنّها قضيّة عامة ، شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف بعد بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ظنية يتبرأ منها اليقين الفلسفي .

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في كل مسألة من مسائلة ، وإنّما حقائقه كلها موقوتة لها قيمتها حتي يتكفل البحث عمّا يزيل هذه القيمة ، أو يغيرها .

أما القياس : فإنه مبني على الاستقراء وقضاياه ظنيّة ـ كما رأينا ـ وميدانها المحسّات فنتائج القياس ظنيّة كذلك وقضاياه .

ثم إن المناطقة لا يشترطون في مقدّمات القياس أن تكون مسلّمة ، صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب ..

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟] . (١)

وهكذا يتضح لنا أنّ المقاييس التي يقيم العقل أحكامه بناءً عليها كلها مقاييس واهية ، وهي مبنية على المواد التي تزوده بها الحواس ، والحواس عرضةٌ للخطأ والاحتمال .

---

(١) المنقذ من الضلال : تعليق الدكتور عبد الحليم محمود صـ ١٨٢ .

يقول أبو الأعلى المودودي :

[إنّ أحكام العقل كلها مبنيّة علي المواد التي تعدّها له الحواس ، وتزوّده بها فإن زودته بالمواد المخطئة جاءت أحكامه مخطئة ، وإن زوّدته بالمواد الناقصة جاءت أحكامه ناقصة ، وأمّا الأمور التي لا تزوّده فيها الحواس بشيء فإن العقل - إن كان يعرف نفسه فلا يجتريء على القطع بشيء في تلك الأمور ، وإن كان ممن اغترّ بنفسه ، والتبست عليه طبيعة نفسه كان مثله في الحكم كمثل الذي ضلّ الطريق ، فجعل يخبط خبط عشواء] (١)

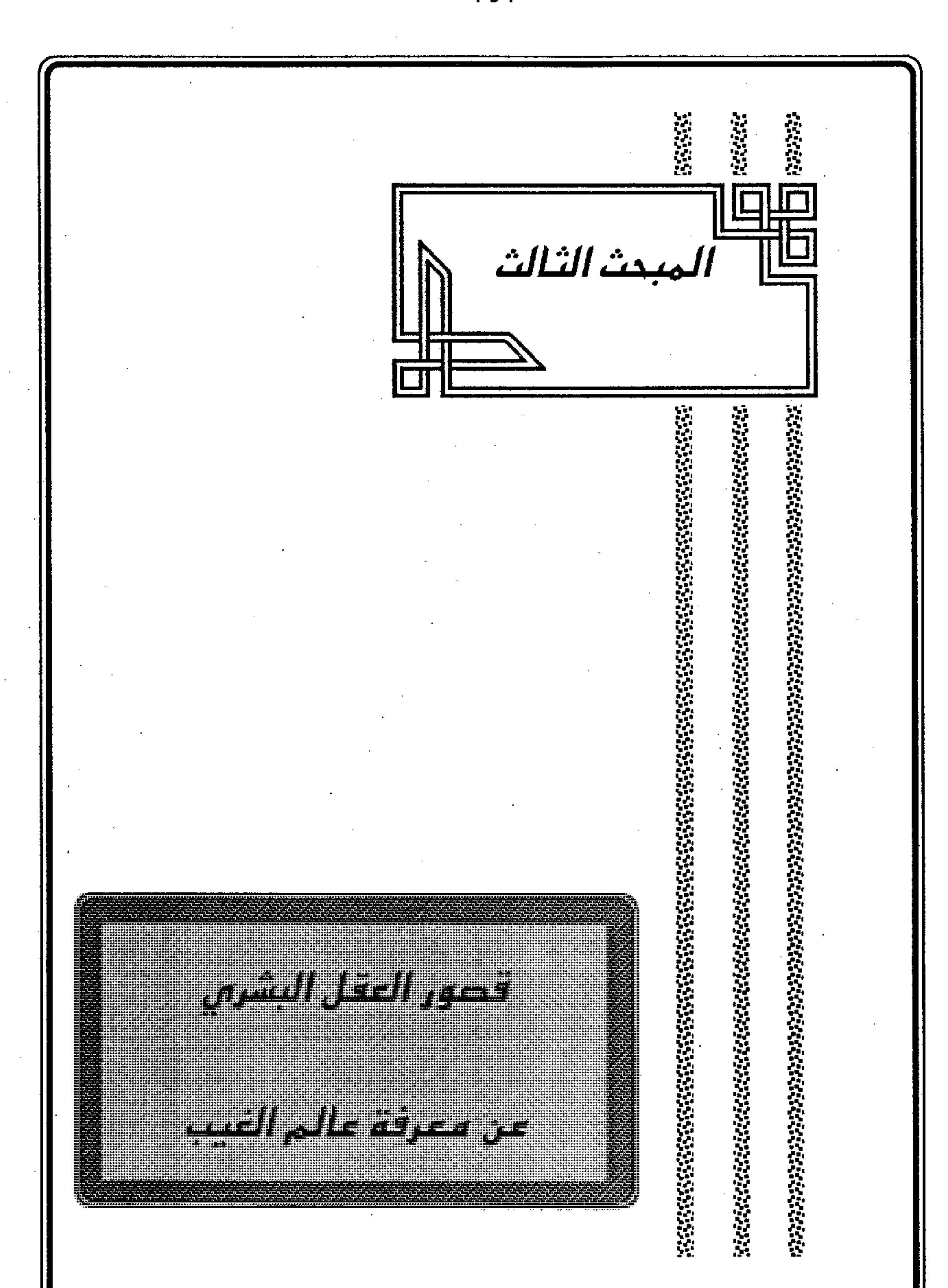
وإلى جانب ذلك فإن العقل كثيراً ما يضلّ ، وينحرف في أحكامه بسبب التقليد الأعمى لموروثات الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه ، فالتعصّب الأعمى يجعل العقل يتحجّر ، ولا يفكّر فيما إذا كانت هذه العقائد صحيحة أم باطلة ، وهذا أمر واضح إلى يومنا هذا ، فلا زال التقليد في العقائد منتشراً بالرغم من انتشار الاسلام ، ووضوحه ، وسهولة عقائده ، واتفاقها مع الفطرة السليمة ، ومع ذلك نجد أقواماً يصمّون آذانهم عن الإنصياع ، وإعمال الفكر فيما يدعوهم إليه الإسلام من التفكّر ، والتدبر .

وبذلك يتضح لنا أن العقل والحس قاصرين عن الوصول إلى المعرفة اليقينية فيما وراء الطبيعة ، ولذلك تأكدت الحاجة إلى المصدر اليقيني الذي لايرقى إليه الشك ، ولايكون عرضة للاحتمال والخطأ صيانة للانسان من التخبط والضلال في حياته القصيرة المدى .

ويتبين لنا بالتالي فساد ماذهبت إليه المدرسة الوضعية حين جعلت ماتوصلت إليه بالحس والعقل دينًا يتبع ، وخلقًا ينفذ ، ومنهجًا لحركة الناس ، ولسوف يتضح نتاج هذا الفساد في أفكارها الاجتماعية والدينية بإذن الله .

---

(١) الدين القيم صـ ٢٨ .



المبحث الثالث

قصور العقل البشري

عن معرفة عالم الغيب

المبحث الثالث

قصور العقل البشري عن معرفة عالم الغيب

تنكر المدرسة الوضعية عالم الغيب بالكليّة ، وبذلك فهي تنكر الألوهية والرسالة ، والملائكة ، واليوم الآخر ، وتنكر الوحي طريقاً لأىّ معرفة ، وسبب ذلك أنّها اكتفت بالعقل مرتبطاً بالواقع الحسّي ليعرفها بحقائق الأشياء ، وهذا الاكتفاء أدى بها إلى إنكار عالم الغيب .

وعالم الغيب حقيقة ، والإيمان بما فيه أساس للإيمان واليقين ، ولذا نرى الاسلام يقرر ابتداءً أنّ هناك عالماً آخر إلى جانب هذا العالم المشهود « عالم الشهادة » ألا وهو « عالم الغيب » وقد ورد ذكرهما مقترنين في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، يقول الله تعالى :

﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ، ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم يُنفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾. (١)

ويقول تعالى :

﴿ ثم تردّون إلي عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . (٢)

ويقول تعالى :

﴿ هو اللهالذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾. (٣)

---

(١) الأنعام آية ٧٣ .

(٢) التوبة آية ٩٤ .

(٣) الحشر ٢٤ .

((والغيب : كل ما غاب عنك ، وقوله تعالى :
﴿ يؤمنون بالغيب ﴾أي يؤمنون بما غاب عنهم مِّما أخبرهم به النبي ﷺ من أمر البعث والجنة والنَّار ، وكل ما غاب عنهم مِمَّا أنبأهم به فهو غيب .
وقال ابن الأعرابي : [يؤمنون بالله ، قال : والغيب أيضاً ما غاب عن العيون ، وإن كان محصَّلا في القلوب ، ويقال : سمعت صوتاً من وراء الغيب : أى من موضع لا أراه .
والغيب : كل ما غاب عن العيون سواء كان محصَّلاً في القلوب ، أو غير محصَّل)) (١)
وقال الراغب الأصفهاني : [الغيب : مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين ، يقال غاب عنّي كذا .
قال تعالى :
﴿ أم كان من الغائبين ﴾ ، واستعمل في كل غائب عن الحاسة وعمَّا يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب .
ويقال للشيء غيب وغائب باعتباره بالناس لا بالله تعالى فإنّه لا يغيب عنه شيء كما ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ وقوله ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ : أى ما يغيب عنكم ، وما تشهدونه ، والغيب في قوله تعالى :
﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ مالا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بداهة العقول ، وإنما يخبر بخبر الأنبياء عليهم السلام ، ويدفعه يقع على الانسان اسم الالحاد] . (٢)
وفسَّر أبو السعود الغيب بأنه [ماغاب عن الحسّ والعقل غيبةً كاملة ، بحيث لا يُدرَك بواحدٍ منهما ابتداءً بطريق البداهة .
وهما قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أُريد بقوله سبحانه : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ ، وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته والنبوات ، وما يتعلق بها من الأحكام ، والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور ، والحساب والجزاء] . (٣)

---

(١) لسان العرب جـ ١ صـ ٦٥٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن صـ ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

(٣) ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ١ صـ ٣٠ دار احياء التراث العربي

فالمقصود بعالم الغيب :

العالم الذي لا يمكن إدراكه عن طريق الحواس ، أو العقل منفرداً ، وإن كان في إمكان العقل السليم أن يتوصَّل إلى الإيمان به عن طريق توجيهه ، وإرشاده ، مثال ذلك : أنه يمكن الاستدلال على وجود الخالق عزّ وجل بالنظر في مخلوقاته البديعة ، وآياته الكونيّة العديدة التي يوجّه العقل إليها .

فالعقل إذاً يمكنه أن يؤمن بالله ، ويمكنه أن يتوصَّل إليه عن طريق النظر في الآيات المحسوسة .

وعالم الغيب موجود واقعي إلا أنه يتجاوز نطاق الحواس البشريّة ، وبذلك يتبيّن لنا خطأ الذين يجعلون عالم الغيب مقابلاً للواقع ، ويقولون إنَّ الايمان بالغيب إيمان بغير الواقع ، وهو مايقوله الوضعيون ، وأمثالهم من الملحدين .

فالقرآن الكريم جعل عالم الغيب مقابلاً لعالم الشهادة : أى العالم المشاهد الذي يمكن إدراكه عن طريق الحس البشري ، فعالم الغيب في الحقيقة موجود وواقع ، وإن كان لا يمكن إدراكه عن طريق الحس ، وفي إمكان العقل الاستدلال على وجوده كما رأينا بالنسبة إلى الاستدلال على وجود الله عن طريق الاعتماد على الظواهر الكونية المشاهدة .

---

(١) ارشاد العقل السليم رلى مزايا القرآن الكريم جـ ١ صـ ٣٠ دار احياء التراث العربي .

وقد امتدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأنَّهم : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ كما في قوله تعالى :

﴿ الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصَّلاة ، ومما رزقناهم يُنفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ . (١)

وهذا الغيب يتضمَّن أركان العقيدة الاسلامية .

يقول الله تعالي :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . (٢)

فالله سبحانه وتعالى غيب بالنسبة للبشر لأنَّه ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (٣) لا تحيط به سبحانه العقول ، والمؤمنون يؤمنون به ، ويستدلون بآثار فعله عليه سبحانه وتعالى .

يقول الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ بعد الآيات التي توجِّه الانسان إلى النظر في عجائب الكون :

[ليس يخفى على مَن معه أدنى مسكةٍ من عقل إذا تأمَّل بأدنى فكره مضمون هذه الآيات ، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات ، وبدائع فطرة الحيوان والنبات ، أن هذا الأمر العجيب ، والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبِّره ، وفاعل يحكمه ، ويقدِّره ، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ، ومصرَّفة بمقتضى تدبيره] (٤)

---

(١) البقرة آية ١ ـ ٥ .

(٢) البقرة آية ٢٨٥ .

(٣) الأنعام آية ١٠٣ .

(٤) إحياء علوم الدين جـ ١ صـ ١٠٥ .

والملائكة ، والجان من الغيب الذي أخبرنا الله تعالى عنه ، وإن كانت حواسنا قاصرة عن رؤيتهما .

[فالملائكة والجان لا نراهم رغم وجودهم حولنا لأنّ حواسنا ، وأجهزتنا عاجزةٌ عن ذلك ، فقد تكون هذه المخلوقات متحركة بسرعة تفوق سرعة النور فلا يقع عليها ، وبالتالي لا نشاهدها] . (١)

واليوم الآخر ، وما سيكون فيه كله من الغيب الذي لا يتحقّق الايمان إلا به فكل هذه الأمور حقيقة واقعة ، والعقل لا يستطيع أن يصل إليها من ذات نفسه

> [لأنّها ليست في محيط تجربته ، ولا تستطيع الأدوات التي يحصل بها المعرفة ، وهي أدوات الحس أن تصل إليها لأنّها خارجة عن نطاق المحسوس ، وإن كان في إمكان العقل أن يعقلها حين تبين له ، فهذه تُلقّن للعقل تلقيناً عن طريق الوحي ، ويكون دور العقل فيها أن يعقلها لا بطريق التجربة المباشرة ولا بطريق الحس ، ولكن عن طريق التيقّن من صدق الخبر ، وصدق المخبر ، وهو مدعوٌ ... إلى القيام بعملية التيقّن هذه بكل الوسائل التي يملكها ، وهي مؤديّة إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق] . (٢)

فأمور الغيب هذه لا يستطيع الانسان بعقله المحدود القاصر أن يصل فيها إلى معرفة يقينيّة ، قطعية بالاعتماد على نفسه فقط ، بل لابدّ فيها من التسليم بالخبر الصادق الموحى به .

ودور العقل هنا يقوم في التدبّر ، والتفكر في آيات الكون ، والاستدلال بها علي الخالق سبحانه وتعالى ، والتفكّر أيضاً في الرسول المرسل ، وأنه صادق فيما يبلّغه عن ربه ، وينتهي الأمر به إلى التسليم ، والتصديق بكل ما يخبره به عن ربه .

---

(١) منهج القرآن والعلم في إثبات الألوهية صـ ٣١٣ رسالة ماجستير في العقيدة .

(٢) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة صـ ٥٣٢ الطبعة الأولى عام ١٤٠٣ دار الشروق .

وهكذا يكتشف الانسان عالم الغيب في الاسلام ، إنّه مكلّف بالنظر والتدبر ليؤمن بالله تعالى متصفاً بكل كمال يليق به ليكون إيمانه عن يقين تام واقتناع صادق ، وعليه أيضاً أن يعقل رسالة الرسول ، وامكانية اتصاله بالملك ، وتلقينه للوحي المنزّل ليوصله للناس ، وإذا ما آمن العقل البشري بهاتين القضيتين الغيبيّتين « الألوهية والرسالة » فإنّ عالم الغيب بعد ذلك يأتيه وحياً من الله تعالى ، وعليه أن يصدِّق بكل ما يرد إليه من هذا المصدر ، يكفيه أن يعلم أنّ الوحي أخبره عن الله بواسطة رسول الله ﷺ وبذلك يكون الصدق ، واليقين .

وبهذا المنهج الإيماني يعيش الانسان متوازنا ، راضياً ، عالمـــاً بحياته ، وما يحيط به من عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، وبذلك يستقيم مع فطرته ، ويسمو عن غيره من المخلوقات . [فالايمان بما تدركه الحواس ليس هـــو مزية الانسان العظمى إذ هو أقرب في طبيعته للطاقة الحسّية المشتركة بين الانسان ، والحيوان](١)

[والايمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الانسان فيتجاوز مرتبة الحيـــوان الذي لا يُدرك إلاّ ما تدركه حواسه إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر ، وأشمل من ذلك الحيّز الصغير ، المحدّد الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ ، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصوّر الانسان لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون ، وما وراء الكون من قدرة وتدبير كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض ، فليس من يعيش في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته ، وبصيرته ويتلقّى أصداءه ، وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ، ويشعرأنّ مداه أوسع في الزمان، والمكان من كل ما يدركه وعيه

---

(١) مذاهب فكريّة معاصرة صـ ٥٣٢ .

في عمره القصير المحدود ، وأنَّ وراء الكون ظاهره ، وخافيه حقيقة أكبر من الكون هي التي صدر عنها ، واستمدَّ من وجودها وجوده .. حقيـقة الذات الإلهيـة التي لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بها العقول . (١)

والإيمان بالغيب هو القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الأديان السماوية كلها ، فأهم حقيقة يؤمن الانسان بها وهي وجودالله سبحانه وتعالى يؤمن بها بالغيب والحياة الآخرة ، وما فيها من البعث ، والنشور ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار .. كل هذا غيب يجب الايمان به ، والدين يقوم عليه .

إن الايمان بالغيب ـ كما رأينا ـ يوسِّع آفاق النفس الانسانية ، ويرتقي بها عن عالم المادة ، والبهيميّة ، ويجعلها ترفرف ، وتحلق ، في عالـم الروح لتكون أهلاً لتلقي الهدى الرباني .

قال تعالي :

﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجرا كبيراً ﴾ (٢)

والوضعيُّون بإنكارهم لعالم الغيب يريدون للانسان أنّ ينحطَّ إلى درجة الحيوان ، وينحصر في عالم المادة المحسوس ، فيحرمونه من أعظم نعمة يستشعرها المؤمن ألا وهي قدرته على السمو ، والتحليق بروحه فوق عالم البهيمة ، والمادة .

وفي الحقيقة فإنّ دعوى الوضعيِّين أنهم لا يؤمنون إلا بما تدركـه حواسهم ، ليست جديدة ، بل هي دعوى الماديّين منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن هؤلاء الحسيِّين أنهم كانـوا يشترطون للايمـان به تعالى أن يدركوه عن طريق حواسهم .

(١) في ظلال القرآن جـ ١ صـ ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) الاسراء آية ٩ .

يقول الله تعالى في ذلك :

﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلِّمنا الله ، أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيّنّا الآيات لقوم يوقنون ﴾ (١)

وهؤلاء الماديّون [يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه : فهم يؤمنون بالجاذبية ـ وقوانينها ، ولم يشاهدوها ، بل رأوا آثارها ، ويؤمنون بالعقل ولم يروه ، بل رأوا آثاره ، ويؤمنون بالمغناطيسية ، وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ... فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ، ولكن آثارها [هي] التي دلتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك ، وهذا يعني بوضوح أن كثيراً من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لاحساسهم بآثارها دون احساسهم بها ذاتها .] . (٢)

وهكذا نرى أنّ إنكار الغيب إنّما هو إرتكاس ، وانتكاس للإنسان ، فمن المعروف أنّ الانسان كلما انحط في تفكيره ركن إلى المحسوس وحده ، فلم يؤمن إلا بما تقع عليه حواسه ، وكلما ارتقى ، وسما روحياً آمن بعالم الغيب الذي لا يمكن للحواس ولا للعقل أن يصلا إلى معرفته وحدهما .

---

(١) البقرة آية ١١٨ .

(٢) الله جل جلاله صـ ١٠ .

يقول الدكتور « عبد الحليم محمود » :

[كشف الزمن في تتابعه ، عن الصورة الحقيقية للانسانية فيما يتعلق بمقدرتها على الكشف عن عالم الغيب .

لقد كشف الزمن عن أن عالم الغيب إنما هو حجر محجور بالنسبة للعقل البشري فلن يتأتى بوضعه البشري أن يطأ حماه ، ولا أن يلج بابه] . (٢)

ويقول كذلك عن عالم الغيب ، وعن قصور وسائل الانسان من حواس وعقل عن الوصول إلى هذا العالم وإدراكه :

[إنه ما وراء المادة ، ما وراء الكون ، ما وراء الحس ، أي إنّه : الميدان الذي لا تتأتى المعرفة فيه بإنعام النظر ، وإعمال الفكر إذ أنّ إنعام النظر ، وإعمال الفكر لا يتأتى إلاّ في المجالات التي تمدنا فيها الحواس بالأساس ، وبالأصل الذي نبني عليه ونستنتج منه ، ونبحث فيه .

وبدون هذا الأساس الحسي ، والأصل المادي لا يقوم بناء عقلي ، ولا رأي نظري سليم .

والالهيات أو عالم الغيب ـ على حد تعبير القرآن ـ ليس مادياً ، وهو إذن لا يقع تحت الحسّ ، وليس للحس فيه مجال .

وهو من أجل ذلك حجر محجور على العقل ...

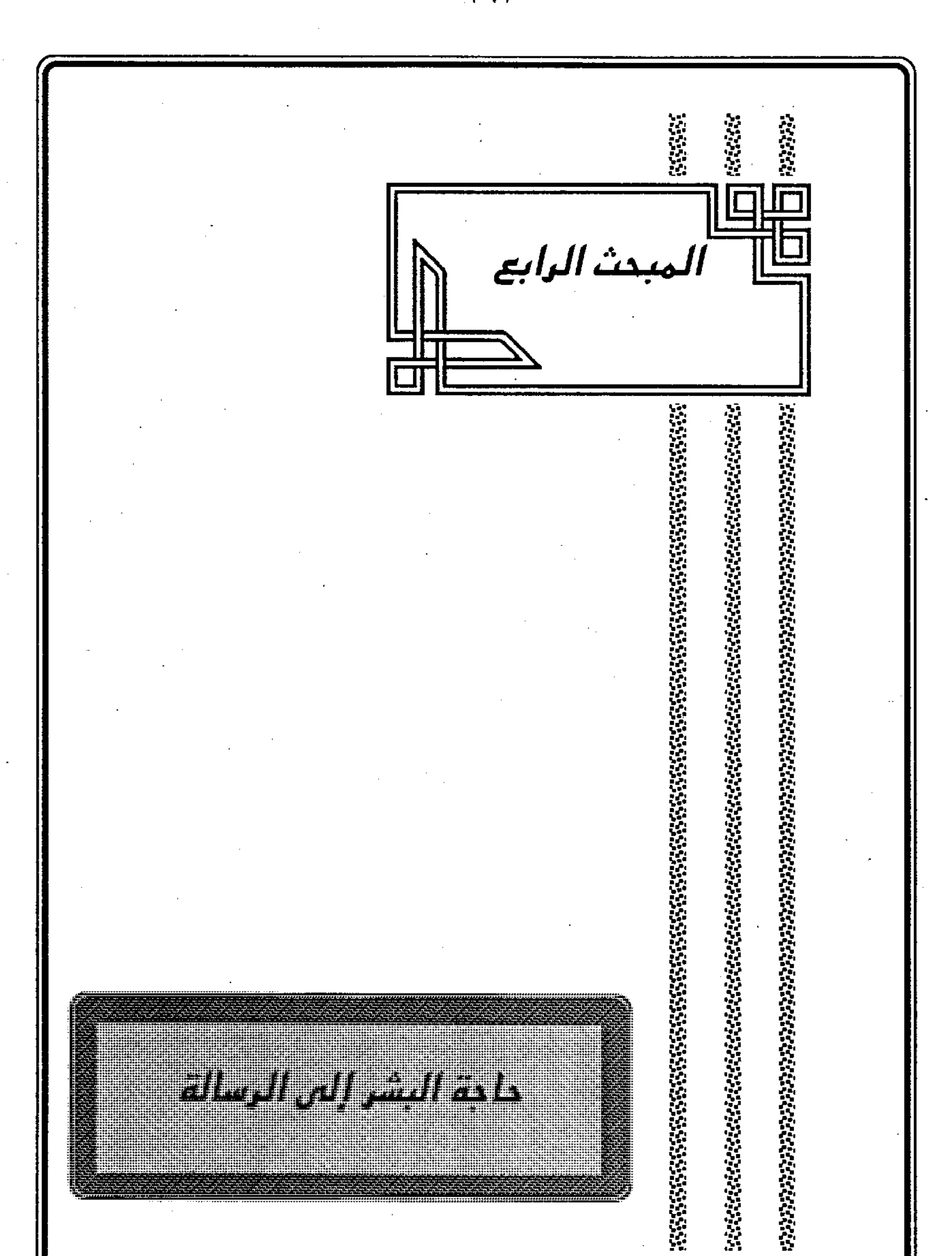
وإذا ما حاول الانسان إذن أن يصل إلى عالم الغيب : عالم المجردات بانعام النظر : فإنه يحاول السير في طريق مغلق ، إنها محاولة الجاهل ، إنها محاولة بنيت على أساسٍ خاطي فكل ما تصل إليه من نتائج إنمـــا هي تخبط وضلال ، وجهل] . (١)

وهكذا نصل إلى أنّ عالم الغيب موجود ـ وإن أنكره الوضعيّون ، والماديّون على اختلاف نحلهم ـ ، والإنسان عاجز بحواسه ، وعقله عن الوصول إلى معرفة هذا العالم ، بل لا بد من الاعتماد في معرفته على الوحي وحده ، فهو الذي يرشد الانسان ، ويهديه ، ويبيّن له المبادىء العامة التي لا يمكن لعقله أن يصل إليها . ولذلك مسّت الحاجة إلى الرسالة الإلهية . (٢)

---

(١) التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل صـ ٥٠ دار الكتب الحديثة .

(١) المرجع السابق صـ ٥٤ .



المبحث الرابع

حاجة البشر إلى الرسالة

المبحث الرابع

حاجة البشر إلى الرسالة

إن الانسان فـــي هذه الحياة يحتاج إلى منهاج يعرفه طريق الخير من الشر ، ويبين له الحق من الباطل ، ويحتكم اليه في كل مايعرض من مسائل وأمور ، في كل أمور الحياة .

ولا شكَّ أنَّ الذي يضع المنهاج للبشر ليسيروا على ضوئه في حياتهم ، ويُحكِّموه في كل ما يعرض لهم من شئون الحياة لا بدَّ أن يكون عالماً بحقيقة هذه الحياة الدنيا ، وغايتها ، ومصيرها ، ولابدَّ أن يكون عالماً بحقيقة النفس الانسانية ، وما يصلحها ، وعالماً بالخير ، والشر ، وقيم الأخلاق الراسخة ، وليس ذلك غير الله سبحانه وتعالى .

ولا شك أنَّ عقل الانسان مهما بلغ من حدة الذهن ، والذكاء ، وسعة المعارف ، والمعلومات لا يمكنه بحال من الأحوال أن يصل إلى وضع منهاج للبشر في حياتهم لأن [الانسان محكوم أولاً بطبيعته : طبيعة أنه مخلوق حادث ، ليس كلياً ، ولا مطلقاً ، ليس أزلياً ، ولا أبديا ، ومن ثمَّ فإنَّ إدراكه لابد أن يكون محدوداً بما تحده به طبيعته ثم هو محدود بوظيفته وظيفة الخلافة في الأرض لتحقيق معنى العبادة لله فيها ، ومن ثمَّ فقد وُهِب من الإدراك ما يناسب هذه الخلافة بلا نقص ولا زيادة] . (١)

---

(١) خصائص التصور الاسلامي صـ ٤٠ .

وقد وضَّح « ابن رشد » : رحمه الله هذه الحقيقة بقوله :

إنّ الشرائع لا تنال إلاّ بعد المعرفة بالله ، وبالسعادة الانسانية ، والشقاء الانساني ، وبالأمور الإرادية التي يتوصَّل بها إلى السعادة ، وهي الخيرات ، والحسنات ، و الأمور التي تعوق عن السعادة وتورث الشقاء الأخروي ، وهي الشرور والسيِّئات .

ومعرفة السعادة الانسانية ، والشقاء الانساني تستدعى معرفة ما هي النفس ، وما جوهرها ؟ وهل لها سعادة أخروية ، وشقاء أخروي أم لا ؟ وإن كان فما مقدار هذه السعادة ، وهذا الشقاء ؟ فبأي مقدار تكون الحسنات سبباً للسعادة ، فإنه كما أنّ الأغذية ليست تكون سبباً للصحة بأى مقدار استعملت ، وفي أي وقت استعملت ، بل بمقدار مخصوص ، وكذلك الأمر في الحسنات ، والسيئات ، ولذلك نجد هذه كلها محدودة في الشرائع .

وهذا كله ليس يتبيَّن إلاّ بوحي ، أو يكون تبيينه بالوحي أفضل ، وأيضاً فإن معرفة الله على التمام إنما تحصل بعد المعرفة بجميع الموجودات ، ثم يحتاج إلى هذا كله واضع الشرائع أن يعرف مقدار ما يكون به الجمهور سعيداًمن هذه المعرفة ، وأيَّ الطرق التي ينبغي أن تسلك بهم في هذه المعارف ، وهذا كله بل أكثره ليس يدرك بتعلّم ، ولا بصناعته ، ولا حكمة] . (١)

وبذلك يتضح لنا أن العقل البشري الذي جعله الوضعيّون َحكماً ، يحتكمون إليه في حل مشاكلهم ، ويرتضون أحكامه ، قاصر عن التوصل إلى وضع المنهاج الذي يحقق سعـــادة البشـــرية ، فهذه [المسائـــل النهائية التي يتوقف عليها أمر وضع « الدين » لا تأتي فيها الحواس بشيء من المواد أصلاً أفترى أن يُقضى في تلك المسائل بمجرد الأوهام ، والأخيلة ، والأقيسة التي لا طائل تحتها ؟ وكذلك القيم الأخلاقية المستقلة التي لابد من تعيينها وتحديدها في مهمة وضع ذلك الدين لاتزوِّد لها الحواس إلا بمواد ناقصة جداً ، فهل يمكن أن يرجـى من العقـل أن يعيِّن ، ويحدد القيم الصحيحة الكاملة على أساس المواد الناقصة ؟] (٢)

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة صـ ١١٧ منشورات دار الآفاق الجديدة تحقيق لجنة إحياء التراث العربي الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ . المؤلف : ابن رشد .

(٢) الدين القيم صـ ٢٨ ــ ٢٩ . المؤلف : أبو الأعلى المودودي .

والعقل الانساني ، وإن كان في إمكانه أن يدرك الحسن ، والقبيح في الأفعال ، بصورة إجمالية إلاّ أنّ العقول البشرية تتفاوت في العمل الواحد المعيّن هل هو حسن أم قبيح ؟ ومن هنا تبرز الحاجة إلى الوحي الإلهي لحسم الأمر ، وبيان وجه الحق ، والصواب في المسألة [فالناس متفقون على أنّ الأعمال منها ماهو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ، ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم ، وأهلُ النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أنّ الحسن ما كان أدوم فائدة ، وإن كان مؤلماً في الحال ، وأنّ القبيح ما جّر إلى الفساد في النظام الخاص بالشخص .. ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عملٍ بعينه اختلافهم في أمزجتهم ، وسحنهم ، ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم ، فلذلك ضربوا إلى الشر من كل وجه ، وكلُ يظن أنه إنما يطلب نافعاً ، ويتّقي ضاراً .

فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه إلى ما فيه سعادته في هذه الحياة] .(١)

ومن هذا يتبّين لنا مدى قصور العقل البشري عن معرفة أهم المسائل التي تلزمه في حياته ، ومن أهمّها القيم الأخلاقيّة التي يجب عليه أن يتمسّك بها ويسترشد بها في كل مايُقدِم عليه ، ولو تُرِك الانسان لعقله يختار ما يريد من السلوكيّات ، والأخلاق لانتهت الحياة إلى الفوضى ، والتحلل والإنقياد للشهوات ، والأهواء بلا ضابط من دين ، ولا من خلق ، حيث تسوّل لكل امرىء نفسه ، ويزيّن له عقله ما يفعله ، فيظن أنّه هو على الحق ، وغيره على الباطل .

ولذلك كان من رحمة الله تعالى بهذا الانسان أن أرسل إليه «الوحي الإلهي» على أيدي رسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه

---

(١)رسالة التوحيد صـ ٧٧ . المؤلف : محمد عبده .

أجمعين ليأخذوا بأيدي البشر إلى ما فيه صلاحهم ، وسعادتهم ، ذلك لأنّ [الانسان في التصوّر الاسلامي ، كما هو في الحقيقة على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى في هذا الملك العريض ، وعلى كل ما سخر له من القوى ، والطاقات والأشياء ، والأحياء فيه ... على كل هذا هو مخلوق ضعيف تغلبه شهواته أحياناً ، ويحكمه هواه أحياناً ، ويقعد به ضعفه أحياناً ، ويلازمه جهله بنفسه في كل حين .. ومن ثمّ لم يُترك أمر نفسه ، ومنهجه في الحياة لشهواته ، وهواه ، وضعفه ، وجهله ، ولكن أكمل الله عليه نعمته ، ورعايته فتولّى عنه هذا الجانب الذي يعلم ــ سبحانه ــ أنّ الانسان لا يقدر عليه قدرته على المادة ، ولا يعلم بمقتضياته علمه بقوانين المادة] . (١)

ولذلك كانت بعثة الرسل عليهم الصّلاة والسلام هداية للخلق فيما تعجز عقولهم عن معرفته ، والوصول إليه ، **كما يقول « ابن تيمية » رحمه الله:**

[لا ريب أنّ الرسل صلوات الله عليهم يخبرون الخلق بما تعجز عقولهم عن معرفته ، ولا يخبرونهم بما يعلمون امتناعه فهم يخبرونهم بمحارات العقول لا بمحالاتها ، فمن أراد أن يعرف ما أخبرت به الرسل بعقله كان شبيهاً بمن قال الله تعالى فيه :

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٢) .] . (٣)

يقول الدكتور عبد الحليم محمود ــ رحمه الله :

[أمّا الصراط المستقيم فيما يتعلق بصلة الدين بالعقل فهو :

أولا :

جاء الدين هادياً في مسائل معينة وهي أولا : العقائد الخاصّة بالله سبحانه ، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وباليوم الآخر ، وبالغيب الإلهي على وجه العموم .

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة صـ ٢٦ .

(٢) الأنعام آية ١٢٤ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل جـ ٧ صـ ٣٢٧ الطبعة الأولى عام ١٤٠١ هـ تحقيق محمد رشاد سالم .

ثانيا :

في مسائل الأخلاق أى الخير والفضيلة ، وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الانساني ليكون الشخص صالحا .

ثالثا :

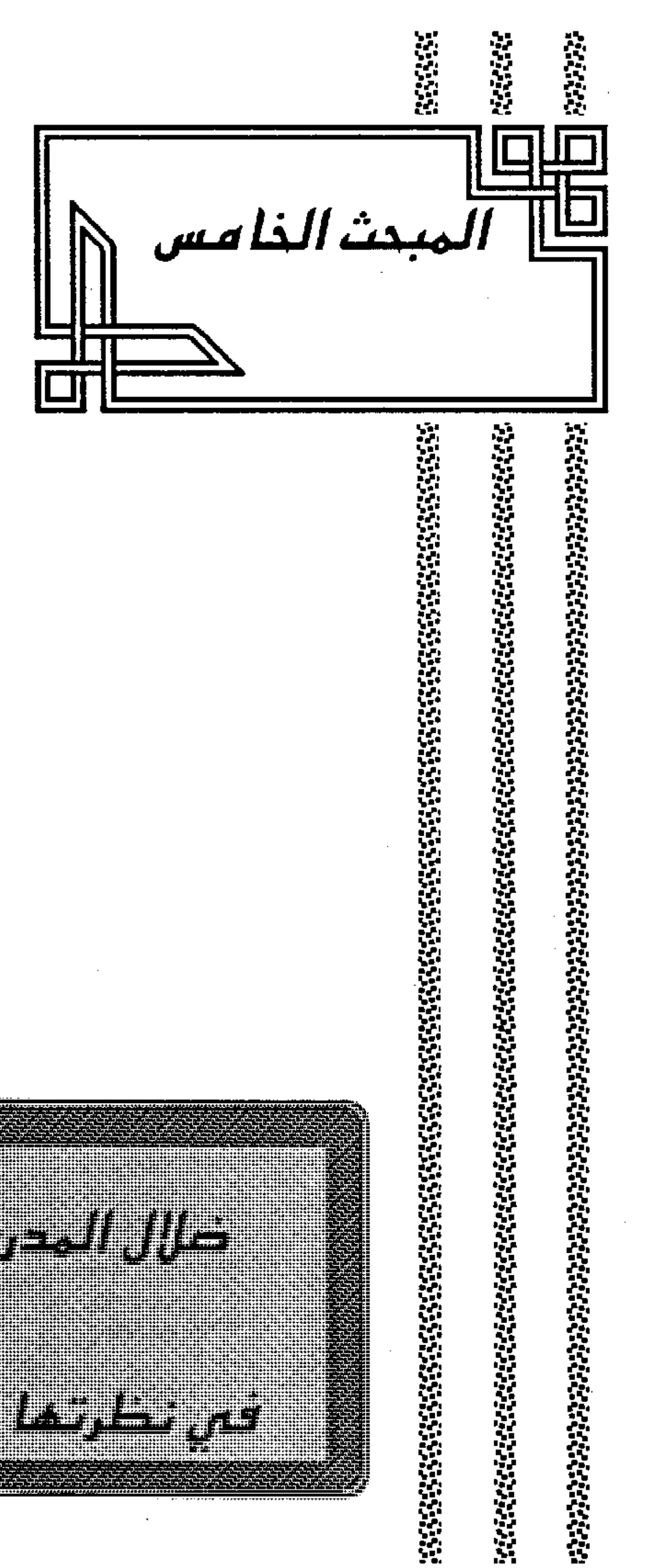
في مسائل التشريع الذي ينتظم به المجتمع ، وتسعد به الانسانية . وجاء الدين هادياً للعقل في هذه المسائل بالذات لأنّ العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه لا يصل إلى نتيجة يتفق عليها الجميع . ومعنى ذلك أنّه لو ترك الناس ، وعقولهم في هذه المسائل فإنهم يختلفون ، ويتفرقون فرقاً عديدة ، ويتنازعون ، ولا ينتهي الأمر بهم إلى الوحدة ، والانسجام ، ولا إلى الهدوء والطمأنينة] (١)

وبهذا يتأكد لنا أنّ [الحاجة إلى الرسل ضرورية ، بل هي فوق كل حاجة ، فليس العالم إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ولهذا يذكر الله سبحانه عباده بنعمه عليهم برسوله ، ويعدُ ذلك عليهم من أعظم المنن منه ، لشدة حاجتهم إليه ، ولتوقّف مصالحهم الجزئية ، والكلية عليه ، وأنه لاسعاده لهم ، ولا فلاح ، ولا قيام إلا بالرسل] . (٢)

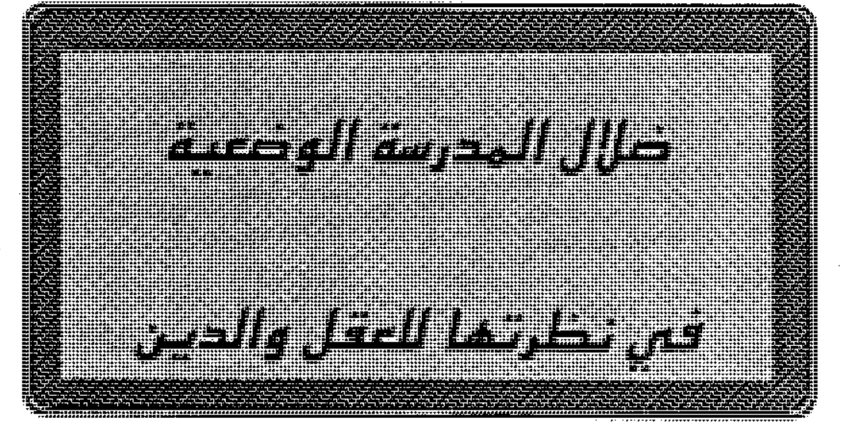
---

(١) التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل صـ ١٨ .

(٢) ابن القيم : مفتاح دار السعادة جـ ٢ صـ ١١٧ .



المبحث الخامس



ضلال المدرسة الوضعية في نظرتها للعقل والدين

المبحث الخامس

ضلال المدرسة الوضعية في نظرتها للعقل والدين

رأينا فيما سبق مدى طاقة ، وقدرات كل من الحس ، والعقل ، وبيَّنا أهميتهما في الإدراك ، والمعرفة ، ووضحنا الحاجة الضرورية للوحي الإلهي ليحدِّد للانسان المنهج السديد ، وليضع أمامه الحقائق الصادقة عن عالم الغيب ، والشهادة ، وعن الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وعن الدنيا والآخرة وثبت بما بيّناه أنّ ما ذهبت إليه النظرية الوضعية ، وبخاصّة في مجال المعرفة ، والدين مجموعة من الأخطاء في التصور ، والحكم ، والتوجيه ، حيث ينادي الوضعيون ، وعلي رأسهم « أوجست كونت » بضرورة الاقتصار على العلم الوضعي وحده ، واتخاذه نبراساً ، وهدىً يسيرون في حياتهم على ضوئه ، وعلى ما يتوصلّ إليه من مكتشفات ، ومخترعات ، ويرون أنَّ العلم الكوني هو وحده الكفيل بحل جميع ما يعترض حياة الانسان من مشكلات ، وأنّه هو الذي في إمكانه أن يرسم له المنهاج الذي يسير عليه في حياته .

ويصمون الايمان بالغيب بأنه إيمان بالخرافة ، والأسطورة ، وما إلى ذلك واليوم ونحن في قمة التقدم العلمي ، وعلى نهاية القرن العشرين نلتفت إلى مهد ، وموطن هذه الحضارة التي أقامت حياتها على أساس الإيمان بالعلم التجريبي وحده ، ونبذ الايمان بالغيب الذي تقوم عليه الأديان السماوية فلا نرى في واقعهم إلا إنحداراً ، وانحطاطاً إلى أحط دركات الانحلال ، والتحلل الخلقي ممّا لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية جمعاء ، ولا زال الانحدار مستمراً ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُ على قصور العلم التجريبي ـ وهو من منتجات عقول البشر ـ عن التوصّل إلى عقيدة تملأ قلب الانسان ، وتشيع بين جنبيه الشعور بالطمأنينة ، والسعادة الروحية ، وأنّ العلم مهما قدّم للإنسان من تسهيلات ماديّة حقّقت الرفاه ، والتقدم الماديّ في بعض ميادين الحياة العملية . فانه عاجز

عن إشباع الحاجات الروحية للإنسان ، وعن تحقيق الطمأنينة للنفس الانسانية ، وذلك لأنّ هذا العلم قد أبعد الانسان عن مصادر الهدى ، وموحيات الايمان .
ولبيان أخطاء المدرسة الوضعية هذه فإني أتناول في هذا المبحث المطالب التالية :

المطلب الأول :خطؤها في المنهج الذي وضعته لتفسير النشأة الدينية .
المطلب الثاني : خطؤها في تفسيرها لنشأة العقيدة الدينية .
المطلب الثالث : خطؤها في موقفها من الفكر الديني .
المطلب الرابع : التناقض في المذهب الوضعي .

المطلب الأول

خطأ المدرسة الوضعية في المنهج المستخدم لتفسير النشأة الدينية *

إن المدرسة الوضعية ــ كما رأينا فيما سبق ــ قد اعتمدت في دراستها لأصل نشأة العقيدة الدينيَّة على المنهج التاريخي ، وقد اتجهت إلى دراسة الأديان كما تظهر عند القبائل البدائية ، وهي القبائل التي يظن الباحثون أنّها لازالت على فطرتها الأولى ، ولم يلحقها التطور الحضاري ، وقد وجد الباحثون من هذه القبائل أمثلة عديدة في قارة أستراليا ، فاتخذوها موضوعاً لدراساتهم ، وبالإضافة إلى ذلك فقد عمد الباحثون إلى التنقيب في التاريخ البشري ، ودراسة أديان الأمم القديمة ، ومقارنتها للتوصّل من ذلك إلى معرفة الصورة الأولى التي ظهرت عليها العقيدة الدينيّة على سطح الأرض ، وهم في سبيل ذلك لم يهتموا بالأسباب ، والحوافز التي يمكنها أن تستثير العقيدة الدينية ، فتظهرها ، بل انصبَّ كل همهم على معرفة أول صورة لظهور العقيدة الدينية على الأرض ، وكانت أبحاث ودراسات « دوركايم » و « ليفي بريل » خير شاهد على مثل هذه الدراسات ــ فكما رأينا أن « دوركايم » فسَّر نشأة الدين اعتماداً على هذا المنهج ، ومن قبله « أوجست كونت » كما يقول هو نفسه فقد توصل إلى قانونه في الحالات الثلاث عن طريق الدراسة التاريخيّة للشعوب ، والأمم القديمة ، وكذلك ركَّز « ليفي بريل » على دراسة الأمم البدائية ، وطريقة تفكيرها ، ودياناتها ، وأخلاقها ، وقد عمم هؤلاء الوضعيّون النتائج التي توصلّوا إليها على جميع الأمم ، وجعلوها قاعدةً عامة ، ولا شك أنّ هذا المنهج الذي اعتمد عليه الوضعيون ، وعلماء الاجتماع بصفة عامة ، في دراساتهم يحتوي على أخطاء عديدة ، وضحها **الدكتور محمد عبد الله دراز بقوله :**

[إنّ وضع المسألة على هذا الوجه ، ومحاولة حلها من هذا الطريق ينطوي على خطأ مزدوج : خطأ في الغاية ، وخطأ في الوسيلة .

أما من حيث الغاية التي يهدف إليها البحث : وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة

---

* اعتمدت في دراسة هذا المطلب بصورة أساسية على كتاب « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز « رحمه الله »

والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة باطلاق ، فلأنَّ هذه المنطقة « البدائية المحضة » قد اعتبرها العلم شقةً حراماً ، وحظرها على نفسه ، وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله ، فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيّف .. ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأنّ الآثار الخاصّة بديانة العصر الحجري ، وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً ، فلا سبيل للخوض فيها إلاّ بضرب من التكهن ، والرجم بالغيب وأما من حيث المنهج : وهو الاستدلال على ديانة الانسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة ، المتخلفة عن ركب المدنيّة فلأنّه مبني على افتراض أنّ هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها بحثنا ، وأنّها لم تمرّ بها أدوار متقلّبة ، وهو افتراض لم يقم عليه دليل ، بل الذي أثبته التاريخ ، واتفق عليه المنقّبون عن آثار القرون الماضية هو أنّ فترات الركود ، والتقهقر التي سبقت مدنّياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنّيات مزدهرة ، وأن هذه المدنّيات قامت بدورها على أنقاض مدنيّات بائدة قريبة أو بعيدة في أدوار تتعاقب على البشرية] . (١)

ومن هذا يتضح لنا أنّ المنهج الذي يقوم على دراسة أديان الأمم القديمة ، والبائدة ودراسة أديان الأمم التي يُظن فيها أنّها باقية على فطرتها الأولى منهج خاطيء من أساسه ، وذلك لأنّ اعتبار الأديان التي عليها الأمم والقبائل التي يطلقون عليها اسم « البدائية » هي الأديان التي ظهرت أول ما ظهرت على سطح الأرض اعتبار يقوم على مجرد الافتراض ، فقد أثبت التاريخ أنّ فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنّياتها الحاضرة كانت مسبوقه بمدنّيات مزدهرة ، وأنّ هذه المدنّيات قامت بدورها على أنقاض بائدة ، وهكذا لا يمكن تعيين أحد الأمرين بصفة قاطعة ، بل ذلك عرضة للتخمين ، والظن ، وكذلك الشأن بالنسبة للعقائد الدينية ـ كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز ـ فمن الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة ، ولا يمكن تعيين أحد الأمرين بصفة قاطعة بالإعتماد على دراسة التاريخ فقط .

وإضافة إلى ذلك فإنّ المعلومات التي يتوصَّل إليها الباحثون في القبائل البدائية ليست صحيحة تماماً ، بل لابّد أن يتسرَّب إليها الشك ، والظن ، والاحتمال ، وذلك لأنّ هؤلاء الدارسين ليسوا على ثقافةٍ ، وإلمام بعلوم النفس ، والمنطق والدين ، والأخلاق لتمكنهم من التوصّل إلى حقيقة الأمور ، ووضع الأسئلة الدقيقة في هذا الشأن ، كما أنّهم ـ في الغالب ـ ليسوا مزَوَّدين بمنهاج معَّين ديني أو أخلاقي ، بل هذا الجانب هو أقلُ ما يسترعي اهتمامهم ، كما أنّ هذه المعلومات التي يحصلون عليها لا تُستقى من آثار مكتوبة ـ لأن الفرض أنّ هؤلاء الناس محرومون من العلوم ، والفنون المدونة ـ بل تؤخذ من أفواه قوم لم يصلوا بعد إلى تحليل أفكارهم ، وتحديد شعورهم في هذه المسائل ، كما أن اللغات البدائية التي يتحدثون بها لم تستكمل وسائل التعبير عن المعاني الدقيقة الغامضة .

ولذلك فإن هذا المنهج الذي يعتمد عليه الباحثون في دراسة أديان القبائل البدائية إنما هو منهج خاطيء من أساسه ، ولا يجوز أن تُعمَّم النتائج التي يتوصلون إليها لتكون قاعدة تنطبق على جميع الأمم ، والشعوب .

فمن أمثال هذه الأخطاء المنهجيّة التي وقعت فيها المدرسة الوضعيّة أنّ « دوركايم » عمَّم النتائج التي توصَّل إليها على جميع الأمم ، واعتبر أنّ « الديانة التوتمية » هي الديانة الأولى التي ظهرت على سطح الأرض ، وذلك يقوم على مجرد افتراض خاطيء كما رأينا .

بل إنّ القبائل الأسترالية التي أجرى عليها أبحاثه ، ودراساته هي أحدث القبائل الأسترالية ، وأكثرها تقدماً ، كما أثبت العلم بعد ذلك ـ وكذلك فإنّ « دوركايم » الذي وضع المنهاج الذي تُدرس على ضوئه الظواهر الاجتماعيَّة أخطأ في تطبيق هذا المنهج ، وانحرف عنه ، فهو قد دعا إلى دراسة الظاهرة المراد دراستها كما هي عند أغلب الأفراد ، وفي أكثر المجتمعات ، ولكنه عند دراسته للظاهرة الدينيَّة نجده يعمد إلى دراسة الظاهرة النادرة الوقوع ، ويجعلها هي الظاهرة العامة ، ويقول عنها : إنها هي التي تمثل الدين .

يقول الدكتور ـ محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ :

[إنّ الذي يريد أن يصوِّر الحالة الطبيعيَّة للجماعة يجب عليه بمقتضى القانون الذي وضعه الرئيس * أن يستقرىء هذه الحالة من سلوك غالب أفرادها في غالب أزمنتها ، وأمكنتها .

فإذا كان من المتفق عليه أنّ الدين يكاد يسيطر على كل شيء في حياة الجماعات الفطريّة ، أفلا يكون من أشنع المخالفات القانونية أن تُلتمس الظاهرة الدينيّة عند هذه الشعوب في تلك الحالة النادرة ؟ وذلك المظهر الاستثنائي الذي لا يتكرر في مجرى حياتهم العامة ؟ وأن نهمل ما وراء ذلك من معتقدات وعبادات ، وأخلاق ، وعادات ، يتألف منها هيكل الحياة الشعبية ؟ لئن كان الفيلسوف قد أصاب حين طلب إلينا أن نميِّز بين لونين متباينين في حياة الجماعة الفطريّة ، لقد عكس الوضع بعد ذلك حيث جعل الشاذّ منهما قاعدةً للغالب ، وأساء الإختيار ، حيث أخذ اللون الإباحي اللاديني فجعل منه حقيقة الدين] . (١)

ومن الأخطاء المنهجّية التي وقع فيها هؤلاء الباحثون اتجاههم إلى دراسة الظاهرة الدينيَّة في أقدم عصورها التاريخيّة ـ فقط ، والمفروض أن تتجه الدراسة إلى دراسة هذه الظاهرة في جميع المراحل التي تظهر فيها في مجتمع ما من المجتمعات .

هذا وقد أثبت العلم نفسه أخطاء « دوركايم » في تفسيره « للدين » ، ومنها مثلاً اعتباره نظام « العشائر » أنه أقدم نظام اجتماعي ، فقد أثبت العلم أنَّ الحقيقة هي أنّ النظام الأسري هو أقدم النظم الاجتماعية [فالآثار الباقية من عهد القبائل الآريّة ، والساميّة يتبيّن منها أنّها كانت قائمة على النظام الأسري] .(٢)

وكذلك فقد أخطأ « دوركايم » حين اعتبر « الدين » نظاماً اجتماعياً أوجدته الجماعة ليعود إليها بالعبادة ، والتقديس .

(*) يقصد دوركايم .

(١) الدين صـ ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) نفسه صـ ١٦٣ .

هذا ، وقد اقتصر « دوركايم » في التوصل إلى آرائه هذه على ملاحظته الشعائر والعبادات الجمعيّة التي يقوم بها الأفراد ، أي أنّه اهتم بالشكل ، وأهمل المضمون، فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أنّ الدين يقوم على الاعتقاد القلبي .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » :

[إذا كان الجانب السطحي من الدين أعني رسومه ، ونظمه العمليّة ، يعدُ ظاهرة اجتماعية لأنّه يحمل طابع الالزام الجمعي ، وليس للفرد اختيار في تكوينه ، فإنّ القسم الرئيسي منه ، وهو قسم الإعتقادات ، والتصورات ، يأبى بطبيعته أن يكون اعتناق الفرد إيّاه ضربة لا زب من خارج لا يجدُ فيها أدنى تجاوب مع أفكاره ، ووجداناته ، وأحاسيسه] . (١)

ومن ذلك يتضح لنا مدى تَعسُف « دوركايم » في اتجاهه لتفسير الدين ، وأصل نشأته بالنظر إلى الشكل فقط ، وإهمال الجوهر ، فاعتبر الشعائر التعبدية هي « الدين » ، وأهمل الاعتقاد الذي يقوم عليه الدين في الحقيقة .

فالمدرسة الوضعية إذاً ارتكبت أخطاءً عديدة منهجيةً في تفسيرها لنشأة الدين .

والمنهج الصحيح إنّما يقوم في الحقيقة على الاعتماد على الوحي الصادق المعصوم فقط ، في معرفة أصل الدين ، وذلك لأن العلم لا يمكنه ، ولن يمكنه في يوم من الأيام أن يُدلي برأى قاطع ، وحاسم في هذا الموضوع ، وإن هي إلا مجرد افتراضات ، وتخمينات تقوم على الظن ، والأوهام ، فالعهد طويل بيننا وبين أول عقيدة ظهرت على وجه الأرض ، ولا يمكن الوصول إلى اليقين والحقيقة في هذه الأمور إلاّ بالاعتماد على الوحي الصادق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١)المرجع السابق صـ ١٦٩ .

المطلب الثاني

خطأ المدرسة الوضعيّة في تفسيرها لنشأة العقيدة الدينيّة :

لقد رأينا مما سبق أن المدرسة الوضعيّة لا تؤمن بالغيب ، ولا بالوحي ، وتذهب في تفسيرها لنشأة العقيدة إلى أنّ الإنسان هو الذي اخترع فكرة الدين ، وذلك حين عجز عن تفسيره للظواهر الطبيعية من حوله ، فنسبها إلى إرادة الآلهة ، فالدين عند الوضعيّين قد نشأ بفعل عوامل إنسانية ، ونتيجة لتأثير الضرورات الإجتماعية .

ويزعمون أن « الدين » في أول أمره كان مختلطاً بأساطير ، وخرافات ، وأوهام كثيرة ، وكان العقل البشري يؤمن بآلهة كثيرة ، ويجعل لكل ظاهرة من الظواهر إلهاً ولكنه تطور تدريجياً ، حتى أصبح يؤمن بإله واحد فقط ، إلى غير ذلك مّما رأيناه عند عرضنا « للدين » عند الوضعيّين .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم لمعرفة الحق في أصل نشأة العقيدة الدينية نجد أنّ « القرآن الكريم » يقرر ما يلي :

أولا : فطريّة الدين في النفس الانسانية :

إن نزعة التديّن نزعة أصيلة في النفس الانسانية ، ولقد فطر الله سبحانه وتعالى الناس على الايمان به سبحانه ،كما يتجلى ذلك في قول الله تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . ﴾ (١)

---

(١) الأعراف ١٧٢ ـ ١٧٣ .

وقال تعالى أيضا :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ﴾ (١)

وقال رسول الله ﷺ :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسُّون فيها من جدعاء » (٢)

وهكذا يقرر الإسلام أنّ الإنسان قد فطره الله تعالى على الإيمان به وبعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ، ليقولوا لا إله إلا الله ، وما أمروا أن يقولوا : لنا إله ، وللعالم إله ، فإنّ ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوّهم وفي عنفوان شبابهم . (٣)

فالفطرة تشهد بوجود الله ، وتؤمن به ما لم تفسد ، وتنحرف بفعل التربية الإلحادية ، والبيئة .

يقول « سيد قطب » رحمه الله :

[فطرة هذا الكائن تكمن فيها الحاجة إلى معرفة بارئها ، والالتجاء إليه وتوحيده ، فإذا غشت عليها الشهوات ، وغطّى عليها الركام ، وأفسدها الترف ، وطول العهد والنسيان ، فإنّها تنتفض من هذا كله وتتجلى ، كما خرجت من يد بارئها عند مواجهة الخطر الذي لا طاقة للإنسان به ، ولا حيلة له فيه ، وترجع إلى ربها مخلصةً له الدين ، فهي بذاتها تحمل الدليل على حاجتها الطبيعية إلى معرفة الله ، وتوحيده ، والالتجاء إليه والدينونة له .] (٤)

---

(١) الروم آية ٣.

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ كتاب القدرباب ٢٢ كل مولود يولد على الفطرة صـ ٢٠٤٧ من مجموعة الكتب الستة . رواه أبو هريرة رقم الحديث ٢٦٥٨ .

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ١ صـ ١٠٥ .

(٤) مقومات التصور الاسلامي صـ ٣٦٤ .

فالإنسان قد فطره الله سبحانه وتعالى على الايمان به ، ولكنه مع ذلك لم يكلِه إلى نور الفطرة وحده ، بل مع ذلك أرسل له الرسل واحداً تلو الآخر ليأخذوا به إلى رحاب الله ، وإلى المنهج السديد ، فلا يضل ولا يشقى ، فينقذوه بذلك من الضلال ، والغي .

ثانيا : عقيدة التوحيد هي أول عقيدة عرفها الإنسان :

يقرر الإسلام أن عقيدة التوحيد الصافية هي أول عقيدة كانت على وجه الأرض ، وأن أبا البشر جميعاً آدم عليه الصّلاة والسّلام كان على هذه العقيدة الصافية ، النقية ، وأنّه عليه الصلاة والسلام لم يعرف الخرافات ، والأساطير ، ولم يلجأ إليها لتفسير ظواهر الكون من حوله ، ولم يعرف الشرك ، وتعدد الآلهة ، بل كان عليه الصلاة والسلام مؤمناً بالله سبحانه وتعالى .

وهذا ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنِّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلَّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممِا كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب

عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإمّا يأتينكم منّي هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ﴾ (١)

من هذه الآيات الكريمة التي قص الله تعالى فيها علينا قصة آدم عليه السلام يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى كرّم آدم تكريماً ، وأسجد له الملائكة ، وجعله خليفة له في الأرض في تنفيذ أوامره تعالى ، وإقامة دينه ، ولا شك في أنّ آدم عليه الصلاة والسلام بعد أن تاب الله عليه ، قد هبط إلى الأرض مسلماً لله سبحانه وتعالى ليقوم بمهمة الخلافة على وجه الأرض هو وذريته من بعده ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان هملاً ، بل تولاّه برحمته ، وأرسل له رسله عليهم الصّلاة والسّلام لهدايته ، فمن اهتدى فقد فاز ، وأفلح ، ومن أعرض فقد خسر ، وخاب . وبذلك يتضح لنا أنّ الاسلام الذي يقوم على عقيدة التوحيد الخالصة كان أول دين على وجه الأرض علي الاطلاق ، فأبو البشر عليه الصلاة والسلام كان موحِّدا لله سبحانه وتعالى ، ولم يتوصل إلى هذه العقيدة الصافية نتيجة لقانون التطور الذي يقول به الوضعيون .

ولكن ذرية آدم عليه السّلام نتيجة لإغواء الشيطان انحرفوا عن هذه العقيدة الصافية السليمة ، وأشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، ومن هنا فقد اقتضت حكمته تعالى أن يرسل رسولاً لهداية البشر كلما ضلّوا ، وانحرفوا عن تعاليم الرسالة السماوية السابقة .

يقول الله تعالى :

﴿ كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين ﴾ (٢)

---

(١) البقرة الآيات من ٣١ ــ ٣٩ .

(٢) البقرة آية ٢١٣ .

جاء في تفسير « إبن كثير » في تفسيره للآية السابقة :

[عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا]

ويقول ابن كثير عن قول ابن عباس هذا أنه هو القول الصحيح .

[فهو أصح سنداً ومعنى لأنّ الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض] . (١)

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » :

[إن الله سبحانه لما خلق أبا البشر كرمه ، وعلمه حقائق الأشياء ، وكان فيما علّمه أنّه هو خالق السموات والأرض ، وما فيهما ، وأنّه هو خالق الناس ورازقهم ، وأنه هو مولاهم الذي تجب طاعته ، وعبادته ، وأنه سيعيدهم إليه ، ويحاسبهم على ما قدموا ، ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة لذريته ففعل ، وكانت هذه العقيدة ميراث الانسانية عن الإنسان الأول ، نعم إنّ الناس لم يكونوا كلهم أوفياء بهذه الوصية المقدسة ، بل إن أكثرهم وقع في الضلال والشرك ، ولكن هذا التعليم الأعلى لم يمح أثره محواً تاماً من البشريّة ، ولذلك ظلت فكرة الألوهية ، والعبادة بوجه عام مستمرةً في جميع الشعوب] . (٢)

وقد أرسل الله للبشر الرسل كلما ضلّوا وانحرفوا ليأخذوا بأيديهم إلى الحق والصراط المستقيم .

يقول الله تعالي :

﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ . (٣)

---

(١) تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابن كثير المجلد الأول صـ ٣٧٤ .
الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ الناشر : دار الكتب العلمية .

(٢) الدين آية ١٧٣ .

(٣) النساء آية ١٦٥ .

ويقول تعالي :

﴿ وما كنا مُعَذِّبين حتى نبعث رسولاً ﴾ . (١)

ويقول تعالى :

﴿ أن تقولوا إنا كنّا عن هذا غافلين أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنّا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ (٢)

وبذلك يتهافت المذهب الوضعي أمام ما قرره القرآن الكريم ، ويتبيّن لنا بطلان الآراء التي قال بها الوضعيّون وعلماء الأديان في نشأة العقيدة الدينية ، وأنّها من ابتداع الانسان ، ووحي خياله ، وكذلك يتهافت في الوقت نفسه رأي « دوركايم » الذي ذهب إلى أنّ المجتمع هو الذي اخترع فكرة الدين ، وأن العبادة تعود في النهاية إلى المجتمع ، فهذه الآراء كلها باطلة ، ولا تسلم من النقد .

والقرآن الكريم لا ينكر ما للجماعة من أثر على الأفراد ، ولكنه في الوقت نفسه يحذِّر الناس من الانقياد الأعمى لآراء المجتمع ، وما عليه الآباء ، والأجداد ، كما رأينا مما سبق في الآيات (٣) التي ينعيالله تعالى فيها على الذين انقادوا لما عليه آباؤهم ، وأجدادهم دون تمييز للحق من الباطل ، فكانوا بذلك كالأنعام سواء بسواء .

وبذلك نصل إلى أن الإسلام يقرِّر أنّ الانسان لم يخترع فكرة الدين ، وإنّما الدين الحقّ نزل من عند الله سبحانه وتعالى عن طريق « الوحي » ، وأنّ أول عقيدة كانت هي عقيدة التوحيد الصافية ، وليس كما يذهب إليه الوضعيّون .

هذا ولقد أيّد العلم الحديث ما قرره القرآن الكريم وذلك على عكس ما كان يرجو الوضعيون .

---

(١) الاسراء آية ١٥ .

(٢) الأعراف آية ١٧٣ .

(٣) أنظر صـ من هذا الفصل .

يقول الدكتور « محمد عبد اللهدراز رحمه الله :

[إن هناك فريقا من العلماء أثبت بالطرق العلمية فساد رأي الذين قالوا إنّ الدين إنّما قد نشأ بفعل الانسان ، وأثبت هذا الفريق أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر مستدلاً أنها لم تنفك عنها أمة من الأمم القديمة ، أو الحديثة ، فالوثنّيات ليست إلاّ أعراضاً طارئة ، أو أعراضاً متطفلة بجانب هذه العقيدة العالميّة .

فهذه النظرية انتصر لها جمهور من علماء الأجناس ، وعلماء الانسان ، والنفس . وانتهى هؤلاء العلماء إلى أنّ عقيدة « الإله الأعلى » موجودة عند جميع الشعوب ، والقبائل القديمة .] (١)

وبذلك يكون العلم المحايد قد أثبت ما قرره القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان من أنّ عقيدة التوحيد كانت أول عقيدة عرفها الانسان .

المطلب الثالث

خطأ المدرسة الوضعية في موقفها من الفكر الديني :

أخطأت المدرسة الوضعية حين اعتبرت التفكير الديني مرحلة بائدة ومنتهية بموجب قانون الحالات الثلاث الذي تقول به ، وأخطأت حين وصمت هذا التفكير بالخرافة ، والأسطورة ، والوهم ، واعتبرت المرحلة الوضعية هي المرحلة النهائية التي ستستقر عليها البشرية ، حيث سيكتفي الناس في هذه المرحلة بمعرفة القوانين التي تسير بموجبها الظاهرات ، دون حاجة إلى البحث عن الأسباب ، والغايات ، لأنه ـ كما يقول الوضعيون ـ ليست هناك فائدة من معرفة الغايات ، وأن التاريخ البشري خير دليل ـ كما يقولون ـ على إثبات أنّ الحديث حول الأسباب ، والغايات لم ينتج سوى الجدل العقيم ، والمناقشات التي لا فائدة من ورائها .

والآن فإننا سنناقش الوضعيين فيما ذهبوا إليه من خلال قانونهم الذي يُقيمون عليه مذهبهم الوضعي.

---

(١) الدين صـ

وإننا في البداية نتساءل هل الفكر الديني خرافي كما يقول الوضعيون ؟

إن البحث الهادىء المتزن في عقائد الأمم القديمة ، والبدائية ـ كما يصمها الوضعيون يظهرنا فعلاً على الكثير من الخرافات ، والأساطير التي ارتبطت بالأديان القديمة وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها .

ولكننا نسأل الوضعيّين بأيّ حق يجوز لهم أن يُعَمِّموا ما توصَّلوا إليه في دراساتهم على الأمم القديمة على الأديان كافة ؟

إن المنطق السليم ، والفكر المستقيم يقتضي من الانسان النزاهة ، والحيدة في البحث العلمي للوصول إلى نتائج سليمة في الأبحاث ، وهذا هو عين ما يُطالِب به الوضعيّون ، وينادون بتطبيقه ولكنهم ـ للأسف الشديد ـ لا يراعون تطبيق المبادىء التي ينادون بها .

فليست كل الأديان خرافية ، وأسطورية ، بل الوضعيّون يريدون خداع البشرية ، وتشويه صورة الدين في نفوس الناس لغاية خبيثة وغرض مبيّت ألا وهو قطع الناس بكل صلة بينهم ، وبين التفكير الديني أياً ما كان ، وخير دليل ، وشاهد على ما يذهبون إليه هو قانونهم الذي يقولون به ، والذي بموجبه سيصبح الدين أثراً من الماضي ، ومن مخلّفاته التي سيحلُّ مكانها العلم الوضعِي كما يزعمون .

ولو أن الوضعيين درسوا الدين الإسلامي الحقُّ الذي حفظه الله سبحانه وتعالى :﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ .(١)

لعلموا أنّه أبعد ما يكون عن الخرافة ، والأسطورة ، بل إنّه يحاربها ، ويدعو إلى التّفكر ، والتدبر ، والاعتبار بما في الكون من آيات ، ودلائل على وجود الخالق سبحانه ، ومسبِّب الأسباب كلها ، وخالقها كلها .

ولكن الوضعيين تغاضوا عن الاسلام ، وأغفلوا أمره ، وذكروا الأديان القديمة والأديان السماوية المحّرفة والتي فعلاً تنطوي على خرافات ، وأساطير وأوهام نسجتها خيالات البشر ، ونسبوها إلى الدين ، وجعلوها جزءاً لا يتجزأ

---

(١)الحجر آية ٩ .

منه ، فقد نالت يد التحريف ، والتغيير من هذه الديانات ، ولم يبق دين من الأديان نقياً صافياً كما أنزله الله تعالى إلاّ الاسلام الذي تكفل سبحانه بحفظ كتابه ولو عاد الوضعيّون إلى القرآن الكريم ، وإلى السنة المطهّرة ، ودرسوا الاسلام كما أنزله الله على رسوله ﷺ لما جرؤوا على تعميم حكمهم على التفكير الديني بصورة عامة بأنّه تفكير خرافي ، وأسطوري ، وأنّ مصيره الإضمحلال ، والانحلال بتقدم العلم الوضعي .

فهل صحيح كما يقولون إنّ هذا هو مصير الدين ، والفكر الديني بصورة عامة كلما تقدم العلم التجريبي ؟ **إننا نرى مايلي :**

١ ـ الواقع يكذب دعوى الوضعيين :

إن نظرة واحدة إلى الواقع الذي تعيشه البشرية اليوم وهي على نهاية القرن العشرين ، وهو القرن الذي يجب أن يكون ـ بمقتضى قانون الحالات الثلاث ـ قد تخلى عن التفكير الديني لأنّه تفكير يناسب طفولة الانسانية ، ولا يجوز له البقاء في عصر التقدم العلمي ، إنّ نظرة واحدة على هذا العالم تكفي لإبطال مزاعم هذا القانون ، وتهافته .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » رحمه الله :

[نحن لازلنا نسمع ونرى في كل عصرٍ تقديساً للروحانيّات ، وشغفاً بالمعنويات ، والمعقولات الكليّة عند فريقٍ من الناس ، إلى جانب الكلف بالحوادث ، والحقائق الجزئية عند فريق آخر ، وليس الحدُّ الذي يفصل بين المعسكرين هو جهل أحدهما بالتجارب الكونية ، وخبرة الآخر بها . إذ كثيراً ما نجد من بين الجهلاء جاحدين متعصبين ، كما نجد من بين علماء المادة مؤمنين متحمسين ، وها نحن أولاء في القرن العشرين ، وفي قلب الحضارة الأوربية نرى إلى جانب البحوث الماديّة المتشعبة دراسات روحيّة واسعة ، تقوم بها جماعات محترمة من كبار علماء الطب ، والفلسفة ، والطبيعة على منهاج علمي دقيق وبأسلوب برهاني يعتمد على التحليل ، والنقد الصارم الذي ينحّي عن الوقائع كل ما عساه أن يعلق بها من تزوير ، وخداع] . (١)

---

(١) الدين صـ ٨٦ ـ ٨٧ .

وهكذا نصل إلى أنّ الواقع المحسوس الذي يعتمد عليه الوضعيون هو الدليل على تهافت قانونهم .

٢ ـ تعاصر الحالات الثلاث :

والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ « الحالات الثلاث » الدينية والميتافيزيقية ، والعلمية إنّما تمثّل تيارات ، وأساليب فكرية ، وُجدت منذ فجر الانسانية متعاصرة مع بعضها ، وليس هناك دليل يؤكد أنّ البشرية اعتمدت في مرحلة من مراحل حياتها على أسلوب واحد فقط من هذه الأساليب ، ثم تركته ، وانتقلت إلى أسلوب آخر ، وهكذا .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » :

[فالواقع أنّ الحالات الثلاث التي يصوِّرها « كونت » لا تُمثّل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تصوِّر نزعات ، وتيارات متعاصرة في كل الشعوب وليست كلها دائما على درجة واحدة من الإزدهار ، أو الخمول في شعب ما ، بل نقول إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة ، متجاورة في نفس كل فرد وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً في إقامة الحياة الانسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها] . (١)

هذا وقد اعترف المفكرون العرب من أنصار الوضعيّة بهذه الحقيقة فها هو **الدكتور « مصطفى الخشّاب » يقول :**

[إن هذا القانون لايعبّر تعبيراً صحيحاً عن حركة المجتمعات الفكرية ، فلا تزال بعض المجتمعات تلجأ عند تفكيرها في بعض الظواهر إلى القوى الخفية ، ولا تزال بعض المجتمعات تفكر تفكيراً تيولوجياً * في بعض الظواهر ، وميتافيزيكياً في أخرى ، ووضعيًا في البعض الآخر ، ونشاهد في كل مجتمع من المجتمعات أن أنواع التفكير ، ومناهجه الثلاث مستعملة بصورة واضحة في كثير من الظواهر ، فالمجتمعات الإنسانية تختلف اختلافاً بيناً

---

(١) المرجع السابق صـ ٨٧ .

(*) التيولوجيا : التفكير اللاهوتي .

في سيرها ، وتطورها ، واستعدادها للحركة ، والتقدم ، وفي طبيعتها ، وفي ظروفها ، فمن الخطأ البيّن محاولة استنباط قانون عام يحكم سير الانسانية علي العموم ، ولذلك فإن قانون الأدوار الثلاثة لا يتفق مع الحقائق الواقعة ، ولا مع طبيعة الأمور] . (١)

فالواقع إذاً يرينا أنّه لم يُقضَ على الدين ، في عصر التقدم العلمي كما يقرر ذلك هذا القانون .

وقد أشار إلى نفس هذه الحقيقة مستغرب آخر فهو قد وضّح أنّ الحالات الثلاث توجد متعاصرة مع بعضها البعض ، وليس هناك ترتيب لظهورها كما يدّعي ذلك « أوجست كونت » فقد يفسر الانسان الأحداث أحياناً تفسيرات دينية وأحياناً أخرى قد يقبل تفسيرات علميّةً ، وليس هناك تضاد ولا تعارض بين وجود هذه الحالات كما يدّعي الوضعيون .

يُعَبِّر « يوسف كرم » عن هذه الحقيقة فيقول :

[قليل من التفكير يدلنا على أنّ الانسان ما كان بقي على سطح الأرض لو لم يتعرف خصائص الأشياء منذ أول أمره فيفيد من النافع ، ويحتاط للضار ، ويصطنع الأسلحة ، والآلات ، فالحالات الثلاث أولى بها أن تكون متعاصرة متلازمة مع تفاوت فيما بينها في كل عصر ، وكل فرد ، وأن يكون لكل منها قيمته ولكن « كونت » اقتنع بنسبيّة المعرفة ، ورأى أن يبررها بهذه النظريّة ، ويبهره العلم التجريبي فحصر فيه كل الحقيقة ، وجاءت فلسفته الواقعية هي الفلسفة المادية بالرغم من تحفظه إذ أنّها تؤدّي إلى النتيجة نفسها ، وهي إنكار الميتافيزيقا] . (٢)

---

(١) أوجست كونت صـ ٨٥ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديث : صـ ٣٢٩ .

ويقول الدكتو عبد الحميد لطفي :

[يختلف الطريق الذي سلكه العقل الانساني عن ذلك الذي حدده « كونت » ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعي للأمور سابقاً للفهم الديني ، أو الميتافيزيكي ، وقد تمثّل ذلك قديماً في فهم كثير من الحقائق الرياضية ، والفلكيّة ، قبل أن يظهر كثير من العلوم الأخرى ، كما نجد أنه لا تزال توجد مجتمعات تفسّر الحقائق العلمية القائمة حالياً تفسيراً دينياً أو ميتافيزيكيا على الرغم من أننا نجتاز حالياً المرحلة الوضعية في نظر كونت] . (١)

ومن هذه النصوص التي جمعتها والنصوص القادمة وهي لعلماء في الاجتماع والفلسفة يتضح لنا أنّ مجمل ماذهبوا إليه ما يأتي :

أ ـ إن استقراء التاريخ الانساني يدلنا على أنّ الحالات الثلاث التي يقول بها «أوجست كونت » وجدت متعاصرة مع بعضها فهناك قضايا يفسّرها الانسان باللجوء إلى التفكير الديني ، وهناك قضايا يفسّرها بالأسلوب العلمي ، وهكذا فليس هناك ترتيب لظهور هذه الحالات متعاقبة كما يّدعي كونت بل بالعكس فقد أثبت العلماء أنّ التفكير الوضعي قد ظهر منذ فجر الانسانية ، وإن كان بأسلوب يتناسب مع الحالة التي كانت عليها البشرية آنذاك فقد ظهرت صناعات بدائية عن طريق الاعتماد على الحسّ ، والاستفادة من البيئة وذلك في المرحلة الأولى التي يفترض فيها « كونت » أنّ التفكير

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة صـ ٣٢٩ .

)٢) علم الإجتماع صـ ٢٦٩ .

الديني هو السائد فيها ، وإن كان يعترف أنّه وُجدت بنور التفكير العلمي منذ المرحلة الأولى ، ولكنه مع ذلك يعود ويقرر أنّ ذلك يعتبر كتمهيد للمرحلة التالية التي إن حلّت قضت على المرحلة الأولى تماماً ، فبحلول المرحلة الوضعيّة ـ كما يرى ـ سيُقضى على التفكير الديني ، والميتافيزيقي ، ولكن الواقع يثبت بطلان قانونه الذي توصّل إليه ، فها نحن في المرحلة الوضعيّة كما يسمّيها ، ولا يزال التفكير الديني سائداً فيها جنباً إلى جنب مع التفكير العلمي ، وهذا أبلغ دليل على بطلان هذا القانون .

ب ـ الواقع يثبت لنا عكس هذا القانون تماماً ، فمن المعلوم أنّ الانسان يبدأ حياته معتمداً على حواسه في تحصيل معارفه ، ومعلوماته ، ثم تنمو تدريجياً قدرته على التجريد ، فالحسّ يمثّل إذاً المرحلة الأولى ، وطفولة العقل البشري لا المرحلة النهائية كما يزعم « أوجست كونت » .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » :

[إنّ النظرة الوقوعيّة تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته ، وإنها تمثّل مرحلة الطفولة النفسيّة لا مرحلة النضج ، والكمال ، ذلك بأنّ مبعثها الحاجة العاجلة ، وضرورة الحياة اليوميّة ، وبأنّها وظيفة الحس لا العقل ، ..... أما نظرة التعليل بالمعاني العامة فإنّها تنبثق في النفس على أثر ذلك ، متى استيقظت ملكتا التجريد ، والتعميم في التصوّرات والأحكام ....

ويقول عن النظرة الدينية أى اللاهوتية كما يسمّيها كونت :

[إنّها لا تولد في النفس إلا حين يتسع أفقها فتتجاوز الكون بظاهرة وباطنة إلى ماوراءه ، فهي أوسع النظرات مجالا ، وأبعدها مطلباً .

وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيّله الفيلسوف رأساً على عقب ، وتعود الحاجات النفسية الثلاثة الى أوضاعها الطبيعية المعقولة : حاجة الحس ، فحاجة العقل القانع ، فحاجة العقل المتسامي] .(١)

---

(١)الدين صـ ٨٧ ـ ٨٨ .

ويقرر هذا المعنى « عباس محمود العقاد » فيقول :

[وقد أحسّ الانسان قبل أن يفكر ، فلا جرم ينقضي عليه ردح من الدهر في بداءة نشأته وهو يفكر حسياً ، أو يفكر لمسياً ، وقد كان للحاسّة الدينية فضل الانقاذ الأول من هذه الجهالة الحيوانية لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر وجود ، ولم تتركه مستقر فناء في الأخلاد والأوهام ، فتعلّم الانسان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه ، ولا يلمسه بيديه ، وكان هذا فتحاً علمياً على نحو من الأحياء ، ولم ينحصر أمره في عالم التديّن ، والاعتقاد ولأنّه وسّع آفاق الوجود ، وفتح البصيرة للبحث عنه في عالم غير عالم المحسوسات ، والملموسات ، ولو ظل الانسان يُنكر كل شيء لا يحسّه لما خسر الديانات وحدها بل خسر معها العلوم والمعارف ، وقيم الآداب والأخلاق .] .(١)

فالنظرة الدينية هي التي توسّع آفاق الانسان ليترفّع عن واقعه المادّي المحسوس ، ويسمو بروحه ، فيتصل عن طريقها بالحقيقة التي هي أكبر من هذا الوجود المحسوس ، والتي استمد منها وجوده ، حقيقة الذات الإلهية . وفي الحقيقة فإنّ الحالات الثلاث إنّما هي مناهج ثلاثة يستخدمها العقل البشري وليس بلازم أن يقتصر العقل البشري على منهج واحد منها فقط ، ولا يؤدّي استخدامها جميعها إلى الفوضى في التفكير كما يزعم « كونت » .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » ـ رحمه الله :

[الذي يعنينا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات ، وإنّما هو دخولها جميعاً في كيان النفس الانسانية ، فكما أنّنا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية ، أو النزعة التعليلية كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التديّن ستزول عن الأرض قبل أن يزول الانسان] . (٢)

---

(١) الله جل جلاله صـ ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) الدين صـ ٨٨ ـ ٨٩ .

٣ـ عدم التزام كونت بالموضوعية في البحث :

في الحقيقة كما يثبت المؤرخون ـ فإن « أوجست كونت » لم يلتزم بالموضوعيّة حين توصّل إلى هذا القانون ، فهو قد وضع القانون أولاً ، ثم حاول بطريقة تعسّفيّة إقتطاع أجزاء من التاريخ البشري تنطبق على هذا القانون .

ويعترف بهذه الحقيقة « مصطفى الخشاب »

فيقول عن « كونت » إنّه :

[وضع أولاً بطريقة نظرية مجردة قانون الأدوار الثلاثة « لتطور الانسانية » ، وحدد مراحله ثم عاد بعد ذلك (في الجزئين الأخيرين من كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية ») بأن رجع بمقتضى هذا القانون على الحقائق التاريخية التي ظهرت على مسرح الحياة الانسانية للدراسة والتطبيق ، والتأكد من صحة ما وصل إليه .] (١)

ويقول أيضًا :

إن « كونت » قد استخلص هذا القانون « من تفكيره الخاص بدون الرجوع إلى حقائق التاريخ لأننا نجد شعوباً لا تزال في الدور التيولوجي بينما نجد شعوباً أخرى قد وصلت في تفكيرها إلى المرحلة الوضعيّة فكيف يستطيع « كونت » أن يقف على تطور الانسانية ، ومبلغ تقدمها العقلي ، وانتقالها من دور إلى دور باعتبار أنّ الانسانية تنتقل ككل ، وكوحدة متلائمة في وقت واحد ، وزمان معيّن من دور إلى الدور الذي يليه ، وبدون أن يتخلّف جزء منها ، أو يسبق غيره ؟ فلا ريب أنّ افتراض انتقال الانسانية مرحلة إلى أخرى كما يعرضه كونت افتراض فلسفي ميتافيزيكي في حين أنّه قرر أنّ مرحلة التفكير الميتافيزيكي قد انتهت ، ومرت بسلام] . (٢)

ويقرر هذه الحقيقة أيضاالدكتور«عبد الحميد لطفي » فيقول :

[لايستمد قانون الثلاث حالات حقائقه من التاريخ ككل ، وإنّما هو فكرة

---

(١) أوجست كونت صـ ٧٨ .

(٢) نفسه .

فلسفية اختار لها كونت مجتمعات معينة من التاريخ حاول تطبيقها عليها دون استقراء لتاريخ كـل المجتمعات الإنسانية ، ولو فعل « كونت » ذلك لتبيَّن له عدم انطباقه على كثير من هذه المجتمعات ، والقانون بذلك ينقصه الأساس الوضعـي] . (١)

وبذلك يتضح لنا أنَّ « أوجست كونت » نفسه لم يلتزم بالموضوعيَّة في التوصّل إلى قانونه الذي تقوم عليه فلسفته الوضعية ، فهذا القانون كما شهد بذلك علماء الإجتماع أنفسهم وليد خيال « كونت » ، حاول تطبيقه على التاريخ الانساني كله ، واقتطاع حوادث من التاريخ تؤيد دعواه . فالقانون الذي يمثّل أساس المذهب الوضعي إذاً لا يقوم على الوضعية . فإذا إنهار القانون الأساسي هذا تنهار الفلسفة الوضعية التي تقوم عليه .

٤ ـ وإننا نتساءل ..

هل فعلاً كما يزعم الوضعيٌون ستُغني معرفة قوانين الظواهر عن معرفة الأسباب ، والغايات ، وأنّ المرحلة الوضعية سيقف الانسان فيها عند حدود تسجيل الحوادث والظواهر كما هي ، ومعرفة قوانينها دون البحث عن أسبابها وغاياتها ؟

والحقيقة إن الوضعيين بقولهم هذا يريدون للانسان أن يعيش في هذه الحياة في حدود المادة ، والحسّ دون التطلّع إلى ماوراءهما ، وإشباع حاجة النفس ، والعقل في التشوّق ، والتطلع من وراء الأسباب القريبة إلى الخالق الحقيقي لهذه الأسباب ، والغاية النهائية لهذه الغايات .

فالنفس بطبيعتها تؤمن بقانوني السببيّة ، والغائيّة فهذان القانونان مرتكزان في بداهة العقول كما **يقول الدكتور محمد عبد الله دراز** .

فقانون السببية [يقرر أن شيئاً من الممكنات * لا يحدث بنفسه من غير شيء لأنّه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، ولا يستقل باحداث شيء لأنّه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو ، كما أنّ الصفر لا يمكن أن يتولّد عنه

---

(١) علم الإجتماع صـ ٢٦٩ .

(*) الممكن : هو الذي يقبل الوجود والعدم ، ولا تقتضي طبيعته واحداً منها فوجوده يرد إليه من سبب خارج عنه . (أنظر الدين حاشية صـ ١٠٩)

عدد إيجابي ، فلا بّد له في وجوده ، وفي تأثيره من سبب خارجي ، وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره ، فلا مفّر من الانتهاء إلى سبب ضروري للوجود يكون هو مسبب الأسباب .

أما قانون الغائية فمن موجبه أنّ كل نظام مركّب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد ، وأنّ كل قصد لابّد أن يهدف إلى غاية ، وأنّ هذه الغاية إذا لم تحقّق إلاّ مطلباً جزئياً إضافياً منقطعاً تشوّقت النفس من ورائها إلى غاية أخرى .. حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات] . (١)

ومن هذا يتضح لنا أنّ النفس بطبيعتها لا يمكنها أن تقنع بمعرفة السبب القريب ، والغاية القريبة ، وتغفل الله تعالى الذي ينكره هؤلاء الوضعيّون ، ويقولون إنّ العلم التجريبي ـ باكتشافه للقانون الذي تسير عليه هذه الظواهر ـ سيغني الانسان عن الإيمان بالغيب وبما وراء الواقع المحسوس .

ولكن الواقع ، والعلم التجريبي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك بطلان هذه الدعاوي الوضعية ، وتوالت الاعترافات على لسان هؤلاء الوضعيين عن حاجة الانسان إلى معرفة الخالق الحقيقي ، والغاية الحقيقية و [إن وجود هذه الحقيقة الأولى والأخيرة ضروزة عقليّة لا مناص من التسليم بها ، ولا مجال لأحد أن يكابر فيها متى فكّر قليلاً في الوضع الذي يؤول إليه إنكارها ، اللهم إلاّ إذا فرضناه كائناً أخرق ، لا يذعن لقواعد المنطق ، والحساب ، ولا يبالي أن يبطل كل شيء في الأذهان] . (٢)

ويضرب « وحيد الدين خان » مثلاً للوضعيين ، وأمثالهم الذين قنعوا بمعرفة السبب القريب ، وأغفلوا السبب الحقيقي بأنهم كانوا كمن يشاهد : قاطرةً تجري على قضبان الحديد فيتبادر إلى ذهنه سؤال : كيف تجري هذه العجلات الثقيلة ؟

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : الدين صـ ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) الدين صـ ١١١ .

وبعد قليل من المشاهدة يصل الرجل إلى آلات ، وتروس القاطرة فيرى أنّ العجلات الثقيلة تتحرك بتحرك التروس ، والآلات .
أفبعد هذا الإكتشاف يحقُ لهذا الرجل أن يزعم أنّ آلات القاطرة وحدها هي السبب في تحرك عجلاتها ؟

ومن الواضح أنّ الأمر ليس كذلك بهذه البساطة لأنّه يجب أن نعترف بالسائق الذي يدير الماكينات ، ثم بالمهندس الذي صنع تلك الماكينات ، وأوجد القاطرة فلا وجود في الحقيقة للقاطرة ، ولا يمكن إحداث الحركة في آلاتها بدون عمل المهندس ، والسائق ، فالماكينات الداخلية ليست هي الختام في قصة القاطرة ، بل إن الحقيقة النهائية هي « العقل » الذي أوجد تلك الماكينات ، ثم أدارها وفق إرادة مرسومة] . (١)

من هذا نري مدى استخفاف الوضعيين بعقول الناس ، وتغافلهم عن فطرتهم التي خلقهم الله عليها ، وتعاميهم عن أبسط البديهيات الثابتة في العقل .

ولقد أثبت فريق من علماء أوربا بطلان دعاوى الوضعيين ، وكشفوا القناع عن أعين الناس الذين غرهم العلم التجريبي ، وما حقَّقَه من انجازات ، فساروا خلف كل ناعق دون أن يميّزوا ما في دعوته من مخالفة لأبسط البديهيات المركوزة في الفطرة ، فالفطرة بطبيعتها تؤمن بأنه لابد من وراء الأسباب مسببها الحقيقي ، وخالقها من العدم وهو الله سبحانه وتعالى .

وإنني هنا أسجل بعضاً من هذه الأقوال ، والاعترافات فهي خير شاهد على بطلان دعوى « أوجست كونت » ومن اتبعه ، ولا سيّما ، وأنّها صادرة من علماء أوربيين تَعَمّقوا في العلوم التجريبيّة ، وقطعوا منها أشواطاً بعيدة ، فأوصلهم علمهم إلى الإيمان بوجود الله مسبِّب الأسباب ، والغاية الحقيقية التي تتشوق لها النفوس وأثبتوا أنه لايمكن الوقوف عند الأسباب الظاهرة ، والقوانين دون تجاوزها إلى ماوراءها .

---

(١)الدين في مواجهة العلم صـ ٦٥ ـ ٦٦ .

يقول عالم : (*) من هؤلاء العلماء بعد أن استعرض كثيراً من الأدلة على أن هذا العالم يخضع لقوانين ثابتة في سيره ، وأنّ هذه القوانين لا يمكن أن تخلقها المصادفة العشوائية :

[إن هذا العالم المادي لابّد أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين ، وسنن كونّية محدّدة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان .

فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه ، أو يحدّد القوانين التي يخضع لها ، فلابدّ أن يكون الخلق قد تمّ بقدرة كائن غير مادي ، وتدل الشواهد جميعاً على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة] .... (١)

وها هو عالم آخر يقول :**

[اليوم لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة الخلق أيضاً ، وهي فكرة تستشرف على سنن الطبيعة لأنّ هذه السنن إنما هي ثمرة الخلق ، ولابدّ لهم أن يُسلّموا بفكرة الخالق الذي وضع قوانين هذا الكون ، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون خالق : هو الله](٢)

ويقول هذا الكاتب أيضاً :

[لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلةً على وجود الخالق بنفس روح الأمانة ، والبعد عن التحيّز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم ، ولو أنّهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم ، وانفعالاتهم فإنّهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله ، وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسّر الحقائق ، فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودها بدون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله] . (٣)

(*) هو جون كليفلاند كوثران : عالم الكيمياء والرياضة .

(١) نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم موضوع : النتيجة الحتمية صـ ٢٥ .

(**) هو أدوارد لوثر كيسيل أخصائي علم الحيوان والحشرات حاصل على الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا .

(٢) مقال : « فلننتظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيّز » كتاب : الله يتجلى في عصر العلم صـ ٢٧ ــ ٢٨

(٣) نفسه صـ ٢٨ .

ويقول عالم آخر (*) :

[إن الطريقة العلميّة تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية ، والقدرة على التنبؤ بها في ظل هذا النظام ، ونستطيع أن نقول بكل دقة : إن هذا الانتظام في ظواهر الكون ، والقدرة على التنبؤ بها ــ وهما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلميّة ــ هما في الوقت ذاته أساس الإيمان بفكرة وجود الله إذ كيف يتسنى أن يكون هنالك كل هذا الانتظام ، وأنى يتسنى لنا أن نتنبأ بهذه الظواهر ما لم يكن هناك مبدع ، ومدبّر وحافظ لهذا النظام العجيب ؟] . (١)

وهكذا فالوضعيّون بقانونهم يريدون للانسان أن يتعامى ، ويتغافل عن الحقيقة الواضحة كالشمس بقولهم : إنه ينبغي الإكتفاء بمعرفة القوانين ، وترك معرفة السبب الحقيقي ، ومسبب الأسباب .

ويقول « أدوين فاست » (**)

[إن جميع القوانين الطبيعية التي نصفها ، ونستخدمها ليست إلا مجرد وصف لما يحدث ، أو مايشاهد ، فهي بذلك ليست تبيراً أو إلزاماً ، فليس الوصف في ذاته سبباً لحدوث ظاهرة من الظواهر ، أو توضيحاً لأسباب حدوثها .

ومهما بالغنا في تحليل الأشياء ، وردّها إلى أصولها الأولى ، فلابدّ أن نصل في نهاية المطاف إلى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون ، ويعد ذلك في ذاته دليلاً على وجود إله قادر مدبّر هو الذي قدّر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير في طريقها المرسوم] (٢)

(*) هو عالم الفسيولوجيا والكيميا والحيوية حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة جونز هوبلنز .

(١) نقلا عن مقال استخدام الأسلوب العلمي للكاتب السابق من كتاب الله يتجلى في عصر العلم صـ ٣٣

(**) هو أدوين فاست : حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة أوكلاهاما ، وعضو هيئة التدريس بقسم الطبيعة فيها . [نقلا عن كاب الله يتجلى في عصر العلم صـ ٩٢ .

(٢) نقلا عن مقال نظرة إلى ماوراء القوانين الطبيعية صـ ٩٣ـ ٩٤ .

إن الإسلام دين الله الحق يقرر أنّ الظواهر الطبيعية في هذا الكون تسير وفق نظام ثابت مرسوم ، وقوانين محدّدة ، ويدعو العقل إلى التعلّم ، والتعرف على هذه السنن والقوانين للإستفادة منها في القيام بعبء الخلافة على وجه الأرض ، ومع ذلك يذكّرهم دائماً أنّ هذه السنن تسير بإرادة اللّه تعالى وحده ، فهو الخالق ، المبدع الذي لا يسير شيء في هذا الكون إلاّ بأمره ، وقدره .

يقول الله تعالى :

﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾. (١)

ويقول تعالى :

﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ . (٢)

ولقد فهم المسلمون كل ذلك ، ودرسوا الكون دراسة علميّة فتقدمت العلوم على أيديهم تقدماً عظيماً ، ولم تفتنهم معرفة القوانين ، والسنن التي تسير بموجبها الظواهر عن الله تعالى الذي خلقها وأوجدها على هذا النظام البديع .

فالمسلمون [عرفوا أنّ هذا السبب الظاهر هو السنة الجارية التي تجري شئون الكون الماديّ من خلالها ، ومن ثمّ فهي ليست بديلاً عن الله سبحانه وتعالى، وهي جزء من مشيئته ، ولا تعارض بين تفسير أي أمرٍ من أمور هذا الكون بسببه الظاهر ، وتفسيره بأنّه راجع إلى مشيئة الله مادام السبب الظاهر ، أو «السنّة الجارية » من مشيئة الله ، ومن ثم فلا تعارض بين ما سمّوه « الطبيعة » وما سمّوه ما وراء الطبيعة بحيث يمتنع عليك الايمان بهذه وتلك في آن واحد] . (٣)

---

(١) يس .

(٢) القمر آية ٤٩ .

(٣) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة صـ ٥٢١ ـ ٥٢٢ .

ولكن هذه الحقيقة التي وعاها المسلمون قبل أربعة عشر قرناً من الزمان هي التي توصّل إليها علماء أوروبا بعد أن علموا أنّ الإلحاد ليس من ورائه إلاّ الضياع ، والانحراف .

يقول جون أدولف بوهلر (*) :

[الواجب أن تتلمس قدرة الله في النظام الذي خلقه ، والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر ، والأشياء فقد يستطيع الإنسان أن يفسّر ما كان عليه غامضاً باكتشاف القوانين التي تحكمها ، ولكن الإنسان عاجز عن أن يسنّ تلك القوانين فهي من صنع الله وحده ، ولا يفعل الإنسان أكثر من أنّه يكتشفها ، ثم يستخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون .

وكل قانون يكتشفه الانسان يزيده قرباً من الله] . (١)

ويقول « ديل سوارتزن دروبر » (**) :

[مما لاشك فيه أنّ هنالك حكمة ، وتصميماً وراء كل شيء ، سواء في السماء التي فوقنا ، أو الأرض التي من تحتنا ، إن إنكار وجود المصمِّم ، والمبدع الأعظم يشبه في تجافيه مع العقل ، والمنطق ما يحدث عندما يبصر الانسان حقلاً رائعاً يموج بنباتات القمح الصفراء الجميلة ، ثم ينكر في نفس الوقت وجود الفلاح الذي زرعه] . (٢)

وهكذا نجد أنّ العقل ، والمنطق يحتّمان على الانسان الإيمان بأنه [لابّد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى ، فليس ممّا يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ، ومنظم مبدع ، وكلما وصل الانسان إلى قانون جديد فإنّ هذا القانون ينادي قائلاً : إن الله هو خالق ، وليس الانسان إلاّ مستكشفاً .] (٣)

(*) هو مستشار كيموي حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة انديانا (نقلا عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم صـ٩٦ .

(١) من مقال « الله والقوانين الكيموية » نقلاً من كتاب الله يتجلى في عصر العلم صـ ١٠٢ ، ١٠٣ .

(**) أخصائي فيزياء حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة أيووا أستاذ مساعد بجامعة كاليفورنيا ــ نقلاً عن « الله يتجلى في عصر العلم صـ ١١٦ »

(٢) نقلا عن مقال : عجايب التربة للكاتب السابق كتاب الله يتجلى في عصر العلم صـ ١٢٠ .

(٣) سيسل هامان : عالم بيولوجي حاصل على درجة الدكتوراة [نقلا عن الله يتجلى في عصر العلم صـ ١٤٢ من مقال الزهر وطيور بالتيمور بالكتاب السابق .

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق ، وكل شيء في الكون يسير بأمره ، ولغاية مقصودة فليس هناك شيء يجري بلا قصد ، ولا غاية ، وليس هناك حتمية كما يقول الوضعيون ، بل إرادة الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء ، ولو أراد سبحانه أن يغيِّر شيئاً من قوانين الوجود ، والكون لكان له ماأراد .

يقول كريسي موريسون :

[إن استعراض عجائب الطبيعة ليدلُ دلالة قاطعة على أنَّ هناك تصميماً ، وقصداً ، في كل شيء ، وأن ثمة برنامجاً ينفّذ بحذافيره طبقاً لمشيئة الخالق جلّ وعزّ .] (١)

وهكذا كما يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » :

انتهى العلم التجريبي إلى الاعتراف بأن :

[كل تفسير للآثار بأسبابها الطبيعية يحمل في نفسه جرثومة نقصه ، وعجزه ، ولا يمكن أن يصل إلى حد الإقناع الشافي إلاّ إذا اقتلع قانون التفكير من جذوره] . (٢)

وهكذا نصل إلى أنّ العلم التجريبي لا يمكن أن يُغني الإنسان عن معرفة الأسباب ، والغايات ، بل العلم نفسه في حاجة إلى معرفتهما .

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان صـ ١٨٨ ـ ١٨٩ ترجمة : محمود صالح الفلكي ـ تقديم الدكتور : أحمد زكي ط : الأولى عام ١٩٨٦ ـ دار القلم بيروت .

(٢) الدين صـ ٩٤ .

المطلب الرابع

تناقض مذهب « أوجست كونت »

لقد رأينا ـ فيما سبق (*) ـ أن « أوجست كونت » بعد أن اعتبر التفكير الديني تفكيراً خرافياً وأسطورياً ملائماً لطفولة البشرية عاد ، واخترع ديناً جديداً سمّاه دين « الانسانية » فهو يريد للإنسانية عامة أن تدين بهذا الدين الذي هو من وحي خياله .

وفي الحقيقة فإننا نلمس التناقض ظاهراً فـي هذا المذهب ، فبعد أن كان « كونت » في أول حياته يُعلي من شأن العقل ، ويقدّمه إلى المحل الأول ، ويُهمل العاطفة ، نجده في المرحلة الثانية من حياته يفعل العكس تماماً ، فيقدم العاطفة على العقل ويخترع ديناً كاملاً من جهة العقيدة ، والعبادة .

وقد انتقده زملاؤه ، وتلامذته لذلك لأنّه خالف فلسفته الوضعيّة التي دعا إليها في أول حياته ، وانفصلوا عنه لذلك ، فأخذوا بفلسفته ، وأهملوا دينه الوضعي الذي نادى به .

ولكن « كونت » لا يعترف بهذا التناقض الذي في مذهبه ، ويدافع عن ذلك بأنّه غيّر فقط المنهج ، وأنّه لم يكن متناقضاً مع نفسه .

يقول « أميل بوترو » موضحاً ما ذهب إليه « كونت » من محاولته نفي التناقض عن مذهبه :

[أعلن « أي كونت ‹بكل ما أمكنه من قوة وإلحاح أنّه ابتداءً من سنة ١٨٤٥ . سيعالج الأمور من زاوية أخرى متبعاً منهجاً جديدا يختلف عن الأول ، وهو يتحدث في أكثر من موضع عن تطوره العاطفي ، وبعثه الخلقي ، وحياته الثانية ....

ولكن قد تكون شهادته موضع شك إذ لم يكد يلقى سنة ١٨٤٢ ـ ١٨٤٥ كلو تيلد دي فو حتى استولى على قلبه ذلك الانفجار العاصف الذي جعل حكمه مضطرباً ، وفضلاً عن ذلك فقد كان مخبولاً وظل عرضةً للانتكاس ، وكانت علته بالتحديد اضطراباً عميقاً في العواطـف جـعله لا يحس وزن الجانب الواقعي للعـاطفـة

(*) أنظر فصل « فصل الدين عند المدرسة الوضعية »

في نمو تفكيره الفلسفي] . (١)

ويتساءل « أميل بوترو » قائلاً :

[أصحيح أنّ هذا المذهب يختلف عن فلسفته ، ولا يلتقي معها في الواقع بأىّ اتصال ، أم على العكس يناقضه حتى لينتهي إلى الرجوع إلى نفس المذاهب اللاهوتية ، وهي المذاهب التي حكمت عليها الفلسفة الوضعية حكماً لا يقبل نقضاً ولا إبراماً] .

وفي الحقيقة فمهما حاول « كونت » ، ومن بعده تلميذه « ليفي بريل » أن يُضفِي صفة التوافق ، والانسجام على المذهب الوضعي ، فإنه لا يمكنهما ذلك ، بل لا بد للباحث أن يرى التناقض واضحاً بين ما كان عليه هذا الفيلسوف في مبدأ حياته ، وما آل إليه أمره بعد ذلك .

يقول « إميل بوترو » موضحا ذلك :

[إذا وازنّا بين المذاهب ، والمبادىء ، والإتجاهات العامة للتفكير في كتابات « أوجست كونت الأولى ، والأخيرة شعرنا بسهولة بهذا الأثر : وهو أنّ العلاقة بين الفلسفة ، والدين ليست عنده مجرد اختلاف بينهما ، ولكنها تعارض شديد فنحن نجد من جهة منهج العقل ، ومن جهة أخرى منهج القلب ، هذا يُعنى عنايةً فائقة بالبرهان ، وتحقيق فكرة العلم ، وذلك يعنى بالإلهام والكشف ، والمعرفة الدينية ، هناك نجد العبادة الإجتماعية للحياة ، والعمل ، والنفع ، وهنا نجد القلب القائم على المبدأ الحاكم للأمور الإنسانية ، ونجد الحب الذي لايتميز عن الفكر والعمل فقط بل يسمو عليهما] . (٢)

وبذلك يتضح التناقض بين كتابات « كونت » الأولى ، والتي اخترع فيها قانون الحالات الثلاث وبين كتاباته الثانية التي اخترع فيها دين الانسانية .

يقول « اميل بوترو » موضحاً السبب في هذا التناقض :

[إنّه من العسير عدم اعتبار كل هذه الاختلافات دليلاً ثورة حقيقية ، إذا لاحظنا أنّها تحصل في نفس الوقت الذي تحصل فيه الحادثة العاطفية التي أدت كما قال كونت نفسه إلى انقلابه التام ، نعني لقاءه كلوتيلد دي فو ، وقد تأثر كونت في حبه المريض لهذه المرأة التافهة تأثراً مفاجئاً. ولكنه قوي ـ أصاب حياته كلها .

---

(١) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ـ ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني صـ ٥٦ .

(٢) نفسه صـ ٥٩ .

هذا التأثر يفسرّ لنا تغيير نغمة الفيلسوف ، كما يدل على خطورة التغيير ، ويمكن أن نستخلص من النظر في سيرة مؤسّس الفلسفة الوضعيّة الهائم بحب « كلوتيلد دي فو » حياتين ، ومنهجين ، ومذهبين لا يمكن اتفاقهما عقلاً] . (١)

هذا ولقد اعترف بهذه الحقيقة الكتّاب العرب الذين اعتبروا « كونت » مصلحاً كبيراً ، وكالوا له المدائح ، ولكنهم مع ذلك لم يسعهم إنكار هذه الحقيقة الناصعة .

يقول الدكتور « مصطفى الخشاب » ـ موضحاً أثر علاقة كونت « بهذه المرأة : ـ

[لقد حطّت هذه العواطف القويّة الثائرة من قواه العقلية ، فقد نسي مبادءه الفلسفية ، وانتهى به الأمر إلى ديانة جديدة هي خليط من تصوّرات علميّة ، وآراء فلسفية ، وميتافيزيكية ، وآمال ورغبات فردية ، ووضع « كونت »لهذه الديانة طقوساً عملية ، وادعى أنه راهب عظيم] . (٢)

وكذلك يقول « يوسف كرم » :

[والحقيقة أنّ هذا الدين يكاد يكون كله ثمرةً للعاطفة ، والخيال في تكوينه والإحساس به ، كان فيلسوفنا قد وضع العقل في المحل الأول يستكشف قوانين الوجود ، ويؤثر في العاطفة فيحدث أخلاقاً ، ومؤسسات إجتماعية وها هـــو ذا الآن يرى أن قيمة العقل تنحصر في نتائجه العملية ، وأن هذه النتائج تتوقف على الظروف الخارجية ، في حين أن العاطفة توفر لنا رضاً باطناً مباشراً ، فيقدم العاطفة إلى المحل الأول ، ويطلب إليها إنارة العقل فينتهي إلى مثل الحالة اللاهوتية التي اعتبرها طفولة النوع الانساني ، حتى إنّه يتبع في ذلك منهجاً يخالف المنهج العلمي .] (٣))

---

(١)المرجع السابق صـ ٥٩ .

(٢)أوجست كونت صـ ١٩ .

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة : صـ ٢٨٣ .

وبذلك نصل إلى أنّ « أوجست كونت » كان متناقضاً فيما دعا إليه في أواخر حياته مع ما دعا إليه في أول حياته ، وأنه مهما نفى من مذهبه التناقض فإنّه لا يمكنه ذلك .

فها هو « اميل بوترو » يقرر ذلك ويقول :

[ولكننا لا نستطيع أن نوافق الفيلسوف في حكمه لأن عظماء المفكرين يمتازون بالتوفيق بين مراحل حياتهم الفكرية المختلفة ، وتنسيقها مهما تكن متفرقة متباينة] . (١)

وهكذا نرى أنّ الذي دعا إلى نبذ الدين ، وإهمال العواطف ، واعتبار الدين والتفكير الديني مناسباً لطفولة البشرية عاد وأعلى من شأن الدين ، واعترف به ، وبذلك أقام بنفسه الدليل على تهافت فلسفته الوضعية وسقوطها .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز » رحمه الله :

[وبعد فأي شهادة أكبر شهادة على أنَّ نهاية العلم البشري ليست هي إطفاء غريزة التديّن ، بل زيادة إشعالها من أنّ مؤسِّس الفلسفة الواقعية ، وكبار أنصارها قد انتهوا إلى الاعتراف صراحةً أو ضمناً بهذه الحقيقة بناءً على تجربتهم في أنفسهم .فهذا كونت الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم قد عاد في آخر أمره متصوِّفا عجيبا ، وكلل حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظام الكنسي للديانة الكاثوليكية : في عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها وطبقات قساوستها .. رواية كاملة أعاد فصولها ، ولم يغير إلاّ أشخاصها] . (٢)

---

(١) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة صـ ٥٩ .

(٢) الدين صـ ٩٦ .

وهكذا ننتهي إلى تقرير أن الدين سيبقى ما بقيت الانسانية على وجه الأرض ذلك لأنّ التدين فطرة في النفس الإنسانية ، لا يمكن تجاهلها ، والتغاضي عنها ، وأنّ كل نظام يصادم هذه الفطرة لابّد أن ينتهي إلى الفشل الذريع والتهافت.

وهذا ما توصل إليه الأوربّيون بعد التجربة التي اعتمدوا عليها في إصدار أحكامهم ، فقد جربوا المذاهب واحداً تلو الآخر ووصلوا أخيراً إلى تقرير هذه الحقيقة .

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين :

[إن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتّى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ... وإن الإهتمام بالمعنى الإلهي ، وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية .

ويقول :

[إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي ، بل لا تضعف ولا تذبل إلاّ في فترات الإسراف في الحضارة ، وعند قليل جدا من الأفراد] . (١)

ويقول سالمون ريناك :

[ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب بل لنا أن نكون على يقين من أنّه سيبقى شيء منها أبداً ، ذلك لأنّه سيبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل ، ولأن العلم لن يحقّق أبداً مهمته على وجه الكمال .

ويقول أرنست رينان في تاريخ الأديان :

[إنّ من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل ، والعلم ، والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الانساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية] .

---

(١)المرجع السابق صـ ٨٤ .

ولقد أحسن الأستاذ محمد فريد وجدي حين قال في دائرة معارفه تعليقاً على هذه الكلمة في مادة « دين »

[نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التديّن لأنّها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان ، بل إنّ هذا الميل سيزداد فطرة التديّن ستلاحق الإنسان مادام ذا عقل يعقل به الجمال ، والقبح ، وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ، ونمو معارفه] . (١)

وقد كان حرياً « بأوجست كونت » وقد أدرك قيمة الدين في حياة الإنسان ، وأن الإنسان لن يجد سعادته إلاّ في ظل دين يفيء إليه ـ أن يطلب الدين الحقّ ، ويلزم الموضوعية ، والحيدة التي نادى بهما ، في دراسة هذا الدين ألا وهو الإسلام فيدرك أنهّ الدين الوحيد الذي يُشبع جميع حاجات النفس الإنسانية ، فيشبع حاجة العقل ، وحاجة الروح السامية ، ويحارب الخرافات ، والأساطير ، ويحقّق سعادة النفس الإنسانية .

ولكنه التعصُب الأعمى الذي جعله يعيش ، وكأنّه لم يسمع عن الإسلام شيئاً فلا يذكر في كتاباته شيئاً عنه ، وكل نقده للأديان ، وللميتافيزيقا ينطبق فعلا على الأديان السماوية المحرّفة ، ولكننا نجده يعمّم هذا النقد على الأديان جملة ، ويصمها بالخرافة ، والأسطورة ، وهذا ما لا يليق بعالم من العلماء أن يفعله .

وإننا لا نملك أنفسنا من السخرية بهذا الدين الذي اخترعه ، وكان من وحي خياله المريض ، ولا نعجب إذا عرفنا أن هذا الرجل قد أصيب بالجنون في حياته ، وأنّه حاول الإنتحار يأسا من الحياة ، فجاء دينه الذي يريده أن يكون للإنسانية عامةً مزيجاً من التناقضات التي لا يقبلها العقلاء .

وهذا خير دليل على أنّ الدين لا يمكن أن يكون من وضع العقل البشري ، بل الدين الحق هو الآتي من عند الله سبحانه وتعالى .

---

(١) المرجع السابق صـ ٨٩ .

ونحن إذا نظرنا إلى الدين الذي اخترعه « أوجست كونت » نجده في الحقيقة مجرد اقتباس وتلفيق ، فأوجست كونت » المعجب بالتنظيم الكاثوليكي اقتبس هذا التنظيم ، وجعله للديانة التي اخترعها .

وقد اعترف بهذه الحقيقة تلميذه ليفي بريل حيث يقول :

[وخلاصة القول هي أن كونت اقتبس من المذهب الكاثوليكي في العصور الوسطى كل شيء تقريباً فيما خلا العقيدة ، أى أخذ عنه أسسه ، ونظامه ، وطرق العبادة فيه ، ولو استطاع لاستعار منه أيضاً سلك رجال الكهنوت ، وكاتدرائياته « كنائسه الكبرى » ، وعلى ذلك فليست ديانة « كونت » إلاّ المذهب الكاثوليكي بعد أن طهّر من عقائده](١)

فأوجست كونت حكم على العقيدة المسيحية المحرفة بأنّها بالية ، ولا تصلح في عصر التقدم العلمي ، واقتبس النظام الكاثوليكي كله ، حتى إنّ « ليفي بريل » يعترف : بأنّ أحد الكتّاب عرّف الدين الوضعي بأنّه المذهب الكاثوليكي بدون العقيدة المسيحية .

ويقول ليفي بريل إن كونت لو كان حياً لما اعترض على هذا التعريف فهو في الحقيقة يميز في المذهب الكاثوليكي بين العقيدة والنظم ـ كما رأينا ـ .

أما العقيدة في هذا المذهب الوضعي ، فهي حقاً عقيدة لا ينشئها إلاّ خيال مريض ، إذ كيف يستسيغ الانسان السليم أن يتجه بالتعظيم ، والعبادة لأفراد من البشر مثله ؟ مهما بلغوا من الذكاء ، وسعة المعارف ؟

وفي الحقيقة فإنّ التاريخ البشري يدلنا على أنّ هناك جماعات عبدوا البشر أيضا كالفرس الذين كانوا يعبدون ملوكهم على اعتبار أنه قد حلت فيهم أرواح الآلهة ، وهناك أناس عبدوا الحيوانات ، وما ذاك إلاّ لانحطاط عقولهم ، وإلفائهم لها بالإنقياد لما عليه آباؤهم وأجدادهم .

---

(١) فلسفة « أوجست كونت » صـ ٢٩٧ .

ولكن « كونت » الذي عاش في عصر التقدم العلمي كيف استساغ أن يتجه بالعبادة إلى البشر ؟ ولا نجده يكتفي بذلك بل يدعو إلى أن تكون ديانته هذه ديانة عالمية .

يقول مصطفى الخشاب :

[بيد أنّ الإتجاه بالعبادة والتقديس إلى طائفة من بني الإنسان فكرة غريبة في حدٍّ ذاتها ، ولا يجد « كونت » مؤيِّدين له في قبولها ، والإيمان بها] (١)

« فأوجست كونت » يريد من الناس أن يعبدوا أفراداً من البشر مثلهم ، ويعتبرهم أبطالا لأنهم خدموا الإنسانية ، وضحوا من أجل تقدمها .

فكما يقول « اميل بوترو » [تصبح عبادة بعض الأفراد وهم الأبطال جزءاً أساسياً من عبادة الإنسانية] . (٢)

ولا نظن أن ديناً من وضع خيال رجل مريض ، بل مجنون يستحق أن نقف عنده لننقده ، وننقد عباداته ، التي ليست في الحقيقة سوى تذكر ، وتعظيم لذكرى هؤلاء الأفراد من البشر .

ويتضح لنا كذلك تناقض « أوجست كونت » مع نفسه حين يقول إن « الإنسانية » التي يجب أن يتجه الناس إليها بالعبادة والتقديس معنىً من المعاني ، مع أنه لا يؤمن بالمعاني المجّردة ، ويرى إنها من الميتافيزيقا التي بحكم قانونه تكون من مخلفات الماضي ، ومع ذلك فإنّه يجعل الإنسانية هي مناط التقديس ، والعبادة ، ويقول إنها وإن كانت معنى إلاّ أنهّا تتجسد في شخصيات الأبطال الذين قدموا خدماتهم للإنسانية جمعاء .

فهذا منتهى التناقض في مذهب كونت .

---

(١) أوجست كونت صـ ١٤٥ .

(٢) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة صـ ٥٨ .

هذا وقد أخطأ الوضعيّون جميعاً حين اعتبروا الدين مجرد ظاهرة من ظواهر المجتمع ، وأنه لا يعدو أن يكون مبدأ للنظام السياسي ، ولذلك فقد خلا تعريفهم للدين من الإيمان بالذات الإلهية التي تقوم عليها حقيقة الدين فعلاً ، وإنّ استناد « دوركايم » في ذلك إلى أنّ هناك ديانات قامت على أساس أخلاقي خال من كل تأليه ، إنّما هو استناد باطل فهذه المذاهب لا تستحق أن تسمّى أديانا في الحقيقة ، وذلك لأنّه لا يُفهم من كلمة « « الدين » إلاّ أنّه اعتقاد بشيء يخضع له الإنسان ، ويتجه نحوه بالرغبة ، والرهبة ، والتقديس .

يقول الدكتور « محمد عبدالله دراز :

[إننا لا نبالغ إذا قلنا إنّ كل مذهب يخلو من هذه الدينونه هو أحقّ باسم الفلسفة الجافة منه باسم آخر ، وأكبر الظن عندنا أنّ الديانات المذكورة (البوذية ، الكونفوشيوسيه ، ونحوهما) ما استحقت أن تدرج في جدول الأديان إلا منذ أن دخلتها فكرة التألية ، أو على اعتبار أنها كانت كذلك أبداً .

وبالجملة فنحن لا نوافق على حذف مبدأ الألوهية من تعريف الأديان ، بل نذهب إلى القول مع الفيلسوف الألماني « أرنست شلايرماخر » بأنّ قوام حقيقة الدين هو ذلك الشعور بالحاجة ، والتبعة المطلقة لقوة قاهرة ، فلا ريب أن هذا الشعور ركن أصيل لابّد منه في تحقّق ماهيّة الدين من حيث هو] . (١)

ويقول الدكتور ـ محمد عبد اللهدراز أيضا :

إن هؤلاء الوضعيين وأمثالهم [« بتجريدهم ماهيّة الدين من فكرتي الروحيّة ، والإلهيّة » قد جردوها من أخصّ صفاتها ، ونزعوا منها المحور الذي تدور عليه كل عناصرها ، والمعيار الذي تقاس به مظاهرها ، وتتميز به عمّا سواها]. (٢)

هذا بالنسبة لتعريف الدين عند الوضعيين تعريفا يخلو من معنى الألوهية .
أما بالنسبة « لدوركايم » الذي حصر الدين ، والقدسية في تحريم بعض الأشياء ، كما حصر القدسيّة الدينيّة في الديانة التوتمية بأن الأفراد لا يجرؤون على أكل التوتم الذي يقدّسونه ، واعتبر هذا التحريم فقط هو مجال القدسية الدينية .

---

(١)الدين صـ ٣٥ .

(٢) نفسه صـ ٥٠ .

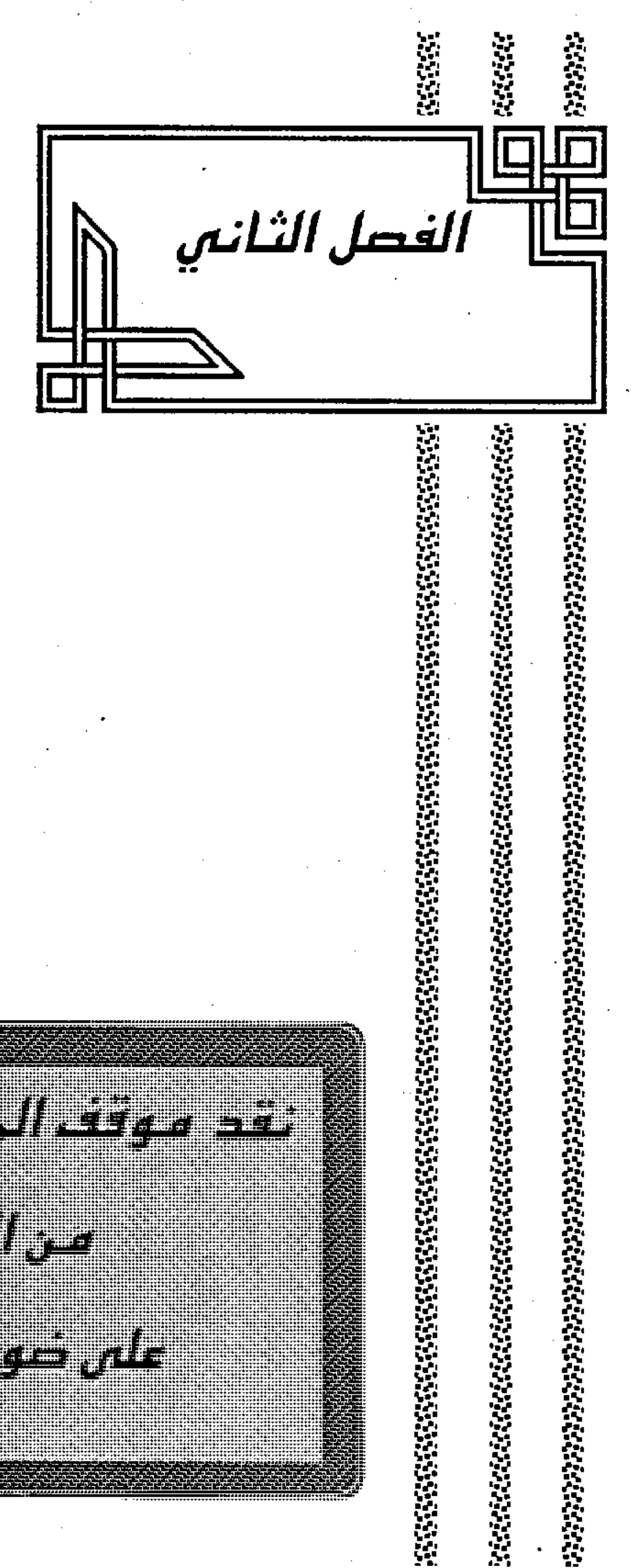
يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

[إن هؤلاء الباحثين قد « فاتهم أنّ المنع من لمس شيء ما ليس دائماً دليل قدسيته ، بل قد يكون على الضد دليل ما فيه من خبث ، ورجس ، كما فاتهم أن الشعائر العملية في كل ملة يجب أن تكون ترجمة كاملة لعقائدها فإذا كان التقديس هو من أحد جانبيه تنزيهاً عن العيوب ، والنقائص فهو من الجانب الآخر وصف بالجمال ، والكمال ، هو تعظيم للقيم الكبرى ، والمثل العيا ، فمظهره في الناحية السلبية عدم انتهاك الحرمات ، وفي الناحية الإيجابية الإقبال على الفضائل إغترافاً من معينها ، وتذوقاً لجمالها ، وتمثلاً لجوهرها .] . (١)

وبذلك نصل إلى أنّ المدرسة الوضعيّة قد وقعت في أخطاء عديدة ، وكان ذلك ناشئاً من إنكارها لعالم الغيب ، وعدم إيمانها إلاّ بما تدركه الحواس ، ولكنها لم تستطع تجاهل نداء الفطرة التي تؤمن بقوة غير محسوسة تلتجيء إليها ، وخاصة عند الشدائد والأزمات فجاءت بدين لا يستسيغه أيّ عاقل لا يسلم من النقد .

---

(١) الدين صـ ٥٠ .



الفصل الثاني



نقد موقف المدرسة الوضعية من الأخلاق على ضوء الإسلام

محتويات الفصل

يشتمل الفصل على تمهيد وستة مباحث :

تمهيد

رأينا في الفصل السابق فساد ماذهبت إليه المدرسة الوضعيّة بالنسبة لمصادر المعرفة ، وعالم الغيب ، والدين ، وذكرنا عدداً من الأخطاء التي وقعت فيها .

ويعدُ موقف المدرسة الوضعيّة من المعرفة والدين أساساً لموقفها من الأخلاق ، ولذلك كانت أخطاؤها في مختلف جوانب ما ذكرته في المجال الأخلاقي. وفي هذا الفصل سأتناول بالنقد أخطاءها مع الأخلاق مبرزةً الجانب الإسلامي ، وما فيه من صدق ، وحق .

وسيأتي هذا الفصل مشتملاً على المباحث التالية :

المبحث الأول : نقد المذهب الوضعي في دراسة الأخلاق .

المبحث الثاني : قصور العلم التجريبي عن معرفة الخير والشر ووضع مباديء الأخلاق .

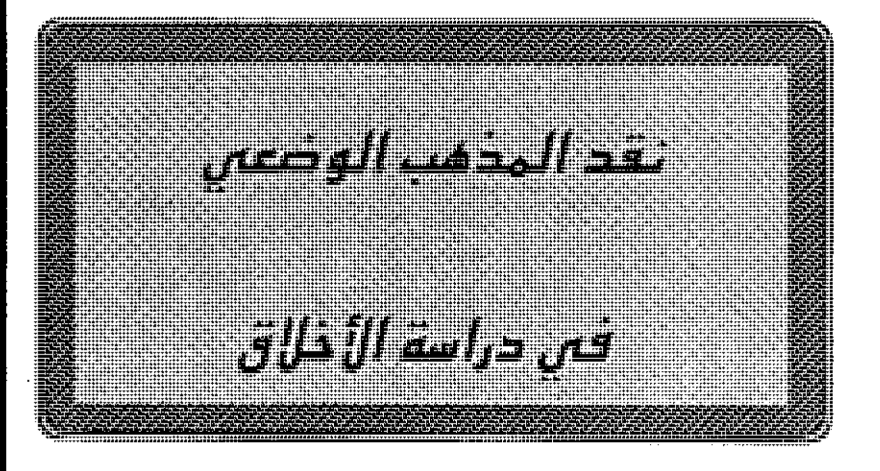
المبحث الثالث : نقد التفسير الوضعي لنشأة الضمير الأخلاقي .

المبحث الرابع : نقد التفسير الوضعي لمصدر المقياس الخلقي .

المبحث الخامس : نقد المذهب الوضعي في صفات القاعدة الأخلاقية .

المبحث السادس : نقد المذهب الوضعي في مقياس التفرقة بين الظاهرة السليمة والمعتلة .


المبحث الأول


نقد المذهب الوضعي
في دراسة الأخلاق

المبحث الأول

نقد المذهب الوضعي

في دراسة الأخلاق

رأينا فيما سبق ـ أن الوضعيّين وعلى رأسهم « أوجست كونت » ينادون بضرورة تطبيق المنهج العلمي على دراسة الأخلاق ، وذلك باعتبار أنّ الأخلاق أشياء تخضع للملاحظة ، والدراسة العلميّة الموضوعية .

وقد عرفنا أنّ هذا المنهج العلمي الإستقرائي يقتضي من الباحث أن يُقدِم على دراسة الظاهرة المراد دراستها ، وقد أخلى ذهنه ، وقلبه تماماً من كل فكرة مسبَّقة لديه عن هذه الظاهرة ، وما يتصل بها ، وذلك حتى تكون النتائج التي يتوصّل إليها من هذه الدراسة غير متأثّرة بعقيدته ، وآرائه الذاتية .

وبذلك يسوّي الوضعيّون بين دراسة الظاهرة الطبيعية ، وبين الأخلاق من حيث تطبيق المنهج العلمي عليهما ، فكلاهما في رأيهم يخضع لقوانين ثابتة يسير بموجبها ، فكما أنّ هناك قوانين ثابتة تسير عليها الظواهر الطبيعية في هذا الكون كذلك فإنّ الظواهر الإجتماعية ، ومن بينها الأخلاق تخضع ـ في رأيهم ـ لمثل هذه القوانين الثابتة ، التي لا زالت مجهولة ، ولكن الدراسة العلميّة ـ كما يقولون هي التي ستوصلهم إلى معرفتها ، وإقامة فن أخلاقي على ضوء ما يتوصّلون إليه من قوانين تخضع لها هذه الظواهر الإنسانية عامة .

وإننا سنناقش الوضعيّين فيما ذهبوا إليـــه في هذا الشـــأن لنتعرف هل ـ فعلا كما يقولون ـ تخضع الظواهر الإنسانيّة المتعلقة بسلوك الإنسان وأخلاقه لقوانين ثابتة تسير عليها ، وهل يمكن دراسة هذه الظواهر كما تدرس العلوم الطبيعية ؟

إن الدراسات الحديثة في علم الإجتماع قد كشفت عن صعوبات عديدة تعترض تطبيق المنهج العلمي الاستقرائي على الدراسات الانسانية بصفة عامة والأخلاق بصفة خاصة ، وهذه الصعوبات منها ما يتعلق بموضوع البحث ، ومنها ما يتعلق بالباحث نفسه .

أولا : الصعوبات المتعلقة بموضوع البحث :

موضوع البحث في العلوم الإنسانية هو الإنسان نفسه ، وما يصدر عنه من أفعال بصفته فرداً يعيش في مجتمع .

ولا شك أنّه مهما حاول الوضعيّون ، ومن حذا حذوهم المماثلة بين علوم الطبيعة الماديّة ، وبين علوم الانسان فإنّه لا يزال هناك فارق أصيل يميّز بينهما ، ويجعل من الاستحالة التسوية بينهما وذلك للأسباب التالية :

أ ـ تعقّد الظواهر الإنسانية :

الظواهر الإنسانية المتعلقة بسلوك الإنسان ، وأخلاقه ، ظواهـــر معقّدة جدا ، وهي تتصل بعوامل داخل الانسان ، وتقوم في شعوره وترتبط بعواطفه ، ووجدانه ، فهي ليست كالظواهر الطبيعية التي تخضع للمشاهدة ، والملاحظة .

يقول الدكتور « محمد علي محمد » :

[من الملاحظ أنّ العالم الطبيعي يمكن دراسته ، وملاحظته من الخارج بينما عالم الأنشطة الانسانية لا يمكن ملاحظته ، وفهمه إلاّ من الداخل] . (١)

---

(١) علم الإجتماع والمنهج العلمي صـ ٧٩ .

ب ـ استحالة إجراء التجارب على الإنسان :

من المعلوم أنّ الظواهر الطبيعية يمكن أن تخضع لإجراء التجارب عليها ، كما يمكن للباحث أن يتحكم في إجراء هذه التجارب على النحو الذي يريد حيث يمكنه أن يغيّر أحد العوامل الداخلة في التجربة لمعرفة أثره ، كما يمكنه إعادة التجربة عدة مرات ، وذلك للتوصّل إلى النتائج الصحيحة . ولكن هذا لا ينطبق على العلوم المختصة بالانسان ، وخاصة الأخلاق ، فلا يمكن إدخال الإنسان إلى معمل لإجراء تجارب عليه ، كما لا يمكن التحكم فيه ، فالإنسان ليس شيئاً مادياً ، بل هو كائن متفرد ، ميّزه الله سبحانه وتعالى عن غيره من المخلوقات ، وكرّمه عليها .

يقول الله تعالى :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً ﴾ . (١)

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ . (٢)

وقال تعالى :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ . (٣)

فالقرآن يقرر أنّ الإنسان مكرّم عند الله سبحانه وتعالى فقد أسجد الملائكة لأبينا آدم عليه السّلام ، وهذه درجة عالية عند الله تعالى أعطاها لآدم عليه السلام .

والوضعيّون الذين ينادون باخضاع الإنسان ، وأخلاقه للمنهج العلمي ، والدراسة العلمية يحطّون من كرامة الإنسان التي وهبها الله له ، فيسوّون بينه وبين الجماد .

---

(١) الإسراء آية ٧٠ .

(٢) البقرة آية ٣٤ .

(٣) الأعراف آية ١١ .

ولقد اعترف علماء أوربا المنصفون بهذه الحقيقة ، وأثبتوا أنّ الإنسان كائن متميّز فلا يصح بحث العلوم الانسانية بالمنهج الذي تبحث به علوم الجماد والمادة فهناك صعوبات كثيرة تحول دون ذلك .

يقول الدكتور « صلاح قنصوة »

[تدور معظم الصعاب الخاصّة بموضوع العلوم الإنسانية وهو الإنسان والمجتمع حول القضية الأساسية القائلة بتفرده ، وما يتصل بهذا التفرد من تعقيد ، وعفوية ، وحرية إرادة] . (١)

فإخضاع الإنسان ، وسلوكه للتجربة كما هو حاصل بالنسبة لعلوم المادة أمر مستحيل ، وذلك لأنّ [التجارب تقوم على مباديء أساسية أهمها التحديد ، والضبط ، والتحكم من جانب الباحث ، أو بعبارة أوضح يقوم الباحث في العلوم بتحديد عناصر الظاهرة التي يريد دراستها ، ويعمل على عزلها عن غيرها من العناصر ، ثم يتحكّم فيها صناعياً حتى يمكنه أن يتوصّل إلى تحقيق الظروف المتماثلة مرة أخرى على إعتبار أنّ عوامل الزمان ، والمكان ثابتة لا تتغير ، ولما كان المنهج التجريبي يعتمد على الفكرة القائلة بأنّ الأمور المتماثلة تحدث في الظروف المتماثلة ، فإن هذا المنهج ـ في رأيهم ـ يمتنع تطبيقه في العلوم الإجتماعية ، لأن الظواهر الإجتماعية فرديّة ، فريدة في نوعها ، ولا تتكرر بنفس الصورة] . (٢)

---

(١) الموضوعية في العلوم الإنسانية صـ ٥٢ الطبعة الثانية عام ١٩٨٤ الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر ـ بيروت .

(٢) عبد الباسط محمد حسين : أصول البحث الإجتماعي صـ ٩٩ . المؤلف : أستاذ ورئيس قسم الإجتماع ، وعميد كلية الدراسات الإنسانية ، ومدير المركز الاسلامي لدراسات المرأة والتنمية في جامعة الأزهر .

جـ ـ عدم إمكانية التوصل إلى قوانين تحدِّد سلوك الإنسان :

من المعلوم أنّ الظواهر الطبيعية كما خلقها الله سبحانه وتعالى تسير حسب قوانين ثابتة ، بحيث يمكن من دراسة هذه الظواهر التوصّل إلى معرفة هذه القوانين ، ففي علوم المادة ، والظواهر الطبيعية هناك حتميّة تسير بموجبها هذه القوانين ، فإذا توفّرت ظروف معينة نتجت عنها نتائج خاصة بلا زيادة ولا نقصان ، ومن ذلك أمكن للعلماء التنبؤ بحالة الطقس والزلازل وغيرها .

ولكن هذه الخاصية للعلوم الطبيعية ليست متوفّرة في علوم الإنسان ، وذلك لأنّ الإنسان يتصرف في أفعاله حسب إرادته ورغبته ، كما أنّه حر في اختيار السلوك الذي يريده ، فليست أفعال الإنسان آلية ، وجبرية ، وبذلك لا يمكن التوصّل إلى قانون يحكم سلوك الإنسان ، وأخلاقه كما يزعم الوضعيّون .

يقول الدكتور « صلاح قنصوة » موضحاً هذا الأمر وهو عدم إمكانية التوصّل إلى قوانين تحكم السلوك الإنساني :

[الصعاب التي تواجه العلوم الإنسانية لا تنشأ فحسب عن التعقد الهائل للظواهر الإجتماعية ، بل وأيضا ـ في المحل الأول ـ لأن الأفعال الإنسانية واعية ، وتصدر عن رويّة ، وتدبّر ، وبالتالي فهي عرضة للتعديل ، والتبديل على أساسٍ من الفهم ، والتبصُّر] . (١)

وكذلك يقول الدكتور « عبد الباسط محمد حسين » موضحاً إنّه ليست هناك حتمية ، وجبرية في الأفعال الإنسانية كما هو حاصل في الظواهر الطبيعية :

[لا تخضع الظواهر الإجتماعية لمبدأ الحتمية الذي تخضع له الظواهر الطبيعية ، وذلك بسبب الحرية التي يتمتع بها الإنسان .. ففي استطاعتهم أن يغيّروا سلوكهم طبقاً لحالاتهم النفسية ، وتبعاً للظروف التي تحيط بهم . لذا فإن من المستحيل التنبؤ بسلوكهم الإجتماعي ، ووضع مباديء عامة لهذا السلوك] . (٢)

---

(١) الموضوعية في العلوم الإنسانية صـ ٥٥ .

(٢) أصول البحث الإجتماعي صـ ١٠١ .

ومن هذا يتبيّن لنا أنّ هناك فروقاً كبيرة بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الإنسانية ، وذلك لأنّ موضوع العلوم الطبيعية هو هذا الكون المادي بظواهره المحسوسة ، وموضوع العلوم الإنسانية هو الإنسان ، وهو كائن متميّز عن هذا الكون المادّي ، فهو ليس مادةً فقط . بل هو جسم وروح فهو كائن متميّز ميّزه الله سبحانه وتعالى ، وكرمه ، وفضّله على كثير ممن خلق . (١)

وبذلك يتبيّن لنا شناعة الخطأ الذي ارتكبه الوضعيّون بصورة عامة في شأن الإنسان حين نادوا بدراسته ، ودراسة أخلاقه ، وما يصدر عنه من أفعال كما تدرس ظواهر الكون المادي تماماً ، متجاهلين هذا الفارق العظيم بين موضوع الطبيعة وموضوع العلوم الانسان ، وأنه لا يمكن معاملة الإثنين معاملةً واحدة ، وتطبيق منهج واحدٍ عليهما كما ينادون بذلك ، وكما يردّد من ورائهم الببغاوات في بلادنا الإسلامية ، وخاصة علماء الإجتاع والتربية الذين قنعوا لأنفسهم بأن يكونوا مجرد مرددين لما يقوله الغربيون دون تمحيص ، ولا دراسة .

ثانيا : الصعاب المتعلقة بالباحث نفسه :

وإلى جانب الصعوبات التي تعترض تطبيق المنهج العلمي على دراسة الإنسان التي تتعلق بموضوع البحث هناك صعوبات تتعلق بالباحث نفسه.

فهذا المنهج يحتِّم على أصحابه ضرورة التخلي عن قيمهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم المسبّقة عن الظاهرة موضوع البحث ـ كما رأينا سابقاً ـ وذلك حتى تكون النتائج التي يتوصلّون إليها محايدة وغير متأثرة بما يؤمنون به مسبقاً . إلاّ أنّ هذا الشرط الذي يشترطه الوضعيون لكي تكون الدراسة ، ونتائجها موضوعية غير متأثرة بالباحث ، وقيمه لا يمكن تحققه بالنسبة للعلوم الإنسانية ، ففي العلوم الطبيعية التي يعالج الباحث فيها

(١) سيأتي مزيد من التوضيح لهذه القضية . إن شاء الله .

أموراً ، وأشياءً مادية محسوسة يمكن للباحث دراسة هذه الأشياء دراسة علميّة محايدة ، بدون أن تتدخل آراؤه الذاتية ، وقيمه في هذه الدراسة ، ولكن في العلوم الإنسانية لا يمكن للباحث أن يتخلّى عن عقيدته لأنّها هي التي توجّهه في حياته ، وفي كل شأن من شئونه ، فلابدّ أن تؤثّر في أحكامه ، ونظرته للأمور ، وكذلك إيمان الباحث بالقيم ، والأخلاق لابدّ أن ينعكس على دراساته التي يقوم بها .

ولذلك فإنّ الأبحاث التربوية ، والإجتماعية التي يقوم بها العلماء الغربيون لا بد أن تنعكس عليها العقائد ، والقيم التي يؤمنون بها .

وبذلك تتضح لنا مدى خطورة ترجمة هذه الأبحاث ، والكتب إلى أبناء المسلمين ، فهي وإن ادّعت الموضوعية في البحث ـ لابد أن تكون متأثرة بالعقائد ، والقيم التي يؤمن بها أصحابها .

ويقرر الدكتور صلاح قنصوة أن القيم التي يؤمن بها الباحثون لابد أن تنعكس على أبحاثهم ـ فيقول في هذا الصدد :

[القيم التي يلتزم بها الباحثون في الظواهر الإنسانية لا تصبغ فحسب محتويات كشوفهم ، ونتائجهم ، بل إنّها تتحكم كذلك في تقديرها للشواهد والبينات التي يؤسسون عليها تلك النتائج ، وطالما اختلف الباحثون في التزاماتهم القيميّة ، فإن ما يسمى « بالحياد القيمي » أمر يوشك أن يكون مستحيلاً في العلوم الإنسانية] . (١)

ويقول الدكتور ـ عبد الباسط محمد حسين :

[يرى المعارضون لاستخدام المنهج العلمي في الدراسات الإجتماعية أنّ الظواهر الإجتماعية مرتبطة بالجانب الذاتي للإنسان ، ولا يمكن دراستها بالطرق الموضوعية فالباحثون الإجتماعيون أفراد يعيشون في المجتمعات ، ويتفاعلون مع أوضاع الحياة القائمة فيها ، ويؤثّرون ، ويتأثرون بما يقومون بدراسته ، ويقبلون ألواناً معيّنة من أساليب التفكير ، والسلوك القائمة في مجتمعاتهم] . (٢)

---

(١)الموضوعية في العلوم الإنسانية صـ ٦١ .

(٢)أصول البحث الإجتماعي صـ ١٠٢ .

وبذلك نصل إلى تقرير أنّه لا يمكن تطبيق المنهج العلمي الإستقرائي على العلوم التي تختص بالإنسان ، وخاصة الأخلاق ، وذلك لأنه شتّان ما بين الإنسان ككائن متفرد خلقه الله تعالى ، وميّزه عن غيره من المخلوقات ، وبين موضوعات العلوم المادّية ، والطبيعية .

وليس هناك دليل أبلغ على إثبات هذه الحقيقة من أنّ مؤسس الوضعية الذي نادى بضرورة تطبيق المنهج العلمي على الظواهر الإجتماعية الإنسانية ، وضرورة إلتزام الموضوعية ، والحياد عند القيام بالدراسة ، وعدم الإستناد إلاّ إلى الواقع المحسوس ، قد خالف بنفسه ما دعا إليه ، ولم يلـــتزم بالمباديء التي قال بها ، فوقع بذلك في التناقض .

يقول في هذا ج بنروبي :

[الواقع أنّنا لو شئنا ألا نستند إلاّ إلى ملاحظة الوقائع الموضوعية ، وإلى التاريخ ، كما يطالب « كونت » بذلك فمن المستحيل أن نفسر بهذه المصادر للمعرفة وحدها النتائج الرئيسية التي ينتهي إليها باليقين ، والقطع اللذين يعزوهما إليها مثل : عقيدة ثبات قوانين الطبيعة ، قانون الأطوار الثلاثة ، الإمتداد الكلي لفكرة الوضعيّة ، سمو وإمكان التنظيم الكامل لأحـوالنا العقلية .. الخ] (١)

ومن هذا النص نصل إلى أنّ « أوجست كونت » قد ناقض بنفسه ما دعا إليه حيث إنه دعا إلى ضرورة الإعتماد فقط على الدراسة الموضوعية ، والأشياء المحسوسة الواقعية ، والتخلي عن الذاتية والقيم التي يؤمن بها الباحث لتحقيق الموضوعية في البحث ، ولكنه لم يلتزم بذلك ، والدليل على ذلك أنّ النتائج التي توصّل إليها مثل ثبات قوانين الطبيعة ، قانون الأطوار الثلاثة قد استعان في التوصّل إليهما بمصادر قيمية ، وذاتية ، إذ أنّه لو اقتصر على الملاحظة الحسية فقط لما أمكنه الوصول إلى ذلك.

---

(١) مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا صـ ١٢ ترجمة د . عبد الرحمن بدوي .

وإضافةً إلى ذلك فإنّ « أوجست كونت » أيضا لم يطبِّق المنهج العلمي الإستقرائي في دراساته التي قام بها ، فمن المعلوم أنّ هذا المنهج يصل عن طريق دراسة الجزئيات إلى التعميمات ، ولكنه لم يفعل ذلك (*) .

يقول الدكتور « عبد الباسط محمد حسين » :

[إن كونت نفسه لم يستطع التحرر تماماً من أساليب التفكير الفلسفي فبدلاً من أن يبتدىء بدراسة الحالات الجزئية ليصل منها إلى القوانين العامة كما هو الحال في المنهج الإستقرائي اتجه كونت وجهةً أخرى فوضع القوانين والنظريات العامة ، ثم حاول أن يفسِّر على ضوئها حقائق الإجتماع . وقد أرجع « كونت » تطور الظواهر الإجتماعية إلى تطور التفكير ، مع أن تطور التفكير ذاته ليس إلاّ مظهراً من مظاهر تطور المجتمع ، ولا يُعتبر هو نفسه سبباً لهذا التطور ، ثم إنّ « كونت » وضع قانوناً يسري على جميع المجتمعات بلا استثناء مع أنّ الملاحظ هو وجود مجتمعات جزئية تختلف عن بعضها في بنيانها ، وأنظمتها ، وطبيعتها] (١)

ومن هذا نصل إلى النتيجة التالية : وهي أنه لا يمكن للباحث في الأمور الإنسانية أن يتخلى عن عقيدته ، وآرائه الذاتية عند دراسته لهذه الأمور ، والظواهر الخاصة بها فهو بنفسه يشكِّل موضوع هذه الدراسات .

وفي الحقيقة فإنّ التزام الدقة في البحث ، والتجرّد من الأهواء ، والنزوات ، وعدم اتباع الظن في إصدار الأحكام كلها أمور يدعونا إليها ديننا الإسلامي الحنيف ، فقد قرر الإسلام هذه المبادىء قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، فهو قد دعا إلى التزام الصدق في الدراسات ، والقرارات التي يتخذها الإنسان ، وكما عرفنا سابقا (*) فإن الإسلام قد نعى على الذين يسيرون في أمــــور عقيدتهم على

(*) سبق لي أن وضّحت ذلك في فصل نقد موقف المدرسة الوضعية من العلم والدين .

(١) أصول البحث الإجتماعي صـ ٨٣ .

(*) أنظر فصل نقد موقف المدرسة الوضعية من العلم والدين صـ .

مجرد تقليد آبائهم ، وأجدادهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث ، والدراسة لمعرفة إن كان ماعليه آباؤهم حقاً أم باطلاً ، وذلك في مثل قول الله تعالي :

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ . (١)

وفي النهي عن الظن والنعي على الذين يسيرون في أحكامهم عليه جاء قول الله تعالى :

﴿ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ . (٢)

وقال تعالى :

﴿ ما لهم به من علم إن يتّبعون إلاّ الظن ، وإنّ الظنّ لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ . (٣)

وإلى جانب ذلك دعا الإسلام المسلم الى الاعتماد على الدليل ، والبرهان لاثبات صحة الدعوى .

وجاء في ذلك قوله تعالى :

﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ . (٤)

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ . (٥)

﴿ إئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ﴾ . (٦)

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .

(٢) النساء آية ١٥٧ .

(٣) النجم آية ٢٨ .

(٤) النمل آية ٦٤ .

(٥) النساء آية ١٤٨ .

(٦) سورة الأحقاف آية ٤ .

وقال تعالى :

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ﴾ . (١)

﴿ أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ . (٢)

ونهى القرآن عن اتباع الهوى في الأمور ، وإصدار الأحكام وذلك في مثل ﴿ وَمَنْ أضلُ ممَن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القومَ الظالمين ﴾ . (٣)

﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ . (٤)

فالقرآن الكريم حدّد قبل أربعة عشر قرناً من الزمان المنهج العلمي الذي يتفاخر به الأوربيون ، ويدعون أنهم هم الذين اكتشفوه ، فالقرآن الكريم يدعونا إلى التثبت في كل أمرٍ قبل الحكم عليه فالإنسان مسئول أمام الله تعالى ، فلابد أن يوجهٌ سمعه ، وبصره ، وعقله للتثبت والتأكد قبل لوصول إلى النتيجة النهائية والحكم على الأمور .

---

(١)سورة الأنبياء آية ٢٤ .
(٢)سورة النمل آية ٦٤ .
(٣) القصص آية ٥٠ .
(٤)سورة الإسراء آية ٣٦ .

وهكذا فقد علمنا القرآن التزام الصدق في إصدار الأحكام ، وعدم الانسياق وراء الظن ، والتقليد ، والأهواء لأنّ هذه الأمور تضلل الإنسان ، وتبعده عن اتباع الحقّ ، وتصده عنه ، فالإنسان مدعوٌ إلى النظر ، وإعمال الفكر وخاصةً في أمر العقيدة ، فالنظرة الواقعية غير المتحيّزة هي سبيل الإنسان للوصول إلى الحق في هذه الأمور .

وبذلك نرى أنه ليس للوضعيّين أي فضل في الدعوة إلى التحرر من الأفكار الذاتيّة ، والأهواء الشخصية عند الدراسة ، وتطبيق المناهج العلمية ، ولكننا نقرر أنّ هذه الطريقة في البحث توصّل الانسان إلى الحقيقة في الأمور التي التبست عليه ، وفي الوصول الى العقيدة الصحيحة ، والدين الحقّ ، وتمييزه عن الأديان الباطلة ، المحرّفة .

ولكن مبادىء الأخلاق ، لايمكن للانسان التوصّل إلى معرفتها عن طريق تطبيق المنهج العلمي كما يدعو إلى ذلك الوضعيّون ، وبصفة خاصة « ليفي بريل » ، وذلك لأنّ هذه المبادىء ، والقيم قد قررها الدين الحقّ منذ الأزل ، فلا مجال فيها لابتداع البشر ، ودراساتهم .

فالدين هو الذي يقرر الخير من الشر ، والحق من الباطل ، ولا يترك ذلك لآراء البشر ، وأهوائهم ، ومصالحهم .

ومعنى تطبيق المنهج العلمي الاستقرائي على « الأخلاق » أننا لا نعرف هذه المبادىء ولكن دراستنا لها هي التي ستوصلنا إلى معرفتها كما يدعّي هؤلاء الوضعيون .

ولكن الإسلام دين الله الحق قد وضع ، وحدَّد مبادىء الأخلاق منذ الأزل ، وبيّن الرذائل ، ونهى عنها ، فالسرقة ـ مثلاً ، والزنا ، وكشف العورة ، وقتل النفس بغير الحق كلها رذائل بيّنها الإسلام ، وحذّر منها ، والعفة ، وستر العورة ، والصدق ، كلها من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام ، وأرشد إليها .

فمبادىء الأخلاق إذاً قررها الإسلام ، وليست هناك فائدة سيجنيها الإنسان من جراء تطبيق المنهج الإستقرائي العلمي على دراسة الأخلاق ، إذ ما الفائدة التي ستعود على الإنسان عند دراسته لظاهرة السرقة مثلاً ؟

هل إستخدام التجربة ، والمنهج العلمي ستوصله إلى غير ما قرره الدين من أنّ السرقة حرام ، ويجب تجنبها ، ومعاقبة السارق ؟

وهل ستوصله الدراسة العلمية إلى أنّ الزنا ، وكشف العورة أمر محبوب ويعود بالخير على المجتمع ؟

ومَن منّا لا يعرف أنّ السرقة حرام ، وأكل مال الناس بالباطل ، والزنا وغير ذلك من الرذائل التي نهانا الدين عنها ؟ فكيف يُطلب إلى الباحث أن يتخلّى عن معرفته بهذه الأمور وأن يتخلى عن عقيدته فيها وأن يُقدِم على دراستها ، وكأنه لا يعرف عنها شيئاً حتى يصل بالدراسة العلمية الصحيحة إلى الصواب فيها ؟

في الحقيقة ليست دعوى الوضعيين إلاّ دعوة لإشاعة الفساد في الأرض وبذر الشكوك ، وزعزعة القيم ، والمبادىء التي أرستها الأديان السماوية منذ وجُد الإنسان على سطح المعمورة (*)

(*) سيأتي مزيد من التفصيل لذلك في فصل « أثر القول بالنسبية في الأخلاق » .

ولقد وجدت أثناء دراستي لكتب « علم الإجتماع » أنَّ أكثر علماء (١) الإجتماع يرون أنَّ « ابن خلدون » قد سبق « أوجست كونت » في الدعوة إلى استعمال المنهج العلمي الإستقرائي عند دراسة الظواهر الإنسانية ، ويسوون بين الإثنين دون أن يروا أنَّ هناك فارقاً كبيراً بينهما ، « فابن خلدون » عالم مسلم ينطلق في دراساته من عقيدته الإسلامية الصحيحة ، ولا مجال هناك لمقارنة « أوجست كونت » به فشتان مابين الإثنين .

فكما علمنا أنَّ « أوجست كونت » والوضعيين من بعده يدعون إلى تطبيق المنهج العلمي الإستقرائي على دراسة « الأخلاق » وغيرها من ظواهر المجتمع ، ويقتضي هذا المنهج أن يُقدِم الباحث على دراسته ، وكأنه لا يعلم شيئاً عنها ويعتمد على النتائج التي توصله إليها دراسته هذه .

ولكن « ابن خلدون » لم يقل بما قال به الوضعيّون .

إن « ابن خلدون » دعا إلى التثبت من قبول الخبر ، وعدم قبول الأخبار على عواهنها بل لابدَّ من دراستها ، وتحري صدقها ، ودعا أيضا إلى ضرورة المشاهدة والملاحظة قبل إصدار الأحكام ، وضرورة تحكيم العقل لمعرفة أسباب الحوادث ، والإستفادة من كل ذلك .

(*) سيأتي مزيد من التفصيل لذلك في فصل « أثر القول بالنسبية في الأخلاق .

(١) أنظر مثلاً : أصول البحث الإجتماعي : د . عبد الباسط محمد حسين .

، مبادىء علم الإجتماع : د . السيد محمد بدوي .

، علم الإجتماع : د . عبد الحميد لطفي .

ويقول في مقدمته :

[إن الأخبار إذا أعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران ، والأحوال في الإجتماع ، الإنساني ، ولا قيسَ الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب فربّما لم يؤمن فيها من العثور ، ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للمؤرخين ، والمفسرين ، وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجّرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر ، والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق] . (١)

وفي هذا النص يدعو ابن خلدون إلى ضرورة التثبت قبل نقل الأخبار ، وتحكيم العقل فيما إذا كان الخبر المنقول معقولاً ، ويمكن حدوثه ، أم كان مبالغاً فيه إلى درجة أنه من وضع الخيال ، ودعا بذلك إلى الواقعية ، والبعد عن التحّيز ، والأهواء ، وكل هذه التعاليم استقاها من وحي القرآن الكريم ، ومن نـــور هديه

وهو يضع لذلك قانوناً فيقول :

« فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان ، والإستحالة أن ننظر في الإجتماع البشري الذي هو العمران ونميّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتّدُ به ، وما لا يمكن أن يعرض له ، وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه] . (٢)

وكذلك توصّل « ابن خلدون » من دراساته إلى أن هناك قوانين تحكم سير الظواهر الإجتماعية ، فأحوال الأمم ، والدول لا تسير على حالٍ واحدة ، بل تتغيرّ وتتبدل [إن أحوال العالم ، والأمم ، وعوائدهم ، ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ،

---

(١)المقدمة صـ ٩ الطبعة الرابعة عام ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م .

(٢)نفسه صـ ٣٨ .

ومنهاجٍ مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام ، والأزمنة ، وانتقال من حالٍ إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات ، والأمصار فكذلك يقع في الآفاق ، والأقطار ، والأزمنة ، والدول سُنّةُ الله التي قد خلت في عباده] . (١)

« فابن خلدون » قد تفطّن إلى حقيقة ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وكررها ، ودعا الناس إلى التفكر فيها ، وأخذ العبرة منها وهي أنّ لله سبحانه وتعالى سنة لا تتخلف في الأمم ، والشعوب ، وهي أنه مادامت هذه الأمم سائرة في حياتها على هدى الله سبحانه وتعالى ، ملتزمة بحدوده ، فإنها تعيش في حياتها آمنة مطمئنة ، ويمكن الله تعالى لها في الأرض ، أما إن تنكّبت هذه الأمة عن هدى الله، واتبعت الهوى ، والضلال فإنها ستكون عرضة لعقاب الله سبحانه وتعالى فهذه هي سُنّة الله تعالى التي لا تتخلف .

يقول تعالي :

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ . (٢)

ويقول تعالى :

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوةً وأثاروا الأرض وعمروها أكثر ممّا عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ . (٣)

فهذه هي السُنّة التي تجري الظواهر الإجتماعية في هذه الحياة عليها ، فالهدى يَتْبَعُه القوة ، والتمكين في الأرض ، والطمأنينة ، والضلال يَتْبعُه الضعف ، والإنحلال ، والفساد ، « وابن خلدون » فهم هذا القانون ، وبين أن الظواهر الإجتماعية تسير حسب هذا القانون ، وليست ظواهر عشوائية .

---

(١) المقدمة صـ ٢٨ .

(٢) الأحزاب آية ٦٢ .

(٣) الروم آية ٩ ـ ١٠ .

ولكن الوضعيين يفترقون عن « ابن خلدون » وعن الفهم الاسلامي حين يقولون إنّ أفعال الإنسان ، وأخلاقه تخضع لقوانين حتمية ، وجبرية كما تخضع ظواهر الطبيعة لقوانين تسيرها ، ويدعون إلى الدراسة العلمية لمعرفة هذه القوانين .

وكما علمنا فإنّ الظواهر الإجتماعية ظواهر تتعلق بالإنسان ، وبأخلاقه ، وميوله ، ومشاعره ، وليست هناك حتمية ، وجبرية تخضع لها كما يدعي الوضعيون .

إن « ابن خلدون » العالم المسلم لم يقل بذلك ، ولم يقل إنّ أفعال الناس تخضع لقوانين ثابتة ، كما تخضع ظواهر الكون لقوانين خاصة بها .

وكل ما قاله « ابن خلدون » في مقدمته هو أنّ أحوال الأمم في رقي ، وانحطاط تخضع لقوانين ، ولسُنة الله سبحانه وتعالى ، وهذه السُنة تتعلق بالنتائج فطالما كانت الأمة مهتدية بهدي الله مكَن الله تعالى لها في الأرض ، وعاشت آمنة مطمئنة ، وإن انحرفت عن الهدى الإلهي حل عليها عقاب الله ، وعذابه ، وكان مصيرها الفناء ، لتأتي أمة غيرها تقيم شرع الله ، وتتمسك بهديه .

والايات التي تدل على سنة الله تعالى هذه كثيرة أذكر منها قول الله تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدىً وموعظةٌ للمتقين ﴾ . (١)

وقال تعالى : ﴿ ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ . (٢)

---

(١) آل عمران آيات ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢) الأعراف آية ٩٦ .

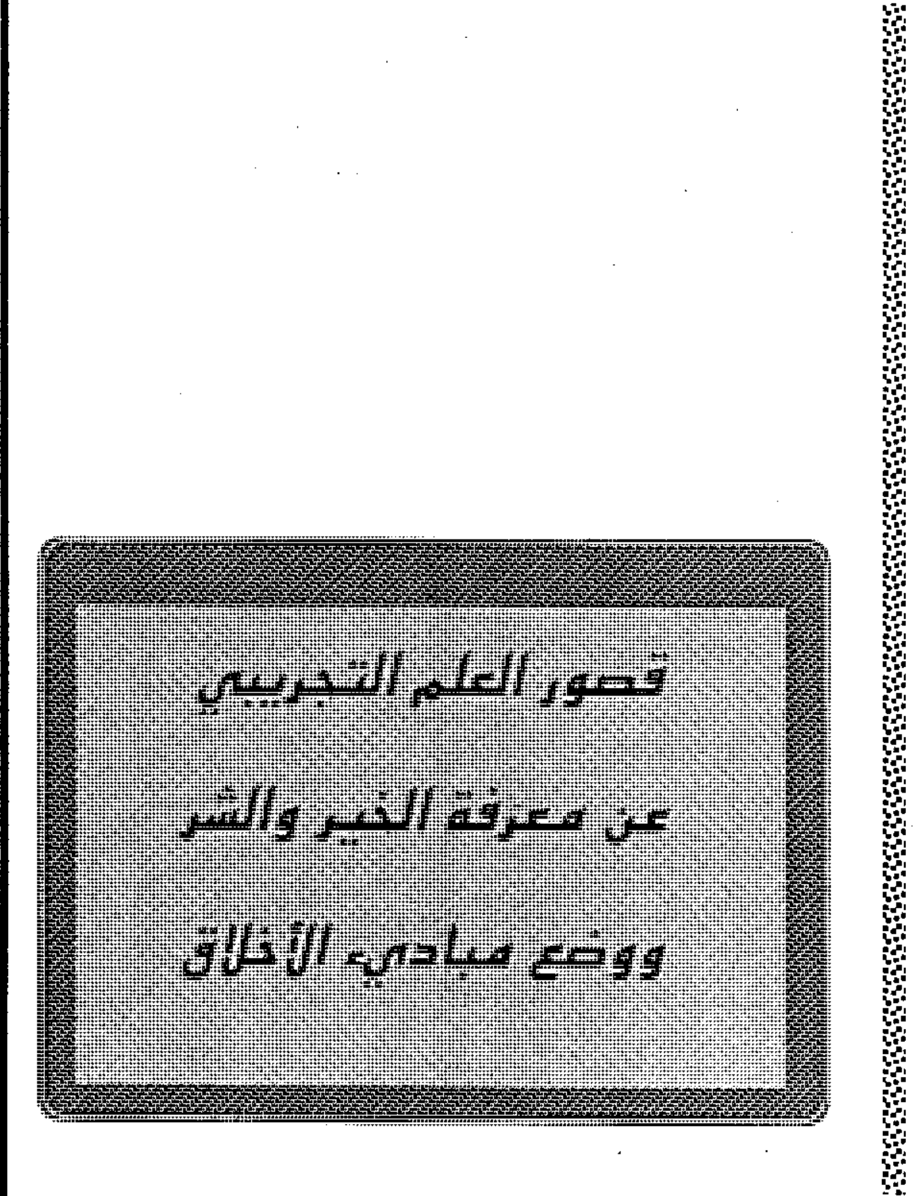
وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنَنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ . (١)

وهكذا نرى أنّه شتّان ما بين فهم « ابن خلدون » المسلم ، وتفسيره الاسلامي للأمور ، وبين فهم « أوجست كونت » والوضعيين من بعده .

(٣) النور آية ٥٥ .



المبحث الثاني



قصور العلم التجريبي عن معرفة الخير والشر ووضع مبادئ الأخلاق

المبحث الثاني

قصور العلم التجريبي عن معرفة الخير والشر ووضع مبادئ الأخلاق

لقد رأينا فيما سبق ـ كيف أنّ الوضعيِّين اغتروا بالعلم التجريبي ، وما قدّمه لهم من تسهيلات للحياة المادّية ، فولّوا وجوههم شطره ، وجعلوه قبلتهم وعوّلوا عليه في وضع مبادئ للأخلاق تتناسب مع حالتهم العلميّة التي بلغوها حيث إنّهم نبذوا الأخلاق الدينيّة لا لشيء إلاّ لأنها ـ في نظرهم ـ أخلاق تناسب طفولة البشرية ، وبدائيّتها ، فهم يرون أنّ أخلاق الشعوب البدائية هي أخلاق دينيّة ، ولذلك فهم يرفضون الأخلاق المستندة إلى الدين ، ويعوِّلون على العلم في أن يقدِّم لهم أخلاقاً علميّة تتناسب مع ما بلغوه من تقدمٍ علمي .

وفي هذا المبحث سنناقش الوضعيِّين فيما ذهبوا إليه ـ وسنرى هل فعلاً يمكن للعلم التجريبي ـ ونحن على نهاية القرن العشرين ـ أن يضع مبادئ أخلاقية ويسن القوانين التي تسعد البشرية ، وتؤدي إلى رفاهيتها ، وطمأنينتها النفسية وذلك من خلال المطالب التالية :

أ ـ قصور العلم التجريبي عن الإجابة على تساؤلات الإنسان الخالدة .

ب ـ قصور العلم التجريبي عن معرفة النفس الإنسانية .

جـ ـ أمثلة من ضلال العلم التجريبي في مجال الأخلاق .

المطلب الأول

قصور العلم التجريبي عن الإجابة على تساؤلات الإنسان الخالدة

تواجه الإنسان أسئلة تلحُ عليه طالبةً الإجابة عليها ، ولا تستريح نفسه ولا تطمئن إلاً بالحصول على الإجابة الشافية الوافية ، فيعيش مستهدياً بهديها ، مؤدّيا رسالته في إطار ما تحدّده له هذه الإجابات . وهذه الأسئلة هي : من أين جاء ؟ ولماذا ؟ وكيف يعيش حياته ؟ وعلى أيّ منهاج يسير ، ويسلك فيما يعترضه من شئون الحياة ؟ وإلى أين سينتهي أمره ؟ فالسلوك الأخلاقي في الحقيقة يتأسس على الإجابة عن هذه الأسئلة .

ولقد تولّت الأديان السماوية منذ عهد آدم عليه الصّلاة والسّلام تقديم الإجابات الوافية عن كل هذه الأسئلة ، ورسمت للإنسان المنهاج الحق الذي إن اتبعه حقق لنفسه طمأنينتها ، وسعادتها .

ولكن الوضعيّين ، وأمثالهم الذين يقولون عن عالم الغيب إنّه عالم خرافة ووهم ، وأسطورة يرفضون الإجابات التي قدّمتها الأديان السماوية على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والتي خُتمت بالرسالة الخاتمة على يد سيدنا محمد ﷺ ، ويعوّلون على العلم التجريبي في تقديم هذه الإجابات ، ورسم منهاج حياتهم ، فكانت النتيجة التي توصلّوا إليها هي هذا الضياع ، وهذه الحيرة ، والشقوة التي تتبدّى كأوضح ما تكون في مهد الحضارة الغربية ، حيث الجرائم البشعة والتي تشمئز منها النفوس وحيث الإنتحار تخلصاً من الحياة يسودان هذه المجتمعات .

فهذه الأسئلة الملحة لا يمكن تجاهلها ، ولا التغاضي وتلهية النفس عنها بأنواع المسليات ، فقد تبّين [أنّ الحقيقة التي أجمع عليها مؤرّخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة انسانية بلهَ أمةٍ كبيرة ظهرت ، وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره ، وفي تعليل ظواهر الكون

وأحداثه ، وبدون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً حقاً أو باطلاً ، يقيناً ، أو ظناً تصوُّر به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها ، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها . (١)

وقال بارتيلمي سانت هلير :

[هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الإنســـان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الحياة أيُّ مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وماعلاقتنا بهذا الخلود ؟

« هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ، ولا مجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة مقبولة أو سخيفة ثابتة أو متحولة] . (٢)

وهذه الأسئلة التي تلاحق الإنسان لا زالت تلاحقه في عصر التقدم العلمي ، وذلك باعتراف الذين قطعوا في العلم شوطاً بعيداً ، وبلغوا فيه مكانةً رفيعة يتساءل أحدهم : [ما دلالة الحياة ؟ لماذا نجيء ؟ ومن أين نجيء ؟ ما معنى الموت ؟ ماجدوى تشكيل أجسامنا ونفوسنا تبعاً لمثل من الطيبة والحقيقة إذا كنا لا نلبث أن نعود إلى العدم ؟ أليس الحماس والإيمان والبطولة مجرد دعابات من الطبيعة ؟ إلى أين نذهب ؟ أتتحلل الروح بعد الموت كما يتحلل الجسم ؟ هل من السخف أن نؤمن بخلود النفس] . (٣)

ويصف « رينيه دوبو » ما بلغه الناس في بلاده وهم في قمة التقدم العلمي نتيجة لعدم تمكّنهم من الحصول على إجابة على هذه الأسئلة **فيقول :**

---

(١) نقلا عن محمد عبد الله دراز الدين صـ ٣٤ .

(٢) نفسه .

(٣) الكسس كارل : تأملات في سلوك الإنسان صـ ١٥٥.

إنهم يسيرون في الحياة [ولكن القلق يعمر قلوبهم ، فهم في تساؤل دائم إلى أين ؟ وأحياناً كثيرة تأخذهم الحيرة .. فهم مترددون أيستمرون في السير أم يتراجعون ؟] (١)

ولقد ثبت أن العلم التجريبي عاجز تماماً عن تقديم الإجابات الحاسمة لكل هذه الأسئلة ، وذلك على لسان علمائه الذين بلغوا شأناً عظيماً في التقدم العلمي ، وتوالت اعترافاتهم بذلك حيث خيّب العلم آمالهم التي عقدوها عليه فكان ذلك خير دليل علي إثبات قصور العلم عن هذه الغاية ، وعجزه عنها .

وإني اقتطف بعضاً من هذه الإعترافات لعلماء أوربيين قطعوا شوطاً بعيداً في التقدم العلمي ، ولم يجدوا ضالتهم ، وما ينشدونه فيه ، فاعترفوا بذلك .

يقول أحدهم :

[نحن لا نستطيع أن نأمل في معونة العلم في هذا الصدد فهو يكتفي بأن ينقل إلينا عن الطبيعة أمرها لنا بأن نحيا ، وننشر النوع ، وننمي عقلنا ، كما أنه يبيّن لنا هدف الحياة لكنه يظل صامتاً بالنسبة إلى دلالتها ، والواقع أنّه أصغر سناً من أن يجيب على الأسئلة التي تتساءلها البشرية المفكّرة بكل قلق أمام مشكلة أصلها وغايتها ، وذلك لأنه لم يعرف بعد طبيعة الروح] . (٢)

ويقول أيضا :

[إنّ معظم المتحضرين قد تخلوا عن الإيمان بالدين ولكن الكثيرين منهم لا يزالون يفكّرون في لغز الموت تفكيرا عميقا ويتساءلون في قلق شديد عمّا إذا كان السمّو الروحي خلال الحياة هو الهدف من الحياة حقاً ؟ وعما إذا كانت الكنوز التي تركها الأولياء ، وأبطال الخير ليس لها من مصير إلا التلاشي في هوة العدم .

---

(١)انسانية الإنسان صـ ٥٨ .

(٢)الكسس كارل : تأملات في سلوك الإنسان صـ ١٥٦ .

[لا يستطيع العلم في الوقت الراهن أن يجيب عن هذه الأسئلة فهو لا يزال يجهل العلاقات بين الجانب العقلي ، والجانب العصبي ، وما إذا كان تحلل الجانب العصبي يؤدي بالضرورة إلى تحلل الجانب العقلي ، كما أنّه يجهل طبيعة الروح ، وقد يستمر هذا الجهل إلى الأبد] . (١)

ومن هذه الإعترافات نصل إلى أنّ العلم البشري قاصر عن ارتياد هذا العالم والإجابة على أسئلة النفس البشريّة هذه ، وذلك لأنّ هذا العالم هو عالم الغيب الذي تقصر وسائل الإنسان المحدودة من حس ، وعقل عن إرتياده ، ومعرفة الإجابة عن تلك الأسئلة (*) ، وبذلك يثبت لنا أنّ الوحي الصادق المعصوم هو السبيل الوحيد لتزويد الإنسان بالمعرفة الحقيقية هذه ، وقد اعترف بذلك الغربيون أيضاً . **يقول « الكسس كاريل » مقرراً هذه الحقيقة :**

[الدين وحده هو الذي يقدّم لنا حلاً كاملاً لمشكلة البشرية ، فقد أجاب الدين المسيحي عن أسئلة النفس البشرية بصورة محدّدة ونجح طوال قرون عديدة في تهدئة حب الإطلاع القلق الذي شعر به بنو البشر دائماً أمام مصيرهم ، وقد أمكن للإلهام الديني ، والوحي الإلهي ، والإيمان أن تمنح السلام ، واليقين لأسلافنا] . (٢)

فالدين ولا سيّما الدين الصحيح هو وحده القائد إلى ما فيه سعادة النفس البشرية .

---

(١)المرجع السابق صـ ١٧٥ .

(*)سبق بيان قصور معرفة الحس والعقل في الفصل الأول من الباب الثاني صـ .

(٢)تأملات في سلوك الإنسان صـ ١٥٦ .

المطلب الثاني

قصور العلم التجريبي عن معرفة النفس الإنسانية

إذا كان العلم التجريبي عاجزاً عن تقديم الإجابات لتلك الأسئلة الخالدة التي تلاحق الإنسان فإنّه أعجز عن وضع منهاج ليسير الناس في حياتهم على ضوئه ، وعن توضيح الخير ، والشر ، وعن وضع مبادىء السلوك الإنساني ، وذلك لأنّه عاجز عن معرفة النفس الإنسانية ، وعن معرفة ما يصلح لها ، وما يؤدّي إلى سعادتها ، فهو يعالج مسائل جزئية محسوسة ، والنفس ليست ماديّة محسوسة . وقد اعترف بهذه الحقيقة علماء أوربا حيث بيّنوا أنّ العلم قاصرٌ عن معرفة النفس الإنسانية ، وأن وسائله الماديّة لم تفلح في سبر غور النفس ، وما يصلح لها فإنّ جهلهم بهذه الناحية من الإنسان جهل مطبق ـ كما يقول الكسس كاريل :

يقول الكسس كاريل :

[وفي الحقّ لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه ، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدّسها العلماء ، والفلاسفة ، والشعراء ، وكبار العلماء الروحانيّين في جميع الأزمان فإنّنا استطعنا أن نفهم جوانب معيّنة فقط من أنفسنا ... إنّنا لا نفهم الإنسان ككل ... إنّنا نعرفه على أنه مكوّن من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا .. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة .

وواقع الأمر أنّ جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب لأنّ هناك مناطق غير محدّدة في دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة] . (١)

ويقول أيضا :

[وهناك أسئلة أخرى لاعداد لها يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر على غاية الأهمية بالنسبة لنا ، ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب .. فمن الواضح أنّ جميع ماحققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كاف ، وإن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية في الغالب] . (٢)

---

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ١٧ .

(٢) نفسه صـ ١٩ .

وهكذا سجّل العلماء قصور العلم ، وأثبتوا أنه لا يمكن أن يصل إلى رأي حاسم ، وقاطع في مسائل النفس الإنسانية، فهذه المنطقة لازالت محظورة عليه ، ولن يمكنه ارتيادها ومعرفتها .

يقول الكسس كاريل أيضا :

[إنّ هذا الكائن المألوف ، والمجهول في آن واحد الذي هو نحن لا يزال بعيداً عن متناول الوسائل العلمية فهل تستحيل معرفته ؟ أم من الممكن إدراكه بطرق أدق وأقوى من تلك التي لدينا في الوقت الراهن ؟
هذا سؤال لا نعرف له جواباً ، والواقع أنّ العلم يلوذ بالصمت التام أمام كل سؤال يتصل بأصل الروح المفكّرة ، أو طبيعتها ، أو مصيرها] . (١)

وبذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك قصور العلم التجريبي عن التوصل إلى مباديء الأخلاق ، والقيم ، لقصوره عن معرفة النفس الإنسانية ، وأصلها وما يصلح لها .
وبذلك يتهافت مذهب الوضعيِّين الذين يريدون من هذا العلم أن يضع لهم أسس الأخلاق ، ومباديء القيم التي تقوم عليها المجتمعات ، وذلك بعد أن نبذوا الدين ، وأقصوه من مجال حياتهم ، وتطلعوا إلى أخلاق تقوم على هذا العلم التجريبي ، فخيّب العلم آمالهم [فالعلوم لا تستطيع أن تحلّل الحق ، والجمال ، والسعادة ، كما أنّها عاجزة عن أن تجد تفسيراً لظاهرةالحياة ، أو وسيلة لإدراك غايتها ، بل إنّ العلوم أشدُّ عجزاً عن أن تثبت عدم وجود الله تعالى ، إن العلوم مهتمة بتحسين نظرياتها ، وهي تحاول أن تكشف عن كنه الحقيقة ، ولكنها كلما إقتربت من هذين الهدفين زاد بعدها عنهما] . (٢)
وكذلك فقد أثبت العلماء الغربيون المنصفون أنّ العلم لا يمكنه أن يصل إلى اليقين

(١)تأملات في سلوك الإنسان صـ ١٥٧ .

(٢)ايرفنج وليام نوبلوتشي : أستاذ العلوم الطبيعية حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة ايووا نقلاً عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم صـ ٥١ .

والحقيقة في المسائل التي يعالجها ، وهي حتماً تتأثر بخيال الإنسان ، وأوهامه .

يقول ميريت كونجدن (*) :

[إنّ العلوم حقائق مختبرة ، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان ، وأوهامه ، ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته ، وأوصافه ، واستنتاجاته ، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود فهي مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ ، وهي تبدأ بالإحتمالات ، وتنتهي بالإحتمالات كذلك ، وليس باليقين ، ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس ، والمقارنات ، ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف ، وليست نهائية ، وإننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول : < إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجدُّ من التعديلات >] (١)

فإذا كان العلم لا يمكنه الوصول إلى اليقين في علوم الحياة المادية فكيف يطلب منه الوضعيّون وضع مبادىء الأخلاق ، وقيمها ؟ وكيف يرضون لأنفسهم أن يسيروا في أهم ما يتعلق بحياتهم على أمور لا سبيل للعلم ـ مهما ارتقى أن يصل فيها إلى اليقين والحقيقة ؟

يقول أحد الذين كانوا مغترين بالعلم ، وقدرته المطلقة على الإحاطة بكل شيء وهو « بول كلارنس ابرسولد » (**) :

لقد كنت عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني وبقوة الأساليب العلمية إلى درجة جعلتني أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أية مشكلة في هذا الكون ، بل على معرفة منشأ الحياة والعقل ، وإدراك معنى كل شيء ، وعندما تزايد علمي ، ومعرفتي بالأشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان تبيّن لي أنّ هنالك كثيراً من الأشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً ، أو تكشف عن أسرارها النقاب ، وتستطيع العلوم أن تمضي مظفّرة في طريقها ملايين السنين ، ومع ذلك فسوف تبقى كثير من المشكلات حول تفاصيل

(*) عالم طبيعي وفيلسوف حاصل على الدكتوراة من جامعة بورتون أستاذ بكلية تريني بفلوريدا .

(١) الله يتجلى في عصر العلم صـ ١٦ .

(**) أستاذ الطبيعة الحيوية حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة كاليفورنيا .

الذرة ، والكون ، والعقل كما هي لا يصل الإنسان إلى حل لها ، أو الإحاطة بسرها] . (١)

فعلى لسان علماء أوربا التي أصبحت قبلة للمستعبدين لها من أبناء المسلمين توالت هذه الإعترافات منهم لتؤكد ، وتثبت ما بيّنه الإسلام لنا من أنّ العقل البشري ، وما ينتجه من علوم ، ومكتشفات لا يمكنه أبداً أن يصل إلى اليقين ، والى الحقيقة التي يطمئن إليها قلب الإنسان ، ويعيش في ظلها سعيداً ، راضياً بما قسم له ربه في هذه الحياة ، مستهدياً بهديه الذي أرسله على لسان رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم للكاتب المذكور صـ ٣٦ .

المطلب الثالث

أمثلة من خلال العلم التجريبي في مجال الأخلاق

إن من التعاليم السماوية الخالدة التي أكدتها الرسالة الخاتمة على لسان سيدنا محمد ﷺ المساواة بين البشر .

يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . (١)

ولكن البشرية على طول تاريخها عرفت ألواناً من التمييز ، والتفرقة بين البشر على غير هذا الميزان ، وإنما على أساس موازين جائرة زيّنتها لهم عقولهم القاصرة ، فمارسوا ألواناً بشعة من الظلم ، والتعدي على إخوانهم من البشر .

ولعل من أقسى صور التفرقة بين البشر التي عرفها التاريخ نظام الطبقات في الهند الذي كان ، ولا يزال يقسم الناس إلى طبقات أربع تتمايز فيما بينها . **هذه الطبقات هي :**

١ ـ البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين .

٢ ـ شتري : رجال الحرب .

٣ ـ ويش : رجال الزراعة والتجارة .

٤ ـ شودر : رجال الخدمة .

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

[إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشتري من سواعده ، وويش من أفخاده ، والشودر من أرجله ، ووزّع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم ، فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطي الصدقات ، وعلى الشنزي حراسة الناس ، والتصدق ، وتقديم النذور .. وعلى ويش رعي السائمة ، والقيام بخدمتها .. وليس لشودر إلاّ خدمة هذه الطبقات الثلاث] . (٢)

---

(١) الحجرات آية ١٣١ .

(٢)نقلاعن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوي صـ ٥١ .

فهذا القانون الجائر يفرّق بين أبناء الشعب الواحد باسم الدين تفرقة جائرة فيعلّي من طبقة البراهمة حتى يجعلهم في مكانة عالية في المجتمع ، ويحطُ من طبقة الشودر أو الأرقاء إلى درجة أنّه [لو أنصت رجل من طبقة الشودر إلى تلاوة الكتب المقدسة إمتلأت أذناه بالرصاص المعهود < هكذا تــقول كتب القانون البرهميّة > وإن تلاها هو انشقّ لسانه ، ولو حفظ شيئــاً منها قطع جسده نصفين] . (١)

وهذه التفرقة بين البشر لا زالت في عصر التقدم العلمي الذي يتشدّق أهله بأنّه هوالوحيد الذي سيقدّم لهم حلولاً لكافة المشكلات التي تعترض حياتهم ، وهو الوحيد الذي سيكفل سعادتهم .

إن التفرقة العنصرية التي يمارسها الغرب باسم العلم أقسى من التفرقة التي يمارسها الهنود خلال النظام الطبقي .

إنّ الغرب اليوم يتستر بستار العلم في ممارسة أقسى ألوان التعذيب ، والتنكيل بالشعوب المستضعفة ، والمغلوبة على أمرها ، إنّ التفرقة العنصرية اليوم قد لبست ثوب العلم ، وظهرت للناس في صورة نظريات علميّة لتخدع الناس ، وتؤكد لهم أنّ العلم هو الذي يقرر ، وأن التجارب والدراسات العلميّة ــ هي التي وصلت إلى هذه النتيجة ، وهكذا فقد أخضعوا العلم لمآربهم ، وأهوائهم الشخصية ووجّهوه وجهةً فاسدة .

وصدق القائل حين قال :

[نحن ندّعي أننا نعيش في عصر العلم ، إلا أنّ الحقيقة هي أنّ الميدان العلمي كما يُدار الآن ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان] . (٢)

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ من المجلد الأول صـ ١٦٦ .

(٢) رينيه دوبو : إنسانية الإنسان صـ ٣١ .

وهكذا بشهادة علمائهم أنفسهم نرى أنّهم يوجّهون العلم وجهةً فاسدة ، ويستغلونه لمصالحهم ومآربهم .

إنهم يستغلون النظريات التي يصل إليها علماؤهم في التعدّي على حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها ، وسلب حرياتها ، ونهب خيراتها ، دون رادع من ضمير ، ولا خلق .

ومن هذا الشأن « نظرية دارون » التي تقول بأنّ البقاء للأصلح ، وتّدعي أنّ هذا هو قانون الطبيعة .

إن هذه النظرية لقيت قبولاً واسعاً عند الغربيين كما يقول علماؤهم أنفسهم.

يقول « جوان كوماس » :

[رحّب البيض أشد الترحيب بنظرية « دارون » الخاصة ببقاء الأصلح ، واعتبروها قضية تؤيد ، وتدعم سياسة التوسّع والعدوان على حساب الشعوب المنحطّة ، وقد جاءت نظرية « دارون » في الوقت الذي كانت الدول الكبرى فيه منشغلة بتأسيس إمبراطوريتها الإستعمارية فساعدت الرجل الأبيض على تبرير أعماله بالنسبة لنفسه ، وأمام غيره من بقية البشر ، وبناءً على ذلك ، إعتقد البيض أن الإستعباد ، أو إفناء المجموعات البشرية المنحطّة بواسطة الرصاص الأوربي ليس إلاّ تنفيذا لنظرية إستبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة ، وقد استغلت النظرية العنصرية في مجالات السياسة الدولية لتبرير الأعمال العدوانية لأن المعتدي قد تخلص بواسطة هذه النظرية من كل الإعتبارات الإنسانية تجاه الأجانب الذين ينتمون إلى الأجناس المنحطّة التي كانت توضع في مصاف الحيوان أو أعلى منه قليلاً . وقد مارست الشعوب في نزعتها مع بعضها البعض فكرة أن للأقوى ـ بفضل تفوقه من الناحيتين البيولوجية والعلمية ـ الحقّ في تحطيم الأضعف .] (١)

يقول المؤلف نفسه :

[قد اضطرت النظريات العنصرية المعاصرة أن تختفي وراء قناع علمي ، وقد جاء ذلك بعد أن أدت الإكتشافات العلمية والتقدم الفني التكنولوجي إلى تحطيم كل

(١)خرافات عن الأجناس صـ ١٠ .

الخرافات الخاصة بالأجناس في نظر الجمهور ، ومن ثُم كان لابد للنظريات العنصرية في القرن العشرين أن تبدو كأنها مبنيّة على أسس علمية حتى لو أدى ذلك إلى إقامة هذه النظريات على أساس أقبح المغالطـــات والتناقضات العلمية] . (١)

إن هذه الإعترافات تصدر من علمائهم أنفسهم ، إنهم يعترفون فيها بأنهم يديرون العلم ، ويوجِّهونه لخدمة مصالحهم ، وأغراضهم وأنهم في سبيل تحقيق هذه المصالح والرغبات لا يبالون بإبادة الشعوب المستضعفة المغلوب على أمرها ، إنهم يرتكبون أبشع الجرائم في حق هذه الشعوب باسم العلم ، فهم يبيدون شعوباً بأكملها مستخدمين ما أنتجه من مواد ، وأسلحة فتاكة ، ولا رادع ، يردعهم عن هذه الجرائم بعد أن تخلوا عن الدين ، ولم يعودوا يستمعون إلا لصـــوت مصالحهم وفهمهم ، هذا الفهم القاصر الذي وجَّهَ نشاطهم وجهةً فاسدة لم تجنِ منها الإنسانية سوى الشقاء والدمار .

إن هذه النظريات التي ترتدي مسوح العلم ، والتي يتسترون وراءها ، ويُخفون بها نزعاتهم الشريرة يريد بها المفسدون في الأرض أن يزيلوا أيّ شعور بالندم ، أو الخطيئة في نفوس قادتهم ، وحكامهم وهذا ما اعترف به « جوان كوماس » **إذ يقول :**

من الناحية النفسية نرى أن الشعور بالذنب يزول إذا أسبغ على العدوان رداء من المظهر العلمي في شكل نظرية تُثبت أن الجماعة التي وقعت فريسة العدوان « كبش الفداء » جماعة منحطّة ، أو مؤذية وعادةً نرى أنّ مثل هذا العدوان يوجَّه إما إلى الأقليات ، وإما ضد مجموعات كبيرة من المستعبدين الضعفاء] . (٢)

---

(١) المرجع السابق صـ ٩٤ .

(٢) المرجع السابق صـ ١٤ .

وبعد . فهذه حضارة العلم تُرتكب فيها أبشع الجرائم في حق الشعوب المغلوبة على أمرها ، ففي ثوان معدودة يمكنهم إبادة الملايين من البشربما أنتجته عقولهم الشريرة من أسلحة فتّاكة ، مدمِّرة ، فهم يبيدون أمماً في ثوانٍ ، ويحطمون حضارات ، ودول دون أن يستيقظ ضميرهم ، أو يستنكر ما يقومون به من جرائم ، فالنظريات العلمية تُسبِغ رداءها العلمي على هذه الجرائم ، وتجعلهم يمضون في غيهم وضلالهم إلى درجة أنّهم جعلوا هذه الشعوب المستضعفة ميداناً وحقلاً للتجارب ، فهم يجرِّبون فيها ما أنتجوه من أسلحة مدمِّرة ، ويبيدون الأمم ، ويهدمون المدن على رؤوس أصحابها دون أن تستيقظ مشاعرهم ، أو قلوبهم بالرحمة أو الشفقة على هؤلاء المنكوبين .

وبعد هذا كله ينادون أن يكون للعلم وحده حق توجيه الحياة ، وحق وضع المباديء والقيم ، بل بلغت السخرية بعقول الناس أن يتجرأ علماؤهم أمثال « أوجست كونت » ويضع ديناً للبشرية جمعاء ، وكأنَّ الأديان من وضع البشر !!

إن الدين ، والأخلاق لا يمكن أبداً أن يكونا من وضع العقول البشرية القاصرة مهما بلغت من تقدمٍ ، ورقي .

وقد رأينا الدليل على أن العقول البشرية هي التي توجِّه العلم إلى الوجهة التي تريدها ، والعقول البشرية كما عرفنا (*) قاصرة عن إرتياد هذا المجهول لأنه عالم الغيب المحيط بها من كل مكان ، ولابد لمن يضع الأخلاق أن يكون عالماً بكل دقيقة وجليلة عن هذا الكون ، وعن النفس الإنسانية ، وما يؤدِّي إلى صلاحها ، وسعادتها ، وليس هذا كله إلا لله سبحانه وتعالى . وبذلك يتبيِّن لنا خطر المدرسة الوضعيّة حين أرادت أن تخضع الإنسان للدراسة العلمية ، وأن تستخدم المنهج العلمي الإستقرائي في دراسته ، وذلك حتى تصل إلى معرفة الأخلاق التي تتناسب معه ، وحتى يمكن بعد ذلك أن يضع لهم العلم مباديء أخلاقية علميةً يسيرون على ضوئها في حياتهم ولكن العلم خيبَّ آمالهم ، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك عجزه ، وقصوره عن ذلك ، مما أدى إلى شيوع التشاؤم فيما بينهم .

(*)أنظر فصل نقد موقف المدرسة التجريبي ة من العلم والدين .

يقول رينيه دوبو :

[التشاؤم الجديد نابع في الغالب من عدم ارتياح الرأى العام لدى إدراكه إنّ العلم لا يستطيع أن يحل كل المشاكل الإنسانية] . (١)

ويقول أيضا :

[تواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء ، أو بدايات الزمن ، أضف إلى ذلك أن الإنجازات العلميةَّ تثير بصورة عامة مسائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم ، ويشيرون إلى أنّ العلم ، والتكنولوجيا أدوات ، ووسائل ليس لها أخلاق ، ويمكن استعمالها لخير البشرية أو لدمارها ، والإعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشاكل العلمية أمر يكذبه الوعي المتزايد بأنّ تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة] . (٢)

فالعلم إذاً أداة ليس لها أخلاق ، ولكن الإنسان هو الذي يوجِّهه وجهةً أخلاقية لكي يحقق سعادة البشريّة .

والمفسدون في الأرض هم الذين ينادون بجعل السيادة لهذا العلم ، ويخدعون الناس بما حقّقه من تقدم في المجالات المادية ، ويزعمون أنّ تطبيق المنهج العلمي على علوم الإنسان هو الذي سيوصلهم إلى المجد ، وإلى تحقيق التقدم في جميع مجالات الحياة ، ونسوا أن الإنسان ليس مادة تخضع للتجارب والبحوث كما تخضع العلوم الطبيعية ، فلم يصلوا إلاّ إلى الضياع ، والإنحدار إلى الهاوية وصدق اللهالعظيم : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٣)

---

(١) إنسانية الإنسان صـ ٤٦ .

(٢) نفسه صـ ٢٢٠ .

(٣) سورة الإسراء آية ٩ .

ومن ذلك نصل إلى أن العلم لن يمكنه أن يضع أخلاقاً ، ولا أن يضع مقياساً خلقياً يميز الناس على ضوئه بين الخير ، والشر ، والحق ، والباطل لأنّه قاصر عن ذلك أصلا .

أحب أن أشير هنا إلى ما لاحظته من الثناء الذي كاله مترجم كتاب « ليفي بريل » ‹ الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية › وهو الدكتور ‹ محمود قاسم › لصاحب الكتاب فهو يشيد ‹ بليفي بريل › ويقول إنّ الذي دعاه إلى ترجمة كتابه هو أنه وجد أن بلادنا العربية ينقصها تطبيق المنهج العلمي الإستقرائي على الظواهر الإجتماعية ، والعلوم الإنسانية ، وأنه وجد في كتاب ‹ ليفي بريل › دعوة صريحة لتطبيق هذا الأسلوب على العلوم الإنسانية .

يقول في مقدمة ترجمته للكتاب ما نصه :

[يعد كتاب « الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية » ثورة كبرى في هذا النوع من الدراسات ، وهو أصدق تعبير عمّا يطلق عليه الآن إسم « مذهب الوضعيين في دراسة الأخلاق » ، ومن هذا الإسم يتبين لنا أنه من مدرسة « كونت » و « دوركايم » اللذين أرادا تطبيق منهج البحث في العلوم التجريبية على دراسة الظواهر الإجتماعية : من تاريخ ، واقتصاد ، وأخلاق ... وربما كان اهتمام « ليفي بريل » بتطبيق المنهج الإستقرائي على دراسة الأخلاق هو أحد الحوافز الكبرى التي دفعتني إلى اقتراح ترجمته على وزارة المعارف ... لاعتقادي أن أى تقدم في الشرق وفي الثقافة العربية لن يكون أمراً حقيقياً إلا بتعديل نظرتنا إلى طرق البحث وأساليبه تعديلاً شاملاً ، بل ثورياً في بعض الحالات ومن الممكن أن نعدّ هذا الكتاب « منهجاً للبحث في علم الأخلاق »] انتهي بنصه صـ (د) من الترجمة.

ومن هذا يتضح لنا مدى تحمس المترجم وهو دكتور وأستاذ في جامعة القاهرة ـ لتطبيق المنهج العلمي الإستقرائي على دراسة الأخلاق دون أن يلحظ ما

في هذا المنهج ، من خطورة في تطبيقه على الأخلاق فنحن المسلمين لا نستقي الأخلاق ، ولا ندرسها من واقع الناس في حياتهم ، بل الأخلاق في الإسلام تكليف من الله سبحانه وتعالى ، ونحن نأخذ الأخلاق من ديننا الإسلامي الحنيف ، ولا نحتاج إلى تطبيق المنهج المستخدم في دراسة العلوم المادية على العلوم المتعلقة بالإنسان ، لأننا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان كائناً متميزاً عن غيره من المخلوقات ، فهو مخلوق كريم على الله ، وإن حاول الغربيون إنزاله عن كرامته ، وتسويته بالجماد ودراسته بنفس المنهج الذي تدرس به علوم المادة .

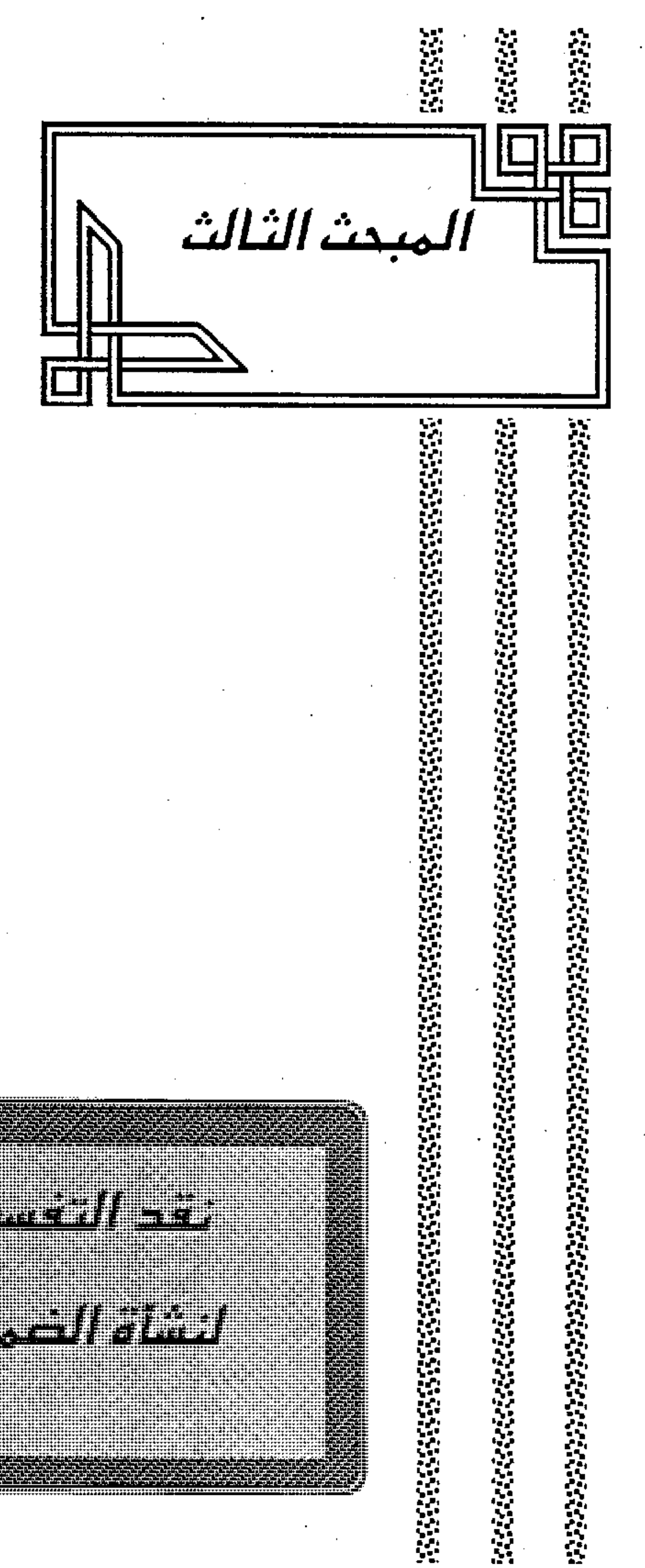
والواقع أن أكثر كتب علم الإجتماع المؤلفة بالعربية أو المترجمة ــ إن لم تكن جميعها ــ تنضح بهذه السموم التي دسها الغرب علينا ، وحملها علماؤنا إلى بلادنا الإسلامية دون تمييز بين مايصلح لنا ، وما لا يصلح ، ولذلك تحتاج هذه الكتب قبل اعتماد تدريسها لأبناء المسلمين إلى فحص ، وتمييز ما يتفق مع الجانب الإسلامي مع ما لا يتفق .

وفي الواقع فإنّ دراسة « علم الاجتماع » كعلم له قواعده ، وأسسه التي يقوم عليها لاغبار عليها ، بل نحن نجد أنّ المسلمين وعلى رأسهم « ابن خلدون » رحمه الله قد سبق الإوربيين إلى ذلك ، ولكنني أرى ضرورة أن تنقى كتب علم الاجتماع العربية ، مما فيها من آراء ، ونظريات هدّامة ، وماذاك في الحقيقة إلا لأن الذين كتبوها علماء متأثرون بدراستهم الغربيـــة ، فكـــالوا « لأوجست كونت » ، و « ودوركايم » ألوانًا شتى من المديح ، والاشادة بهما مع أنهما في الحقيقة لايستحقان مثل هذا الثناء ، بل هما من أكبر المفسدين في الأرض ، وقد أرادوا تضليل الناس ، وتشويه صورة الدين في نفوسهم ، وإذا علمنا أن « دوركايم » يهودي تبين لنا غرضه الخبيث من دراساته التي أضفى عليها طابع العلم ، والموضوعية ، وهو أبعد مايكون عن ذلك ، وهو انما يعمل لتحقيق مآرب وأهداف

اليهود في إفساد الأمميين .

والواجب على علماء المسلمين أن ينتبهوا الى هذا الخطر ، الذي يغزو أفكار شباب المسلمين المتعلمين في الجامعات العربية عامة ، ويعمدوا إلى تنقية كتب الاجتماع من مثل هذه الآراء الهدامة والباطلة .

وإنني أدعو الى « علم اجتماع إسلامي » ينطلق أساساً من عقيدتنا الإسلامية ، ولايتنافى مع مايدعو اليه ديننا الاسلامي الحنيف . وفي تراثنا الاسلامي الكثير مما قدمه علماء المسلمين في هذا المجال .



المبحث الثالث

نقد التفسير الوضعي لنشأة الضمير الأخلاقي

المبحث الثالث

نقد التفسير الوضعي لنشأة الضمير الأخلاقي

الإسلام دين الله تعالى ، ووحيه المنزَّل على رسوله ﷺ والمبلَّغ كما نزل للعالمين يبيّن الحقيقة للناس ، ويضعها جليةً أمام العقول ، والأفهام .

والوحي هو المصدر الصادق يوضّح الحقائق الغيبيّة ، ويفسر القضايا التي لا يدركها ولا يحيط بها العقل ، ولذا كانت ضرورة الإيمان بها لإشباع الفطرة ، ولإرشاد الإنسان ، وإنقاذ البشرية من ضلالات الهوى ، وإبعادها عن شطحات العقول ، وتخيلاتها ، وأوهامها ، وبخاصة حينما تحاول السير في أمور فوق طاقتها ، أو تحلل أموراً لم تضعها في موضعها الصحيح .

والمدرسة الوضعيّة بنت آراءها جميعاً على أساس باطل حيث ذهبت إلى أنّ التصديق بالغيب خرافة ، وأسطورة ، وأنكرت الوحي طريقاً للمعرفة ، فأرجعت المعارف إلى الحس والواقع فقط ، وفسَّرت سبب الموجودات بالمحسوس وحده ، وهذا هو مكمن ضلالها .

إن الله خالق كل شيء ، وموجد كل وجود ، والمؤمنون يُصدِّقون بهذه الحقيقة التي وضّحها الوحي ، وأكدتها الآيات المبثوثة في الكون ، والحياة جميعاً .

يقول الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .(١)

ويقول تعالى :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ . (٢)

---

(١) البقرة . آية ٢١ .

(٢) الأنعام آية ١٠٢ .

وفي هذه الآيات وفي آيات أخرى غيرها يحفل بها القرآن الكريم قرر الله سبحانه وتعالى أنه سبحانه وحده الخالق ، ولا خالق سواه ، فهو الذي خلق السموات والأرض ، وخلق كل ما في هذا الكون الشاسع من مخلوقات عظيمة أو حقيرة ، كبيرة أو صغيرة ، فهو وحده الخالق ، ولا خالق سواه .

وآيات الله المبثوثة في هذا الكون الشاسع شاهدة على ألوهيته سبحانه وربوبيته .

قال الله تعالى :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج ﴾ . (١)

وقال تعالى أيضا :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ . (٢)

وقال تعالى :

﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ . (٣)

وقال الله تعالى :

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ . (٤)

---

(١) ق آية ٦ .

(٢) آل عمران آية ١٩٠ .

(٣) الأنبياء آية ٣٢ .

(٤) فاطر آية ٤١ .

وقال تعالى :

﴿ خلق السموات بغير عمدٍ ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبثَّ فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ . (١)

وهكذا حيثما نظرنا في هذا الكون البديع فإننا نجده كله آيات ناطقة بعظيم قدرته تعالى ، وكمال علمه ، وعنايته بهذا العالم ، فمما لا شك فيه أنَّ الطبيعة المحسوسة لا يمكن أن تكون خالقةً لأن الشيء لا يُوجد نفسه ولا يكون فاعلاً ومنفعلاً في وقت واحد ، كما أن الصدفة لا تتكرر ولا تصنع كل هذه المخلوقات العجيبة .

إن الحقيقة الثابتة المطلقة هي أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل الكائنات وهو رب العالمين ، وله الأمر والحكم ، وإليه المرجع والمصير .

﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ . (٢)

والضمير ــ كما عرفنا ــ هو قوة في باطن الإنسان تحثُّه على فعل الخير ، وتشجعه عليه ، وتحذِّره من فعل الشر ، وتنهاه عنه ، وإذا امتثل لأوامرها أحسَّ بالإرتياح والسرور وإن عصاها أحسَّ بالتأنيب والندم .

والمدارس اللادينية تفسِّر هذا الضمير تفسيرات شتَّى ــ كما رأينا عند عرض وجهات نظرهم ــ حيث يربطونه بالعاطفة أو العقل ، أو بالتجارب وذلك كله خطأ لا صواب فيه ، وأساس الخطأ أن أصحاب المذاهب يعيشون مع الضمير كقوة من قوى الإنسان مجردة عن سببها ، ويفسِّرون النشأة بأحد جوانب هذه القوة [الضمير] .

---

(١) لقمان آية ١٠ .

(٢) الأعراف آية ٥٤ .

وجهلوا أن الوجدان ، والعاطفة ، وما يظهر منها من حب ، ورضا أو كراهية وعزوف .. وهكذا .. أحد وظائف الضمير ، وجهلوا أيضا أن التفكير ، والتدبير ، والتخيّل ، والإستنتاج أثر للضمير والعقل .

وجهلوا كذلك أنّ الضمير يوجد قبل العمل والتجربة فكيف يكون أثراً لما وُجِد بعده ؟

ولو تساءل هؤلاء الناس عن جوهر الضمير وحقيقته عن : ماهو ؟ وممّ يتكون ، وكيف يعمل ؟ وكيف يستريح ؟ لو عاشوا مع هذه التساؤلات ، وأدركوا عجزهم عن معرفة أجوبتها لعلموا مدى علمهم ومعارفهم .

إنهم لا يتكلمون عن جوهر الضمير ، ولا يتصورون حقيقته ، وإنما يعيشون مع بعض وظائفه ، وقواه ، ويتصورونها الضمير ، ويبنون القول بنشأتها على أساس هذا الموقف .

إن الإسلام يوضِّح الحقيقة ، ويبيّن أن الضمير من خلق الله سبحانه وتعالى أوجده في الإنسان بعد أن لم يكن .

فالله سبحانه وتعالى هو خالق الضمير للإنسان ، وكل قوى الإنسان ، ومداركه هي من خلق الله تعالى .

وبهذا التوضيح يبطل قول من قال إن الإنسان يكتسب ضميره من حياته العملية وتجاربه في إطار الجماعة التي يعيش فيها وهو رأي الوضعيّين كما رأينا .....

فلو كانت التجارب الإجتماعية هي التي توجد الضمير ـ كما يقولون ـ فلِمَ يتعارض أبناء المجتمع الواحد في نظرتهم للشيء الواحد وتصرفاتهم الخلقية إزاء الموقف الواحد ؟ مع أنّهم أبناء بيئة إجتماعية واحدة ؟

إنّ عقل العاقل ، وإدراكاته جميعاً من خلق الله، وعطائه ، وضلَّ من قال بغير ذلك .... ولو سُلِب العقل عن شخص ما فإننا نراه لا يعي شيئاً ويتصرف بلا إدراك وبلا هدف .

وأين تذهب قوى الإدراك ـ ومنها الضمير ـ والإنسان نائم لا أحد يعرف أين يذهب ؟.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق للإنسان قواه ، ومداركه ، ولا يمكن للمجتمع أن ينشيء شيئاً ليس موجوداً أصلاً .

والإسلام يقرر أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان إستعداداً فطرياً يمكنه بواسطته التمييز بين الخير ، والشر ، وهذا ما يمكن أن نفهمه من مثل قول الله تعالى :

﴿ ونفسٍ وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها ﴾ . (١)

يقول أبو السعود ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى :

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾

[أي أفهمها إيّاهما ، وعرفها حالهما من الحسن والقبح ، وما يؤدي إليه كل منهما ، ومكنها من إختيار أيّهما شاءت] . (٢)

وقال الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى :

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾

[أي بيّن لها ما ينبغي لها أن تأتي ، وتذر من خير أو شر ، أو طاعة أو معصية]

وقد استشهد على ذلك **بقول ابن عباس رضي الله عنه بأنّ المراد بقوله تعالى :**

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ـ [أي بيّن الخير والشر] . (٣)

---

(١) الشمس من آية (٧ – ١٠) .

(٢)تفسير أبو السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ٩ صـ ١٦٤ دار احياء التراث العربي .)الشمس آية ٧ـ ١٠ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن المجلد ١٢ جـ ٣٠ صـ ١٣٤ .

يقول « سيد قطب » ـ رحمه الله ـ :

إن الإنسان خلق وهو : [مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، فهو قادر على التمييز بين ماهو خير ، وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير ، وإلى الشر سواء ، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه يعبِّر عنها القرآن بالإلهام تارة﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾..ويعبر عنها بالهداية تارة ﴿ فهديناه النجدين ﴾ ـ فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد ، والرسالات ، والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الإستعدادات وتشحذها ، وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقاً لأنها مخلوقة فطرةً ، وكائنة طبعاً ، وكامنة إلهاماً .

وهناك إلى جانب هذه الإستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجِّهة في ذات الإنسان هي التي تناط بها التبعة ، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها ، وتنمية إستعداد الخير فيها ، وتغليبه على إستعداد الشر فقد أصلح ، ومن أظلم هذه القوة ، وخبأها وأضعفها فقد خاب :﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها ﴾] (١)

فالله سبحانه وتعالى قد زوَّد الإنسان بقوة واعية فاهمة ، وإلى هذه القوة الفاهمة في الإنسان يتجه القرآن بالخطاب .

وهذه القوة هي التي أسماها الأوربيّون حديثاً بالضمير ، وإن كان معناها معروفاً ـ قبل أربعة عشر قرناً ـ لدى المسلمين .

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بين فيه أن في قلب المؤمن واعظ يأمره وينهاه ·

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٦ صـ ٣٩١٧ ـ ٣٩١٨ .

(٢) صحيح من طريق أم سلمه ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١٧/١

« وفي الترمذي وغيره حديث النواس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

« ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو من فوق الصراط ، فالصراط المستقيم هو الاسلام ، والستور حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادي – أو كما قال – ياعبد الله : لاتفتحه فإنك إن تفتحه تلجه ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في « قلب كل مؤمن » .

قال ابن تيمية رحمه الله شرحاً للحديث « فقد بين أن في قلب كل مؤمن واعظ ، والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب ، فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر ، كما قال تعالى : (نور على نور) (١)

وكذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان حين سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال { **البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس** } .(٢)

فالضمير يرتاح لفعل الخير ، ويثيب فاعله بالرضا ، والطمأنينة ، ويعاقب مرتكب الشر بالتأنيب ، والتوبيخ .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيميه : جـ ١٠ ، ص ٤٧٥ ، مكتبة ابن تيميه للطباعة والنشر

(٢)مسند الإمام أحمد جـ ٤ صـ ٢٢٧ عن طريق وابصة بن معبد وكذلك في صحيح مسلم كتاب البر والصلة جـ ٤ باب ٥ تفسير البر والإثم حديث رقم ٢٥٥٢ صـ ١٩٨٠.

وإلى هذه الحقيقة أشار الله تعالى بقوله :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ . (١)

فالنفس المطمئنة هي التي شعرت بالطمأنينة في رحاب الله ، واطمأنت إلى قدر الله بها ، فهي مطمئنة فلا تنحرف ، ولا تضل .

أما قوله تعالى :

﴿ ولا أقسم بالنفس اللوَّامة ﴾ . (٢)

أى النفس التي تلوم صاحبها على تقاعسه ، وتقصيره في عمل الخير .

وهكذا اتضح لنا أنَّ « القرآن الكريم » أشار إلى معاني الضمير ، وآثاره بألفاظ عديدة كالنفس المطمئنة ، والنفس اللوَّامة ، والبصيرة ، والقلب والفؤاد .

وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى ضرورة محاسبة النفس فقال :

« محاسبة النفس حتى تعرف مالها ، وماعليها ، ولايدعها تسترسل في الحقوق استرسالاً ، فيضيعها ويهملها .

وايضًا فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها ، فلا تزكو ، ولاتطهر ولا تصلح البتة إلا بمحاسبتها .

قال الحسن رضي الله عنه : إن المؤمن – والله – لاتراه إلا قائمًا على نفسه ، ما أردت بكلمة كذا ؟ ، ما أردت بأكلة ؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا ؟ ما أردت بهذا مالي ولهذا والله لا أعود الى هذا ونحو هذا الكلام ، فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها ، فيمكنه السعي في اصلاحها » (٣)

---

(١) الفجر آية ٢٧ .

(٢)القيامة آية ٢ .

(٣) مدارج السالكين : ابن قيم الجوزية جـ ٢ ، ص ٥١٠ – ٥١١ تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي .

ومع تقرير الإسلام « للضمير » إلاّ أنه بيّن لنا أن هذا الضمير ليس معصوماً من الخطأ ـ كما تصوّر الفلاسفة الأوربيّون ـ فالضمير معرض للخطأ ، والضلال فهو يفسد بالبيئة الفاسدة ، ونتيجة للهوى ، والعادات الفاسدة ، وغير ذلك من العوامل .

ولذلك فإنّ الضمير لابّد أن يخضع لتوجيهات الدين ، وتعليماته ، وذلك طاعة لله الخالق العظيم ليتحقق بذلك الفوز في الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى :

﴿ وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾. (١)

ويقول تعالى :

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ . (٢)

ويقول تعالى أيضا :

﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ . (٣)

وعلى ضوء ما قرره الإسلام يمكننا تبيّن ما وقع فيه الأوربيون من خطأ وضلال حين اعتبروا « الضمير » قوة فطرية معصومة من الخطأ . (٤)

ولذلك فإن الذين اتخذوا « الضمير » مقياساً أخلاقياً بعد أن نبذوا الدين وراءهم وقعوا في الضلال ، والإنحراف ، وما ذاك إلاّ لأنّ الضمير متأرجح ، ومتقلب حسب الأشخاص ، والبيئات ، والثقافات ، فلا يمكن أن يُرجَع إليه في أمر الأخلاق .

---

(١) النازعات من آية ٣٩ ـ ٤١ .

(٢) الليل من آية ٥ ـ ١٠ .

(٣) طه آية ١٢٣ .

(٤) أنظر فصل الإنسان والضمير الخلقي صـ

ولذا فإنّ الموقف الحقّ بالنسبة للضمير هو ما قرره الإسلام ، وهو أن الضمير يخضع لتوجيه الدين ، وإرشاده ، وتوجيهه ، وهيمنته ، وإلاّ ضل وتنكب عن الصراط المستقيم .

وفي الحقيقة فإن الإسلام لم يهمل أمر « الضمير » بل بالعكس قد اهتم به اهتماماً كبيراً ، وأنزله منزلته التي يستحقها ـ كما وضح ذلك المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز (١)

فمع تقرير الإسلام أن « الوحي » هو المصدر المهيمن على الضمير ، والموجه له فقد اعترف بسلطة الضمير متى اتضح له طريق الخير والشر فلا يكتفي الإسلام [بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة عارفة ، بل يجعلها آمرة ناهية وينعي على من يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان .

﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ (٢)

هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالاً للشك في وجوب الخضوع لأوامر الأحلام والعقول متى اتضح أمامها طريق الحق والخير .] (٣)

إنّ الشرع أو الوحي يأتي مؤكداً لحكم الضمير والفطرة ، ومقرراً له في الأمـــور التي لا تتعارض فيها الأنظار ، ولا يختلف فيها اثنان كحسن الصدق النافع ، وقبح الكذب الضار ، ونبل الإحسان في رد الإساءة .

---

(١) أنظر كلمات في مبادىء « علم الأخلاق » من صـ ٣٠ ـ صـ ٣٤ .
(٢) الطور آية ٣٢ .
(٣) كلمات في مبادىء علم الأخلاق : صـ ٣٠ .

أما الأمور والمسائل التي تختلط على العقول البشرية ، وهي مواضع الشبهات مثل الخمر والربا والصدق الضار والكذب النافع ... إلخ فإن الشرع يأتي فيها إمداداً لنور العقل ، وتصحيحاً لأخطائه ، وأوهامه .

والأمور التي لا طاقة للعقل في الوصول إليها فإنّ الشرع في هذه الحالة يأتي مكملاً لنور العقل ، ومتمماً له وذلك كما في مسائل العبادات ، وكيفياتها ومقاديرها .

وإلى جانب ذلك كله فإنّ الإسلام يوضّح أن نور الفطرة الذي وهبه الله تعالى للإنسان يستند إليه نور الشريعة ، ولايمكن أن يستغني عنه ، وذلك من أوجه ثلاثة وضّحها المرحوم الدكتور ـ محمد عبد الله دراز ـ وهي :

الوجه الأول : عند مطالبة المؤمنين بأداء واجباتهم الشرعيّة باعتبار أنّها ليست أوامر إلهية فحسب بل باعتبار أنها أصبحت أوامر أخلاقية بعد أن تعهدوا بها تعهدا كلياً .

كما قال تعالى :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ . (١)

الوجه الثاني : أن أوامر الشريعة في معظم شأنها أوامر عامة كليّة ولقد وكل الشرع أمر تفصيلها وتحديدها إلى تقدير الوجدان الخلقي الذي أودعه الله في كل نفس ، وفي كل جماعة بشرية ، وكثيراً ما يصرح القرآن بتفويض هذا الوجدان

---

(١) المائدة : آية ٧ .

الشخصي أو الجماعي في تحديد مقادير الحقوق والواجبات وأساليبها : « ممن ترضون من الشهداء » « رزقهم وكسوتهم بالمعروف » .

الوجه الثالث : هو أن الإسلام لا يرضى أن تنفَّذَ أوامره تنفيذاً آلياً ، بل إنّه لابدَّ قبل كل شيء أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير حتى يتشربها القلب ، ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية .

وإضافة إلى كل هذا فإن « الشريعة نفسها بعد أن بيَّنت الحلال الصريح والحرام الصريح تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف ، ويشتبه فيها الحكم ، وفوضت لكل امرىء أن يستفتي فيها قلبه ، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه أخذاً بالأحوط ، والأسلم . هكذا قضى الرسول الحكيم حيث **يقول** : { الحلال بينٌ والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشهات فقد استبرأ لعرضه ودينه } (١)]. (٢)

ولاشك أنَّ الضمير الذي يخاطبه الإسلام هو ضمير المؤمن المتقي لا أى ضمير آخر .

وهكذا رأينا مدى تكريم الاسلام للضمير الإنساني ، وإنزاله منزلته التي يستحقها في إطار الإسلام .

وتبيّن لنا خطأ المذاهب اللادينية في تصوّرها لنشأة الضمير وتفسيرها له، فالمدرسة االوضعيّة نسبت نشأة الضمير إلى المجتمع ، والمجتمع ـ كما علمنا ـ لا يمكن أن يخلق شيئاً ليس موجوداً أصلاً ، والمذاهب الأخرى اعتبرت الضمير قوة معصومة من الخطأ ، فطرية في الناس كلهم .

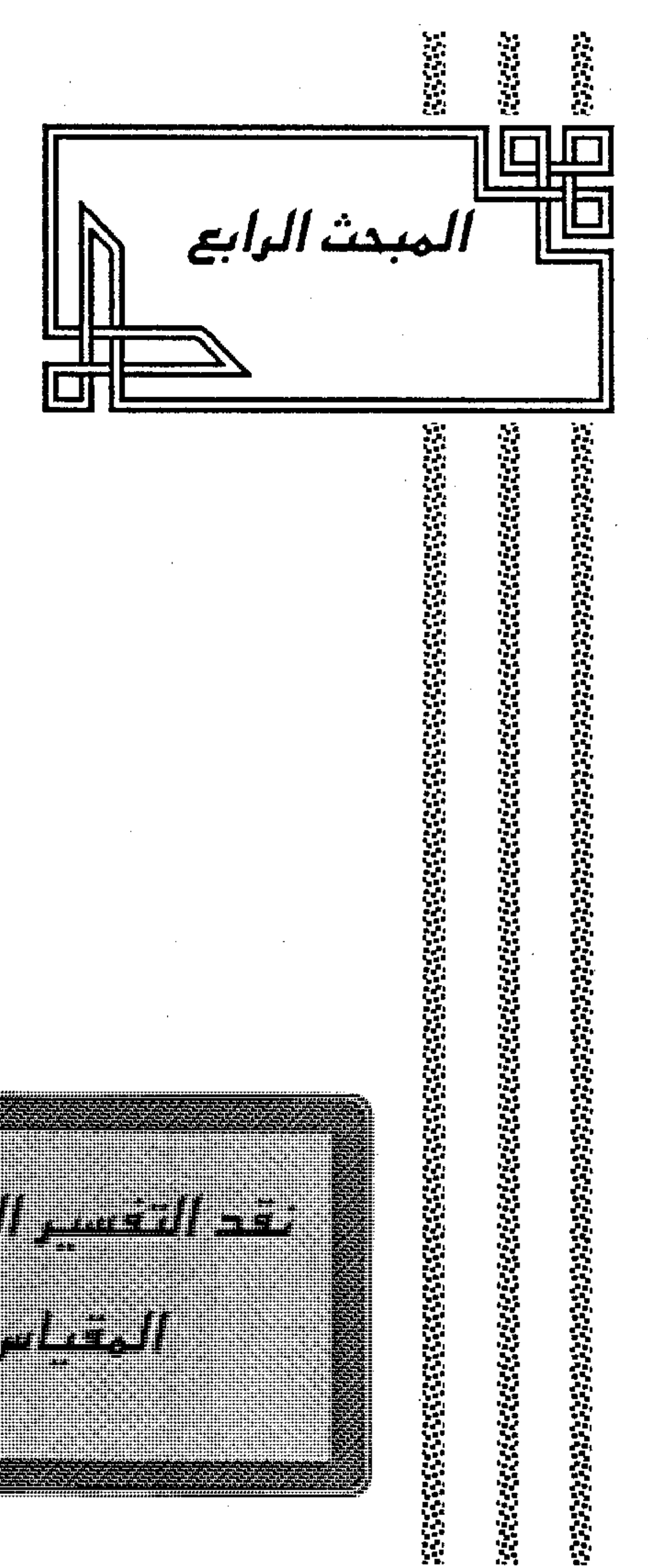
---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان باب ٣٩ صـ ١٩ جـ ١ من الكتب الستة

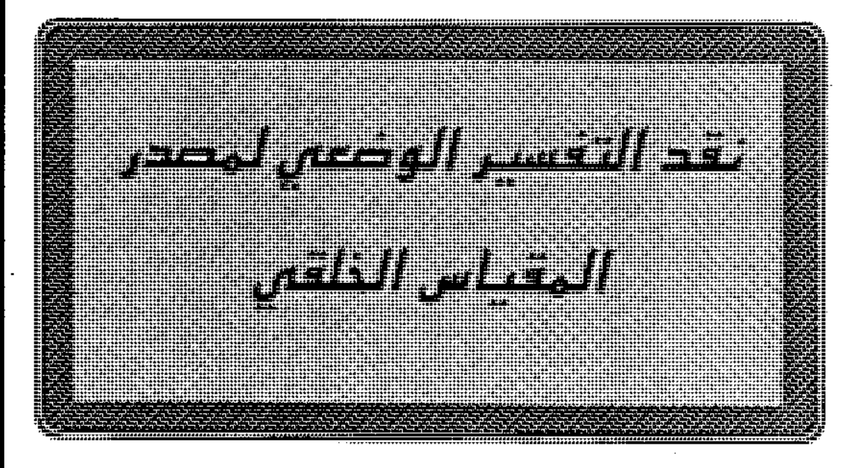
(٢) كلمات في مبادىء علم الأخلاق : محمد عبد الله دراز صـ ٣٣ .

والواقع يكذب مذهبهم فضمائر الأفراد في البيئة الواحدة تختلف من شخص لآخر ، ولو كان كلامهم صحيحاً لما كانت هناك حاجة لإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ولوكل الناس إلى ضمائرهم ترشدهم ، وتبين لهم طريق الفضيلة .

وهذا كله خطأ وضلال ، والموقف الصحيح هو موقف الإسلام الذي يعترف بالضمير ، ولكن في إطار التوجيه الإسلامي ، فالوحي هو الموجِّه ، وهو القائد ، وهو المهيمن ، وهو المربّي .



المبحث الرابع



نقد التفسير الوضعي لمصدر المقياس الخلقي

المبحث الرابع

نقد التفسير الوضعي لمصدر القياس الخلقي

لقد سبق لنا أن رأينا (*) أنّ الوضعيّين يجعلون المجتمع وحده مصدراً للمقياس الأخلاقي ، فالمجتمع عندهم هو منبع الأخلاق ، وهو الهدف ، وهو الغاية التي ينشدها الناس في حياتهم .

والوضعيّون في محاولتهم تأسيس أخلاق علميّة رأوا أنّ الأخلاق لابّد أن تستند إلى إلزام يشعر معه الأفراد بأنّهم مطالبون بالتمسك بالقيم ، والأخلاق ، وإلا انقلبت الأمور إلى فوضى ، وانعدم النظام في المجتمع ، ولما كانوا قد وصموا الإيمان بالله ، وبالغيب بأنّه وهم ، وخرافة فقد ابتدعوا فكرة « المجتمع » لتحل محل « الله » في الأديان السماوية ، فهم بذلك ـ كما يقولون ـ استبدلوا فكرة الكائن الذي يسمو عن التجربة ، والذي لا يخضع للحسّ بفكرة الكائن الذي يمكن مشاهدته ، ولكن بشرط ألاّ يتصوّر على أنه المجموع الحسابي للأفراد الذين يتكون منهم ، ويضربون لذلك مثلاً بالمركبات الكيميائية التي تنتج من تفاعل عدة مواد لها صفات معّينة ، وبعد انتهاء التفاعل ينتج مركب كيميائي جديد له صفات تختلف عن صفات العناصر التي يتكوّن منها ، ويقولون إنّ المجتمع مثل ذلك ، فهو بالرغم من أنّه يتكون من مجموع الأفراد إلاّ أنه يختلف عنهم ، وله وجود موضوعي ويمارس نوعاً من القهر على الأفراد .

وفي الحقيقة فهذه الأفكار كلها أفكار ضالة ، وهي عبث لا يثبت أمام النقد الإسلامي ، ويرفضها الإسلام جملةً وتفصيلاً ، وهي تبيّن لنا مدى التخبط الذي وصل إليه الوضعيّون ، ومدى استخفافهم بعقول الناس .

(*) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول .

ونحن بدورنا نسألهم عن هذا المجتمع ـ الذي نصبّوه إلهاً ، وجعلوه مصدراً للمقياس الخلقي ـ ماهو ؟ وكيف يمكن مشاهدته في حين أنهم يقولون إنّه وإن تكوّن من مجموع الأفراد إلاّ أنّه يختلف عنهم ، ويشبّهونه بما يحدث في المركّبات الماديّة ، ثم ينسبون إليه ما ينسبه المؤمنون إلى الله سبحانه وتعالى من صفات ـ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً .

إنّنا في الحقيقة نفهم أنّ المجتمع يتكوّن من مجموع الأفراد الذين يعيشون في رقعة من الأرض ، يشتركون في المصالح ، والمنافع ، ولكن مع اندماجهم في المجتمع فإنهم لا يفقدون شخصياتهم ، واستقلالهم ، إلا إذا حدثت موجات من الحماسة والغوغائية ، ففي هذه الحالات يندفع الناس بحماس دون تفكير ووعي ، فيفعلون ما تفعله الجماهير ، ولكنهم بعد ذلك ينتبهون إلى أنفسهم ، ويستنكرون ما فعلوه .

وخطأ « دوركايم » الواضح هو أنه اعتبر هذه الحالة الشاذة التي تحدث نادراً ، وفي حالات الجمهرة ـ قاعدة للحياة البشرية كلها ورأى أن العقل الجمعي يسيطر على الجماهير ويسيّر الأفراد فينطلقون في تلبية مطالبه ، وينفذون أوامره دون وعي أو شعور منهم ، وهو المنبع الذي يستقي منه هؤلاء الأفراد أخلاقهم ومنهاج حياتهم .

ونحن نقول له إنّ التجمهر لا يحدث بصفة مستمرة في المجتمعات حتى يُتخذ قاعدة للحياة كلها ، والأفكار التي تنتج عن هذه الإجتماعات تتسم بالغوغائية والتهور ، فكيف يجعل الوضعيون مثل هذا مصدراً لمنهاج حياتهم ؟

إن « دوركايم » في حقيقة الأمر يقول كلاماً لا يقبله المنطق ، ولا العقل السليم ، ثم يُضفي على كلامه هذا الصبغة العلمية ويسمّيه نظرية علمية ، وهو أبعد مايكون عن العلم الصحيح .

ولكن الهاربين من دين الكنيسة يتلقفون كل ما تفرزه العقول الضالة إن كان موسوماً بسمة العلم ، وأتباعهم من المستغربين يتلقون بالتسليم هذه الأقوال الضالة التافهة دون أدنى تفكير فيها .

ولو أنّ الأتباع في بلادنا الإسلامية كلّفوا أنفسهم فحص كل ما يأتيهم من الغرب في صورة نظريات علميّة ، لتبيّنوا الحقيقة ، ولأدركوا أنّ كل هذه النظريات باطلة ، ولا تسلم أمام النقد الصحيح ، وإنّها في الحقيقة تهدف إلى القضاء على الأديان السماوية ، وتنشيء من عندها أدياناً وضعيّة لا تفترق عن عبث الأطفال ، والمجانين .

إنّ مايسيه « دوركايم » بالعقل الجمعي » مهما أسبغ عليه من الأوصاف فإنه لا يعدو أن يكون عقلاً بشرياً ، وقد رأينا (*) أنّ عقول البشر مهما بلغت من حدة الذكاء ، وصفاء الذهن فإنّها لا يمكن أبداً أن تكون مصدراً للمقياس الخلقي ، وكذلك رأينا ـ باعتراف علماء أوربا أنفسهم ـ مبلغ قصور العلم عن معرفة النفس الإنسانية ، وبالتالي قصوره عن وضع منهاج للأخلاق يسير عليه الناس في حياتهم .

إن الذي يضع الأخلاق ، ومقياسها لا بدّ أن يكون عالماً علماً محيطاً بكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون ، وعالماً بجوهر النفس الإنسانية ، وما يؤدي إلى سعادتها في الدنيا والآخرة ، وليس ذلك إلا الله سبحانه وحده ، خالقها ومنشئها .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ . (١)

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . (٢)

(*) أنظر الفصل الأول من الباب الثاني .

(١) الملك آية ١٤ .

(٢) البقرة آية ٢١٦ .

إن المسلم يتلقى منهاج حياته ، وأمور الأخلاق كلها من الله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذي عنده علم ما كان ، وما سيكون ، وما هو كائن إلى يوم القيامة يقول الله تعالى :

﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السماء ، هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . (١)

﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾ . (٢)

وتصور الفرد أو المجتمع يضع خلقاً أو يشرع نظاماً تصور فاسد لأنه ينتظر الشيء من عاجز عنه ، وشأنه يصنع دونه . وغالبا ما يؤدي هذا التصور إلى انحراف وضياع لأنّ الفرد أو المجتمع حين يشرع الأخلاق إنما ينطلق من نقطة خاطئة ويتدخل في أمر فوق طاقته ، وفوق مقدرته .

إن الإنسان بصورة عامة لا يدرك طبيعة النفس الإنسانية ، ولا طبيعة الروح ، فكيف يشرع الأخلاق أو يضع النظام من غير تصور حقيقي لما شرع له . وصدق الله العظيم وهو يبين ذلك بقوله تعالى :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . (٣)

والنفس الإنسانية هي موطن الأخلاق لا يعلم خوالجها ، وقواها إلاّ الله تعالى وحده فهو وحده سبحانه الذي يشرع لها ما يصلحها في الدنيا والآخرة . وشتان بين ما شرعه الله سبحانه وتعالى ، وبين القوانين الوضعيّة التي تضعها المجتمعات البشرية التي نبذت الدين وراءها ظهرياً ، واعتمدت على نفسها في وضع قوانين الأخلاق .

---

(١)آل عمران آيات ٥ ـ ٦ .

(٢) طه آية ٩٨ .

(٣) الإسراء آية ٨٥ .

يقول أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ

[فرق أساسي عظيم بين الإسلام والقوانين الوضعيّة في تنظيم السلوك الإنساني فالقوانين الوضعيّة تعتمد تماماً على الرأى الإنساني ، وهي مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأى الخاصة والعامة في كلياتها وأصولها ، بل في كل فرعٍ منها ، وشأن الرأى الإنساني ـ سواء كان للخاصة أو للعامة ـ أنه لا يزال يتأثر في كل آنٍ بالعواطف ، والنزعات الإنسانية ، والأسباب والعوامل الخارجية وأحكام العلم والعقل القابلة للتغيرٌ ـ مما لا يلزم أن يكون صواباً في كل حال ـ وهذا التأثر يؤدي إلى التغيُّر في الأفكار والآراء ، وبهذا التغيرّ تتبدّل بالضرورة مقاييس الخير والشر ، والصحيح والخطأ ، والجائز والمحظور ، والحرام والحلال ، واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معها حيث مالت ، وبذلك لا يتحقق للأخلاق والمدنية مقياس ثابت مستحكم غير قابل للتغيُّر ، بل يتحكم تلوّن الطبع الإنساني في القانون ، وتلون القانون في الحياة الإنسانية] . (١)

ولكن الإسلام بجميع قوانينه الأخلاقية وغيرها يخلو من هذه العيوب لأنه من لدن الله العليم الخبير ، فعلمه سبحانه لا يتغيّر ، ولا يتبدّل ، بل ثابت منذ الأزل ، فهو سبحانه عالم بما يُصلح الحياة البشرية قبل أن يخلق البشر .

ومن جهة أخرى فإنّ المجتمع لا يحاسب الناس إلا على ما يصدر عنهم أى على سلوكهم الخارجي ، فهو لا يهتم إلاّ بالظاهر فقط .

ولكن مسائل الأخلاق تعتمد أساساً على الباطن ، فهي تقوم في باطن النفس الإنسانية ، وهذا ما لا يتوفّر للأخلاق الوضعيّة ، بينما الأخلاق في الإسلام تهتم أولاً ، وقبل كل شيء بالباطن ، ونيّة الفاعل تحدّد عمله إن كان أخلاقياً أم لا ؟

وهناك كثير من الذنوب التي لا يعتبرها الوضعيُّون ذنوباً بينما هي في نظر الإسلام تعتبر من الذنوب والكبائر مثال ذلك الحسد ، والحقد ، والكراهية ، والكبر ، والنفاق وكل هذه لا يمكن للمجتمع أن يطّلِع عليها ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، وهو الذي يحاسب الناس جميعاً على ما يصدر منهم من خير أو شر .

---

(١) نحن والحضارة الغربية صـ ٦٥ ـ ٦٦ دار الفكر .

وكذلك فإنّ من الملاحظ « أن السلطات الدنيوية إذا إرادت وضع القواعد الإنسانية ، ومحاولة الإصلاح في التمدن والأخلاق ، والإجتماع فهي تحتاج في كل مسألة فرعيّة إلى استرضاء عامتها للإصلاح المنشود فيها قبل أن تتولاه وتأخذ في العمل له ، ولذلك يتوقّف نفاذ كل مادةٍ من مواد قانونها على رضاء جمهور العامة .. وهذا دليل على أن القوانين المدنية عقيمة نكدة لا تغني شيئاً في إصلاح الأخلاق والإجتماع . (١)

بينما شرع الله تعالى يأتي للإنسان وحياً للتنفيذ والتطبيق معتمداً على عقيدة إيمانية تؤكد أمام العقل حقيقة أن ماجاء من عند الله حق لا ريب فيه ، وهو الصراط المستقيم ــ وهو المنهج الوحيد لإقرار الأمن وتحقيق السعادة ــ وبذلك لا يبحث المنهج الإسلامي لإرضاء الأفراد ابتداء ، وإنما يوجه بطريقة حاسمة للخير والمصلحة .

وإضافة إلى ذلك ــ فإن القوانين البشرية لا تخلو من تدخّل الهوى والنزوات التي تجعلها تحيد عن جادة الحق ، والصواب .

يقول « وحيد الدين خان » :

[إنّ علم القانون يعترف الآن بعد بحث طويل أنه ليس بإمكان الإنسان البحث عن قانون الحياة .. وقد اعترف عالم القانون المعروف « جورج هوايت كروس باتون » أن السبيل الوحيد للوصول إلى معايير متفق عليها للقانون هو الإعتراف بالوحي السماوي قانوناً .

كل فلسفات القانون الإجتماعي التي راحت في القرن التاسع عشر كانت تدّعي أن القانون الإجتماعي ــ مثل القانون الفطري ــ موجود في المجتمع بصورة ملازمة له ، وأنه ليس علينا إلاّ اكتشافها وبكلمة أخرى أدعوا أن القانون الإجتماعي أبدى مثل قوانين البخار والكهرباء ، وقد اخفقت كل هذه الفلسفات والمذاهب] . (٢)

---

(١) المرجع السابق صـ ٦٧ .

(٢) الإسلام والعصر الحديث صـ ٢٠ ــ ٢١ ترجمة ظفر الإسلام خان ط ٣ عام ١٤٠٦ هـ الناشر : دار النفائس.

وهكذا يتضح لنا أن كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هما مصدر القياس الخلقي الصحيح .

﴿ إن الحكم إلاّ لله ﴾ . (١)

ويقول تعالى أيضا :

﴿ ألا له الحكم ﴾ . (٢)

ويقول تعالى أيضا :

﴿ لا معقب لحكمه ﴾ . (٣)

ويقول الله تعالى :

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ . (٤)

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية :[إن الله نزل هذا القرآن على محمد ﷺ « بيانا لكل ما بالناس اليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام ، والثواب والعقاب ، وهدىً من الضلالة ورحمة لمن صدّق وعمل بما فيه من حدود الله ، وأمره ، ونهيه ، فأحلّ حلاله ، وحرم حرامه ، وبشرى للمسلمين »] . (٥)

ويقول تعالى :

﴿ لقد أنزلنا آيات مبيّنات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾. (٦)

ومن هذا نصل إلى أن وحي الله تعالى هو المصدر الصحيح للمقياس الخلقي ، والمنهاج الذي يسير عليه الإنسان في كل صغيرة ، وكبيرة من أمور حياته ، ليصل بذلك إلى سعادته ، وطمأنينة نفسه . **وضلّ من قال بغير ذلك .**

---

(١) الأنعام آية ٥٧ .

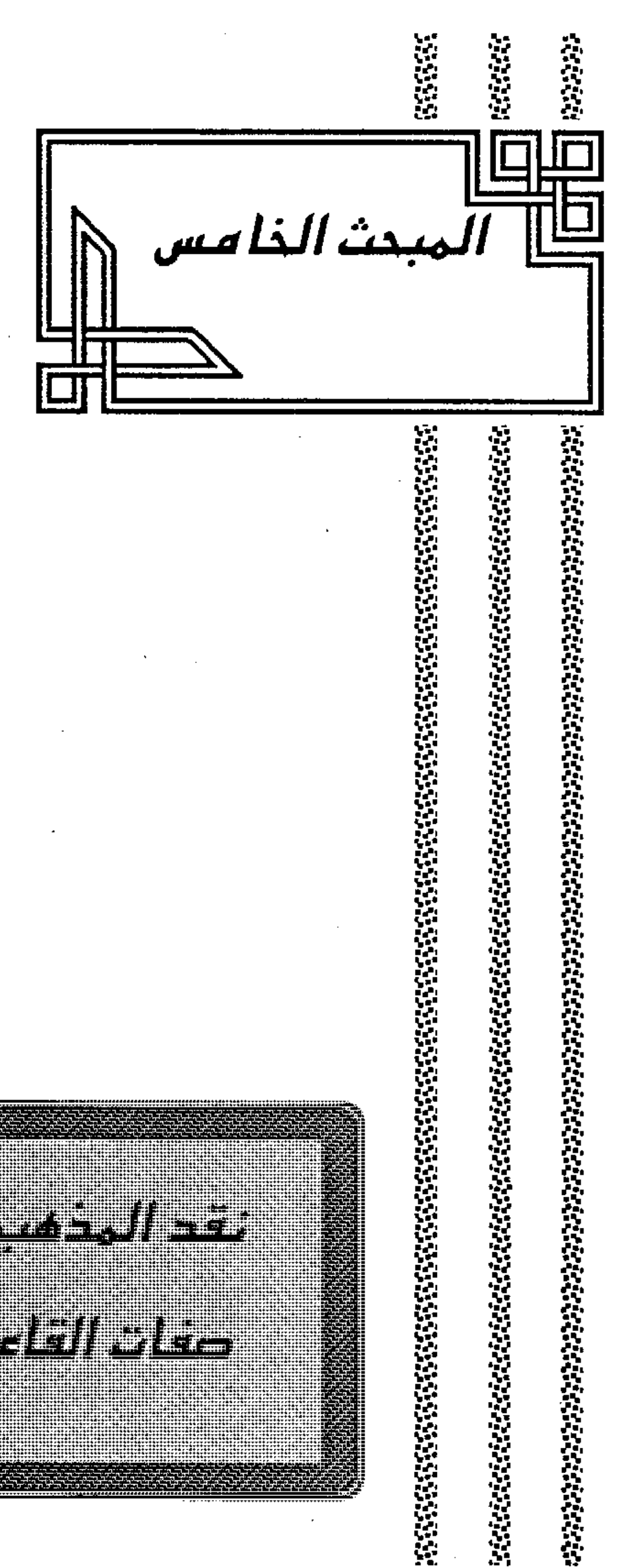
(٢) الأنعام آية ٦٢ .

(٣) الرعد ٤١ .

(٤) النحل آية ,٨٩

(٥)جامع البيان في تفسير القرآن ـ المجلد السابع / جـ ١٤ صـ ١٠٨ ـ الطبعة الرابعة عام ١٤٠٠ دار المعرفة للطباعة ـ بيروت .

(٦)النور آية ٤٦ .



المبحث الخامس

نقد المذهب الوضعي في صفات القاعدة الأخلاقية

المبحث الخامس

نقد المذهب الوضعي

في صفات القاعدة الأخلاقية

لقد رأينا أنّ القاعدة الأخلاقية عند الوضعيِّين تتسم بخاصتين أساسيَّتين وهما :

أ ـ القهر أو الإلزام .

ب ـ الميل والرغبة في الفعل .

وقد بيّن « دوركايم »أن القواعد الأخلاقية تمارس ضغطاً ، وقهراً على الأفراد بصورة يشعرون معها أنهم مجبرون على الإمتثال لها ، وإلا تعرضوا لسخط المجتمع عليهم .

ولما كانت الجوانب الأخلاقية تستدعي أن يصدر الفعل الخلقي برضا الإنسان ، ورغبته جعل « دوركايم » للقاعدة الأخلاقية صفة الرغبة فالأخلاق عند الوضعيِّين من جهة تقهرهم ، وتفرض عليهم أوامرها ، ومن جهة تحبِّب إليهم فعل الخير ، وترغبهم فيه ، وبذلك ظن « دوركايم » أنه حلّ المشكلة ، وأنَّ الأخلاق الوضعيَّة بذلك أصبحت تقوم على أسس علمية تجمع بين الإلزام والرغبة .

إذا نظرنا إلى هذه الأفكار وأخضعناها للفحص والنقد فإننا نجدها لا تثبت أمام النقد العقلي لأنَّ الفرد في هذا المذهب ـ كما هوا واضح ـ يصبح دمية في يد المجتمع يحركها كيف شاء ، وإلى أى اتجاه أراد دون أن يكون له حرية في اختيار أفعاله ، ويصبح عبداً مسترقاً لا يملك أمام قهر القواعد الأخلاقية حيلة ولا رأياً .

ثم ليست هناك فائدة تذكر من قول « دوركايم » إنّ القواعد الأخلاقية تتصف بصفة الميل ، والرغبة ، فما دام الإنسان مقهوراً ، ومجبراً فليست هناك فائدة من القول إنه يرغب في الفعل الذي يقوم به .

إن الفعل الخلقي ينطلق أساساً من باطن الإنسان وعقله . وهذا الجانب في الإنسان لا يقبل إكراهاً بأى صورة من الصور . ولذلك يكون القول بميل للقهر ، ورضا بالإلزام عبودية لا يقبلها الإنسان . ومنزلة لا تتفق مع باطن الإنسان وحقيقته من الممكن قهر الظّاهر الإنساني وإلزام الجوارح بالغلبة والقوة . أما قهر الباطن فهو لا يمكن تصوره .

ومن هنا كانت الحقيقة الدينية﴿ لا إكراه في الدين ﴾ لانطلاق العقيدة الدينية من العقل والباطن وبعد ذلك يأتي الخضوع للشرع والنظام والخلق حباً لله ورضا بالعقيدة ، وإحساساً بلذة وحلاوة توجيهات الرب العظيم .

يقول النبي ﷺ :

{ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان .... }

وكان النبي ﷺ يقول لبلال { أرحنا بالأذان يا بلال }

ومن أقواله ﷺ { وجعلت قرة عيني في الصلاة }

إن المؤمنين بالله وحدهم هم الذين يشعرون بالسعادة والرضا وهم يطبقون خلق الإسلام وآدابه . إنهم يلتزمون بها وهم راضون .

وإننا إذا اتجهنا إلى الإسلام لنعرف خصائص الإلزام فيه فإنّنا نجد البون شاسعاً بين ما قرره الإسلام ، وما يذهب إليه الوضعيّون .

فالإسلام يقوم على أساس الإلزام الخلقي المرتبط بالمسئولية الدينية ، والأخلاق في جوهرها إلزام ، فإذا لم يكن هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية ، فيفسد النظام ، وتتفشى الفوضى .

والأوامر الأخلاقية في الإسلام تحمل صيغة الأمر الواجب الملزم فهي تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين . فبالرغم من أن الله سبحانه وتعالى هو المشرِّع ، للإلزام الخلقي ـ كما عرفنا ـ وأنّه إذا أمر بأمر وجب إتباعه دون سواه كما قال الله تعالى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ . (١)

فإن الله سبحانه وتعالى يخاطب بالواجب الأخلاقي الوجدان المسلم ، والضمير المؤمن فيستثيره ، ويرغبه في عمل الخير ، والتمسّك بالفضيلة في كل أمر من الأمور سراً ، وعلانية ، ليقتنع بذلك العقل السليم ، فيمتثل لها القلب النبيل عن رضا ومحبة لا عن قهر ، وجبر . ومع ذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى قرن معظم الأحكام ، والأوامر الأخلاقية بمسوِّغاتها وبيان الحكمة ، والغاية منها تقديرا للإنسان المخلوق .

والقرآن الكريم حافل بالأمثلة علي ذلك منها قوله تعالى :

﴿ وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ﴾ . (٢)

فبعد أن أرشد الله تعالى إلى الصلح عقَّب على هذا الأمر بقوله :

﴿ والصلح خير ﴾ وذلك بياناً للحكمة وأن الصلح على كل حالٍ خير من الشقاق ، والجفوة والنشوز ، وكذلك في قوله تعالى :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون ﴾ . (٣)

---

(١) الأحزاب آية ٣٦ .

(٢) النساء آية ١٢٨ .

(٣) النور آية ٣٠ .

فبعد أن أرشد الله تعالى المؤمنين إلى ضرورة غض البصر ، وحفظ الفرج أعقب ذلك بقوله تعالى :

﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ فبيَّن الحكمة من ذلك وهي صون الحرمات والأعراض .

وكذلك في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين ﴾ . (١)

فبين الله تعالى لنا السبب الذي من أجله أمرنا بالتثبت من قبول الأخبار ، وهو أنه يؤدي إلى القطيعة ، والحرب .

والله تعالى حين أمرنا بالصلاة بيَّن لنا أنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر كما في قوله:

﴿ إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ﴾ . (٢)

كما رغَّبنا بما فيها من الأجر العظيم .

﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ . (٣)

وهذه المسوغات التي يقدمها لنا القرآن الكريم ليست هي علة تنفيذ الفعل بل العلة هي أنه أمر الله ، ولكن مع ذلك فقد بيَّن لنا الله تعالى ما في أوامره من حق وعدل ، وسمو ، ورغَّبنا في فعلها بكل ألوان الترغيب في الأجر ، والمثوبة عند الله يوم القيامة .

ومع الترغيب كان الترهيب والمراد منه التخويف من العواقب الدنيوية والجزاء الأخروي .

---

(١)الحجرات آية ٦٠.

(٢)العنكبوت آية ٤٥ .

(٣) المؤمنون من آية ٩ - ١١ .

وبالنسبة للخمر والميسر في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ . (١)

وأيضاً قوله تعالى :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ . (٢)

فهنا علل الله تعالى مقابلة السيئة بالحسنة بأنها سبب لإعادة المودة ، وإطفاء الغضب .وكذلك قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾. (٣)

فهذه الآيات الكريمات أمر الله تعالى فيها ، ونهى عن بعض الرذائل الخلقية وعلل نهيه لها على النحو الآتي :

فالنهي عن السخرية لعلة أن قد يكون الذين يسخرون منه أعلى منه مكانة عند الله ، وأكرم أخلاقاً .

---

(١) المائدة آيات ٩٠ ــ ٩١ .

(٢) فصلت : آية ٣٤ .

(٣) الحجرات آيات ١١ ــ ١٢ .

والنهي عن الشتائم ، والتعايب بالألقاب لأنّه معصية ، وفسق والأمر بتجنب الظن السيء لأنه يجر إلى الوقوع في الذنوب .

والنهي عن التجسّس والغيبة لأنّ هذا العمل السيء يماثل في شناعته من يأكل لحم إنسان ميت .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ . (١)

فقد بينّ الله تعالى أنّ التنازع والتخاصم يؤدّي إلى الضعف ، وطمع الأعداء فيهم ، كما في قوله تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفّنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ . (٢)

وهكذا فالقرآن الكريم حافل بمثل هذه التوضيحات ، ولا غرو في ذلك فالإسلام هو الدين الذي يحترم العقل ، ويحفّز المشاعر النبيلة ، ويوجّه القلب الإنساني إلى ضرورة تحري الغايات النبيلة ، والإنسانّية في كل فعل وأمر .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله :

[وإنّه ليكفينا عن تعداد أمثلة الأوامر الخاصّة أن نرى الطريقة التي يدفعنا بها إلى التماس القيم الروحية ، وكيفية توجيهه بصفة عامة ، فضلاً عن هذه الأوامر :

قال تعالى ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ . (٤)

وقال تعالى : ﴿ ومنّ يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ . (٦)

وإنّه ليشهدنا كذلك على المبدأ الأساسي الذي صدرت عنه الشريعة الإلهية كلها فقال :﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾. (٦)

وقال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ . (٧) ، (٨)

---

(١)الأنفال : ٤٦ .
(٢)النور :٥٥ .
(٣)المائدة : ١٠٠ .
(٥) البقرة : ٢٦٩ .
(٦) الأعراف : ٢٨ .
(٧) النحل : ٩ .
(٨) دستور الأخلاق في القرآن ص ٤٠

ومن هذا يتضح لنا أنّ السمة الأساسيّة للأوامر الإلهيّة قيامها على الحق والعدل ، وابتعادها عن الفحشاء ، والمنكر ، فالله سبحانه وتعالى يبين المصلحة لهذه الأوامر الأخلاقيّة ، وما تنطوي عليه من حق ، وعدل ، وإحسان ، يخاطب بذلك الإدراك السليم ، والوجدان النبيل ، فبالإضافة إلى أنها أوامر صادرة من الله العليم الخبير ـ وهو لا يأمر إلا بما فيه الخير ، والمصلحة للإنسان في الدنيا والآخرة ـ يبيّن الله تعالى للإنسان ما في هذه الأوامر من سموٍ ، وعدلٍ واحسان في ذاتها ، وتوجيه الله للناس يضع الأسس ويفصل في جزئيات التطبيق كلما أمكن ليتحدد أمام الإنسان المسار الديني بكل دقة ووضوح .

[فالأمر الإلهي يسوغ في نظرنا بتطابقه مع تلك الحقيقة الموضوعيّة ، وهو بهذا التطابق يستحوذ على قبولنا ، كما أنّه يُقيم على هذا القبول سلطانه الأخلاقي بيد أنّ هذا الطابع العميق الذي يؤلّف جوهر العدل ، والخير في ذاته لا يتسنى لنا أن نميّزه بأنفسنا دائماً ، وحيثما وُجد فشأنه شأن كل جوهر لا نراه مباشرةً في حال كماله ، وإنّما نلمحه لمحاً بفضل ذلك الجزء من النور المحدود في امتداده ، وفي قوته ، والذي نستمده من فطرتنا .

ليس هنالك إذن سوى نور واحد محض ، وغير محدود هو الذي يستطيع أن يضمَّ هذا الجوهر كاملاً ، وفي ثقةٍ تامة ، ولذا كان من حق المؤمنين أن يتخذوا من الشرع الإلهي وسيلة الهداية الأخلاقية الكاملة] . (١)

وتتميز الأخلاق في الإسلام بأنّها تعترف بالدور الفردي للانسان ولا تقتصر على التلقي ، والتنفيذ فالله سبحانه وتعالى قد حدد لنا القواعد العامة ، والكليّات الثابتة في الأمور الأخلاقية والتفصيلات الجزئية القابلة للتكرار وترك أمر الحوادث المستجدة لكي يتحرى فيها المسلمون ما يتناسب مع روح الدين الإسلامي وأصالته ، يتجلى ذلك في قول الله تعالى :

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ . (٢)

---

(١)) د . محمد عبد الله دراز دستور الأخلاق في القرآن صـ ٥٢ .

(٢) التغابن آية ١٦ .

فالمسلم له دور في التشريع للحالات التي تستجِد على الحياة البشريّة ، والحالات الجزئية ، والتفصيلية التي لم يرد فيها تشريع إلهي ، ووكل الله تعالى الأمر في ذلك إلى الضمير المؤمن العالم .

فالمفهوم الذي يُفهم من الآية السابقة أنّ الله تعالى لم يترك الحبل على الغارب للمؤمن يقول **الدكتور محمد عبد الله دراز إن صيغة هذه الآية الكريمة ليست هي صيغة :**

[افعلوا ما يبدو لكم حسناً تبعاً لإلهام اللحظة ، وليست هذه أيضا صيغة الواجب الصارم على سبيل القهر دون استثناء أو تعديل ، ليست هذه أو تلك ، ومع ذلك فهي تتفق معهما في امتدادهما العميق .

بهذه الكلمات الجامعة البينة يلفت القرآن أنظارنا نحو السماء ، وهو يثبّتنا على أسس متينة من الواقع ، وهكذا نجد طرفي السلسلة وقد اجتمعا : صعود نحو المثل الأعلى ، وانقاذ للفطرة ، خضوع للقانون ، وحرية للذات] (١)

ولا يقال بعد ذلك إنه يجوز أن يشتط الفرد ، ويتجاوب مع نوازعه ، ويطرح بذلك سلطة الأمر [لأن الضمير الذي يخاطبه القرآن ليس ذلك الضمير القارغ ، غير المهذّب ، المتروك دون رشد على حالته البدائية .. « إنه ضمير يجمع شرطين لم يجتمعا خارجه قط فهو أولاً مستنير بفضل تعليم إيجابي حُدّدت فيه الواجبات ، ورُتِبت بدرجة كافية ، وهو فضلاً عن ذلك قائم في مواجهة واقع حيٍّ ، ومراعى إلى أقصى حد .» ذلكم هو ضمير المؤمن ، ومن خصائص ضمير كهذا أن يكون لديه وهو حاضر في ذاته ، ومهيأ للتناصح شخصية مشرٌعة ، فما كان بله إذن أن يستسلم لاعتبارات يعلم أنّها غير مشروعة في نظر واضع الشرع بل أن يخون نفسه] . (٢)

فالإسلام في تشريعاته الأخلاقية كلها أعطى للانسان كرامته ، وجعل له دوراً أخلاقيًا ، فلا يكون كالآلة المنفّذة كما هو الحال بالنسبة للفرد في نظر الوضعييّن ، بل إنّ الإسلام ترك مجالاً للفرد ليمارس فيه حريّته ، ولكن في إطار ماحدّده له من قواعد عامة ، وكليات ، وأصول ثابتة .

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن صـ ١٢٧ .

(٢) نفسه ١٢٧ .

يقول الدكتورمحمد عبد الله دراز موضحا هذا الأمر :

[نحن لا نوجد قواعد الشريعة ، وإنّما نتناولها جاهزة ، صراحةً أو ضمناً من يدي مشرِّعنا ، أمّا تحديد واجباتنا المادّية فنحن نقوم به ابتداءً من هذه المثل العليا بقدر وسعنا ، ذلكم هو الوضع المعقول ، والميسّر الذي يتخذه التكليف الأخلاقي في القرآن ، فهو يضع الإنسان مكانه الصحيح وفي الظروف التي تناسبه على وجه التحديد ما بين الفطرة ، والعقل المحض .

« إن الأخلاقية الحقّة ليست خضوعاً محضاً ، ولا ابتكاراً مطلقاً هي هذا ، وذاك في وقت واحد ، والموقف ليس موقف عبد مُسترق ، ولا موقف سيّد مطلق ، بل هو موقف مواطن يشارك ـ بقدر معيَّن في السلطة التشريعية بالإختيار ، والمبادرة التي يملكها ، فمن ذا الذي يستطيع أن يضيف إلى ذلك أو يقطع منه شيئاً دون أن يخطيء بالزيادة أو بالنقص ؟ »

« وهناك في الواقع ما هو أكثر ، وأفضل فحين نلتحم بالشرع المقدّس يتمثّله ضميرنا ، ويحميه ، ويجعله نفسه حتى كأنّما كان يسهم في خلق الحقائق الأزلية هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى إننا بتركيبنا لمختلف القواعد المقررة ، وضبطها على موقفنا لا نفعل ذلك في غيبة المولى ، بل تحت سلطانه ، ورعايته ، ورقابته ، فنحن نستلهمه دائماً كما لو كان يواصل في أعماقنا دوره كمشرِّع حتى في أدق التفاصيل .] (١)

ومن هذا اتضح لنا الفرق بين صفات القواعد الأخلاقية عند المدرسة الوضعيّة وبين صفات القواعد الأخلاقية في الإسلام ، وتبيّن لنا ما في الإسلام من سمو ورفعة ، ولا غرو في ذلك لأنّه من لدن العليم الخبير بما يصلح الإنسان في دنياه ، وآخرته .ولقد اتضح لنا مدى اهتمام الإسلام بالإنسان فرداً له كيانه المتميّز والجدير به ، هذا الفرد الذي أهمله المذهب الوضعي ووجه إهتمامه كله إلى

---

(١) نفسه صـ ١٣٣ ـ ١٣٤ .

المجتمع فجعله الأساس الأول ، وأسبغ عليه من الصفات ما يجعل منه قوةً تمارس ضغطاً ، وقهراً على الأفـــراد ، فينطلقون لتلبـية ما يأمرهم به دون قـدرة على المقاومة والإختيار .

ولكن الإسلام ـ كما رأينا ـ احترم الفرد . واحتفظ له بكرامته وكيانه ، فهو خليفة الله في أرضه ، وهو الذي أسجد الله له الملائكة ، ولا يمكن أن يؤول أمر هذا الإنسان إلى مجرد دمية ، وأداة في يد المجتمع يحركُها كيف شاء .

إنَّ الإسلام يقرِّر أنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ . (١)

يقول الألوسي في تفسيره للآية :

[المراد بذلك جعله على أحسن ما يكون صورة ومعنى ، فيشمل ما له من انتصاب القامة ، وحسن الصورة ، والإحساس وجودة العقل وغير ذلك] . (٢)

فالله سبـحانه وتعالى بيَّن لنا في هذه الآية الكريمة ما للإنسان من شأن كريم عند الله ، وقد منحه الله تعالى قدرة على الإرتفاع بنفسه ، وبروحه إلى درجة راقية ، وذلك إن اختار طريق الخير والفلاح ، باتباع هدى الله ، وهذا يدلنا على أن الإنسان خلقه الله تعالى ، وخلق له إرادة ، ومشيئة بها يختار أفعاله ، ويريدها .

وهنا قضية أخرى يتميز بها المنهج الأخلاقي في الإسلام وهو أنه جعل الإنسان مسئولاً عن سلوكه وخلقه . وبهذا يتأكدإختيار الإنسان ، وتركه أمام مسئوليته المحددة ، فما دام المنهج قد اتضح ، والإنطلاق من مصدر حق قد ثبت فهو مسئول بعد ذلك عن كل أعماله الظاهرة والباطنة فالإنسان في الإسلام مسؤول

---

(١)التين آيات ٤ـ ٦

(٢)روح المعاني جـ ٣٠ صـ ١٧٥ دار احياء التراث العربي . الطبعة الرابعة عام ١٤٠٥ .

أمام الله سبحانه وتعالى ويشهد بذلك كثير من الآيات الكريمة أذكر منها قول الله تعالى :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ . (١)

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ﴾ . (٢)

﴿ أم لم يُنَبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ﴾ . (٣)

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ . (٤)

﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ . (٥)

ففي هذه الآيات الكريمة يقرر الله تعالى فيها أنّ الإنسان مسئول عن أعماله ، فالفرد له كيانه المتميّز ، وله قيمته الإنسانيّة باعتباره راشداً مسؤلاً له إرادة واختيار منحها الله تعالى له ، وعلى أساس هذه الإرادة يتم الإبتلاء في هذه الحياة الدنيا :

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ . (٦)

فقد أودع الله تعالى النفس الإنسانية قدرة على التمييز والإرادة والكسب والعمل ، وهذا كله في نطاق ما قدر الله وبمشيئته تعالى .

والمدرسة الوضعية تنزل بالإنسان بإلغاء إرادته ومسئوليته أمام عمله .

---

(١) الإسراء آية ١٥ .

(٢) غافر آية ١٧ .

(٣) النجم آيات ٣٧ ـ ٣٩ .

(٤) المدثر آية ٣٨ .

(٥) البقرة ٤٨ .

(٦) الملك آية ٢ .

يقول ليفي بريل :

[إنّ ميولنا الحسنة أو القبيحة التي نجيء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هي طبيعتنا فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هي ليست من عملنا ؟ أو على الأقل ليست من عملنا الشعوري الإختياري] . (١)

وإنطلاقاً من هذا المبدأ الذي يؤمن به الوضعيّون رأينا كيف أنّهم أرادوا دراسة أخلاق الإنسان دراسة يُطبِّق فيها نفس المنهج المستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية التي تخضع لمبدأ الحتمية ، فهم يرون أن هناك حتمية تخضع لها أفعال الإنسان ، كما تخضع ظواهر الكون .

فالوضعيون بذلك جعلوا الإنسان مقيِّداً في نطاق طبيعته ، ومقهورا تجاه أوامر المجتمع ، وكل ذلك خطأ ، وضلال .

والمذهب الحقّ في هذه المسألة هو ما قرره الدين الإسلامي الحنيف على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وتكريم الإنسان وتقدير حريته هو الذي يتفق مع ما قرره الإسلام [لأنّه المتسق بخاصة مع الحقيقة الكبرى في حكمة إرسال الرسل ، ودعوة الناس إلى الله ، وإلى الأعمال الصالحة ، وتحذيرهم من الإنحراف عنه ، والأعمال السيئة ، وترتيب مصائرهم ، وفقاً لمواقفهم من ذلك ، ويستتبع هذا أن يقال إن الله حينما أرسل اليهم الرسل ، وكلفهم ، وبشرهم ، وأنذرهم يعلم أنّ ما أودعه فيهم من قابليات التميز والإختيار ، والإستجابة ، وأنه جعلهم مسئولين عن مواقفهم بناءً علي ذلك . (٢)

وبناء على ذلك يمكننا الرد على الوضعيّيّن أنّ محاولتهم دراسة السلوك الإنساني علي أساس أنه يخضع لجبرية ، وحتمية كالتي تخضع لها الظواهر الكونية إنما هي خطأ ، وضلال .

---

(١) نقلاً عن دراسات إسلامية في العلاقات الإجتماعية والدولية صـ ٩١ للدكتور محمد عبد الله دراز . طبعة عام ١٩٨٩ دار المعرفة الجامعية الأسكندرية .

(٢) محمد عزة دروزه : الدستور القرآني صـ ٤٢٤ .

والقرآن الكريم أثبت لنا أنّ الإنسان قد منحه الله تعالى قدرة ، واستعداداً على اختيار الطريق الذي يناسبه ، فله قدرة على تطهير نفسه ، وتزكيتها ، أو طمس نورها وتدنيسها .

وكذلك للإنسان قدرة على تهذيب نفسه ، وطباعه إلى الأحسن [وإذا كان الإنسان قد باشر منذ الأزل ـ سلطانه على الصفات الطبيعية للحيوانات غير المستأنسة التي أصبحت بالترويض طيعة مستأنسة بعد أن كانت متوحشة ، متمردة فكيف لا يكون لدينا سلطان مباشر أو غير مباشر على طباعنا الخاصة ؟ كيما نغيرها إلى خير أو شر ؟] (١)

وهكذا يتضح لنا أنّ السلوك الإجتماعي لا يمكن إخضاعه لمبدأ الحتمية الذي تخضع له ظواهر الكون ، وبالتالي لا يمكن التنبؤ بالسلوك الإنساني بناءً على ذلك ، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في قول الله تعالى :

﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأى أرض تموت ﴾.(٢)

فما سيصدر عن الإنسان من أفعال في علم الغيب ، ويستحيل التنبؤ به ، والإنسان كما قلنا إنّما يتميز بمشاعره ، وأحاسيسه التي ترتبط بالفعل فلا يمكن أن نطبّق على أفعاله مبدأ السببيّة كما في العلوم الماديّة .

وإن جميع المثيرات تعجز عن أن تمارس إكراهاً واقعياً على قرارات الإنسان التي يتخذها ، سواء كانت هذه المثيرات من المجتمع ، أو من غيره .

---

(١) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ١٨٤ .

(٢) لقمان ٣٤ .

(٣) دستور الأخلاق في القرآن صـ ١٨٩ .

(٤) نفسه صـ ١٩٧

والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة فهو [يذكّرنا في مواضع كثيرة بهذه الحقيقة فإنّ أكثر نصائح الحكمة إقناعاً ، وأقوى دعوات الشر إغراءً لا تحدث أدنى تأثير في سلوكنا دون أن يكون لإرادتنا انبعاث حر لتقبّلهما ، أو لرفضهما .

ويقر الشيطان بهذه الحقيقة فيما جاء حكايةً عنه في القرآن الكريم ،

يقول تعالى :

﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ (١)] . (٢)

وكذلك فإنّ الإنسان لو كان مجبراً مقهوراً على أعماله لما كان هناك ذم من الله تعالى للذين يتبعون هواهم ، وللذين يقلّدون آباءهم تقليداً أعمى دون فهم ، ولا وعي .

وهناك مسألة تثير الإنتباه ألا وهي أنّ هناك آيات كثيرة في مسألة ضلال الناس ، أو هدايتهم ، وتعزو ذلك إلى إرادة الله سبحانه وتعالى المطلقة وهذه الآيات مثل قوله تعالي :

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ . (٣)

﴿ لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة ﴾ . (٤)

---

(١) إبراهيم آية ٢٢ .

(٢) دستور الأخلاق في القرآن : صـ ٢٠٢ .

(٣)المدثر آية ٣١ .

(٤) النحل آية ٣٦ .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

[لا ريب أنَّنا نستطيع أن نحاول تركيباً في هذا المجال الجديد ، والقرآن نفسه يقدِّم لنا مبدأ هذا التركيب حين يعلن :

﴿ إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتي يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ . (١)

فهو إذن حين يقرر أنَّ الله هو الذي يحكم إرادتنا لا ينجم عن ذلك إبراء ساحتنا لأنَّ الله لا يفعل ذلك ابتداءً مطلقاً ، وإنّما يجريه كنوع من الإجراء المقابل] . (٢)

ومن هذه الأيات التي توضِّح هذه الحقيقة قول اللهتعالى :

﴿ يضلُ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضلُ به إلاّ الفاسقين ﴾ . (٣)

﴿ فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون ﴾ . (٤)

وهكذا فهذه الآيات وأمثالها تقرر أن هداية الله للإنسان إنّما نتيجة لاختياره وسلوكه .

[إننا حين نقرر أنّ جميع هذه الآثار تحدث فينا بوساطة قوة عليا ، وفوق الطبيعية نجد أن سوابقها تصدر عن إرادتنا ، فنحن الذين بدأنا بأن انفتحنا على النور أو بأن تحولنا عنه ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ . (٥)] (٦)

---

(١) الرعد آية ١١ .

(٢) دستور الأخلاق في القرآن صـ ٢١١ .

(٣) البقرة آية ٢٧ .

(٤) الأعراف آية ٣٠ .

(٥) الزخرف آية ٣٦ .

(٦) دستور الأخلاق في القرآن صـ ٢١١ .

هذا وفي الحقيقة فإنّ الإسلام يهتم بالمجتمع اهتماماً كبيراً ، ويجعل له سلطةً ، وقوة ، وذلك لأنّه بدون المجتمع الصالح لا يمكن للفرد أن يعيش مستقراً هانئاً ، ونزعة الميل للجماعة هي نزعة فطريّة فطر الله تعالى الإنسان عليها ، وفي سبيل تكوين هذا المجتمع اهتم الإسلام بتربية الفرد ، وجعله مسئولاً عن أعماله ، لأنّ من هذا الفرد يتكون المجتمع . وأولى الإسلام المجتمع سلطة يمارسها على أفرادّه ، ولكنّ هذه السلطة ليست سلطة مطلقة ، وإنما يستمدُ المجتمع سلطته من سلطان الدين ، فهو عاملٌ منفِّذ لأحكام الدين الإسلامي ، وللمحافظة على الأمن ، وعلى محاربة الرذائل ، والمنكرات ، وهذه السلطة التي للمجتمع هي التي تتمثّل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتضح ذلك في مثل قول الله تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون ﴾ . (١)

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصَّلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون اللهورسوله ﴾ . (٢)

وقد بينّ الله تعالى أن بني إسرائيل استحقوا لعنة الله عليهم لأنّهم تقاعسوا عن القيام بهذا الواجب .

يقول الله تعالى :

﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ . (٣)

---

(١) آل عمران آية ١٠٤ .

(٢) التوبة آية ٧١ .

(٣) المائدة ايات ٧٨ ــ ٧٩ .

وكذلك بيَّن الله تعالى أنّ الأمة الإسلامية استحقَّت أن تكون خير أمة لقيامها بهذا الواجب كما في قوله تعالي :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . (١)

فالآيات الكريمة السابقة تقرر أنَّ على المجتمع واجب ألا وهو مراقبة تطبيق أحكام الله ، وشرائعه ، ومنع تفشِّي المنكرات ، والعمل على إزالة الفساد قبل أن ينتشر ، ويعم في المجتمع ، والحرص على بقاء المجتمع نظيفاً ، صالحاً للعيش الكريم في ظل منهج الله تعالى .

ولكن هذا الدور الذي اعترف به الإسلام للمجتمع لا يبلغ إلى جعله سلطة مطلقة غير محدَّدة كما هو الحال عند الوضعيين .

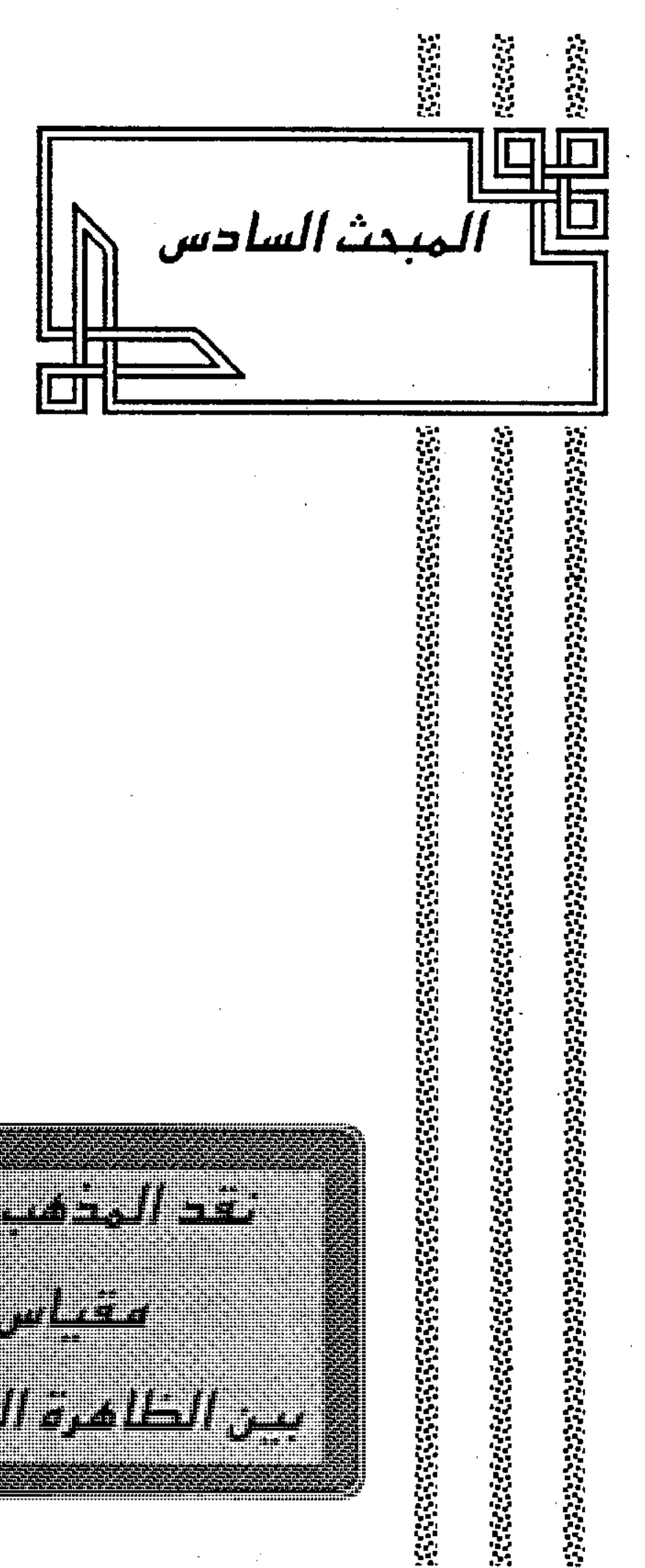
[إن إعطاء سلطة الإلزام للجماعة في إطار شرع الله من الأهمية بمكان ذلك أنّ من الناس من يكون وازعهم الإيماني ضعيفاً فلا يخافون من الله خوفهم من الناس ، فلو أنهم تُركوا وشأنهم لبثُّوا الفساد في المجتمع ، ثم إنّ هذا الإلزام محسوس ، ماديّ يناسب جميع الناس ، وإن كان السلوك الأخلاقي الذي يتمّ تحت سلطان إلزام الجماعة أقلّ قيمة من السلوك الذي يتمّ بدافع الإيمان بالله تعالى] . (٢)

---

(١) آل عمران آية ١١٠ .

(٢) مقداد يالجن : الإتجاه الأخلاقي في الإسلام دراسة مقارنة صـ ٢٢١ الطبعة الأولى عام ١٣٩٢ هـ الناشر : مكتبة الخانجي ـ مصر .

ومن هذا نعلم أنّ الإسلام اهتم بالرأى العام ، في المجتمع المسلم ، ولكن لم يخوِّل هذا المجتمع سلطة مطلقة ، بل جعله منفِّذاً ، ومراقباً لإقامة منهج الله في الأرض ، وتنفيذ أحكامه ، والعمل على القضاء على الفساد ومحاربته ، واستئصال شأفته .



المبحث السادس

نقد المذهب الوضعي في
مقياس التفرقة
بين الظاهرة السليمة والمعتلة

المبحث السادس

نقد المذهب الوضعي في مقياس التفرقة بين الظاهرة السليمة والمعتلة

يذهب الوضعيّون ـ كما سبق أن وضّحنا ـ إلى أنّ الأساس الذي تتم به التفرقة بين الظاهرة الإجتماعية السليمة ، والمعتلة هو مدى عمومية هذه الظاهرة ، في أغلب المجتمعات ، مع ملاحظة الزمن الذي انتشرت فيه هذه الظاهرة في المجتمع ، والظروف التي أدّت إلى وجودها خلال مراحل تطورها ، وذلك لأنّ كل عصر ، وكل مجتمع له مظاهره الإجتماعية الخاصة به ، والتي تنجم عنه ضرورة ـ كما يزعمون ـ .

وقد أدّى تطبيقهم لهذا المعيار إلى اعتبار الجريمة ظاهرة سويّة لأنه لا يكاد يخلو منها مجتمع ما من المجتمعات .

ومن البديهي أنّ هذا المعيار الذي توصّل إليه « دوركايم » نتيجة لأبحاثه العلميّة التي قام بها ـ كما يقول ـ هو معيار فاسد ، ولا يقوم على أساسٍ سليم ، ولا يقبله العقل .

إذ ما الذي جعل « دوركايم » يعتبر الظاهرة العامة في المجتمع ظاهرة سليمة ؟

وعلى أي أساس يصفها بهذا الوصف ؟

إنه ـ كما رأينا ـ يقول إنّه لاحظ أنّ هناك ظواهر يعمُ وجودها في المجتمع خلال مرحلة معيّنة من مراحل تطوره ، وفي ظل ظروف معيّنة تخضع لها ، ثمّ حكم على هذه الظواهر التي تتميز بهذه الصفة وهي « العموم » بأنّها هي الظواهر السليمة ، وحكم على الظواهر النادرة بأنّها ظواهر معتلة وشاذة وإنّنا نراه يتعسّف في هذا الحكم ، ولا يقيمه على أساس صحيح .

فلماذا لا تُعتبر الظاهرة النادرة هي الظاهرة السليمة ؟ والعامة هي المعتلة ؟ إنّ الحكم على الظاهرة بالصحة أو المرض لا يتم اعتباطاً ، فليست العمومية معياراً نحكم على أساسه ، ولو كانت الظاهرة العامة مفيدة للمجتمع . ثم ماذا يقول الوضعيون في الأنبياء والمرسلين والمصلحين الذين يُعتبرون ظاهرة نادرة في المجتمعات البشرية ؟

هل يعتبرونهم ظواهر معتلة وشاذة لأنّه يندر وجودهم ؟

وهل إذا تفشّى الفساد ، والإنحلال في مجتمع ما من المجتمعات بحيث أصبح ظاهرة عامة فيه هل يعتبر هذا الفساد ظاهرة سليمة ؟

وفي الحقيقة فإنّ هذا المعيار الذي توصّل إليه الوضعيون على يد « دوركايم» يبيّن لنا بوضوح ـ مدى تخبّط العقل وضلاله باقتحامه مجالا ليس له طاقة ، ولا قدرة على الخوض فيه ، أو القطع فيه برأى من الآراء لأنّه فوق طاقته ، وفوق مقدرته.

إنّ الذي يحدّد السليم من المعتل هو الله تعالى خالق الإنسان الذي يعلم ما يصلحه ، وما يفسده فهو ـ سبحانه وحده ـ هو الذي له هذا الحق [إنّ الإسلام يضع الكتاب الذي أنزل الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشرية ، ثم تمضي الحياة فإما اتفقت مع هذه القاعدة ، وظلت قائمة عليها فهذا هو الحق ، وإمّا خرجت عنها ، وقامت على قواعد أخرى . فهذا هو الباطل ، ولو ارتضاه الناس جميعاً في فترة من فترات التاريخ ، فالناس ليسوا هم الحكم في الحق والباطل ، وليس الذي يقرره الناس هو الحق ، وليس الذي يقرره الناس هو الدين ، إنّ نظرة الإسلام تقوم ابتداءً على أساس أنّ فعل الناس لشيء ، وقولهم لشيء ، وإقامة حياتهم على شيء لا تحيل هذا الشيء حقاً إذا كان مخالفاً للكتاب ، ولا تجعله أصلاًمن أصول الدين ، ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين ، ولا تبرره لأن أجيالاً متعاقبة قامت عليه] . (١)

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ١ صـ ٢١٧ .

ومن هذا نعلم أنّ انتشار الظواهر ، وعمومها ، ونشوء الناس عليها لا يعتبر أبداً مقياساً للحكم عليها بالصحة .

والمقياس الذي وضعه « دوركايم » هذا قد أعطى « الجريمة » صفة السويّة ، والصحة ، وهذا ما أدّى إلى ازدياد الجرائم في المجتمعات الأوربية ، وعدم استنكار الناس لها .

إن ما تعارف الناس عليه ، واعتادوه لا يمكن أن يكون هذا المعيار للتفرقة بين الصحيح ، والسقيم ، والحق ، والباطل .

ولقد عاب القرآن الكريم مراراً وتكراراً على الذين يتّبعون العرف والتقاليد ، وما عليه الآباء والأجداد دون تفكير ، وإعمال عقولهم التي وهبها الله تعالى لهم ، وقد شبّه الله تعالى هؤلاء الناس بالأنعام والدواب .

يقول تعالى :

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنّا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ . (١) .

ففي هذه الآية الكريمة ينكر الله تعالى على المشركين عبادتهم غيره تعالى بلا برهان ولا دليل ولا حجة ، حيث إنه [ليس لهم مستند فيما هم من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد] (٢)

فالله تعالى ذمّ في القرآن الكريم هؤلاء الذين ألغوا عقولهم ، وسايروا مجتمعاتهم فيما هم عليه من الضلال دون تفكير ، ولا مناقشة إلاّ مجرد اتباع مذهب الآباء ، ولو كان آباؤهم على الضلال والإنحلال ، ولهذا أنكر الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ . (٣)

---

(١) الزخرف آيات ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ صـ ١٩١ .

(٣) البقرة ١٧٠ .

ولذلك فإنّ الله تعالى وجّه المسلمين إلى ضرورة التحرر الفكري من نير التقليد والمحاكاة دون سند من دليل ، ولا حجة ، فلابد من أن يكون الإختيار مبنياً على اليقين والعلم .

فالوضعيّون يريدون للإنسان أن ينساق وراء ما يشيع في مجتمعه كالقطيع يمضي حيث هو منساق ، ولا يسأل ، ولا يعرف إلى أين يمضي .

ولكن الإسلام دين الله تعالى ارتفع بالإنسان عن مصاف البهائم ، ودعاه إلى التفكر والتدبّر .

ولم يتركه الله تعالى هملاً ، بل أرسل إليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يبيِّنون له الحقَّ من الباطل ، والصحيح من السقيم فيأخذون بيده لئلا يتيه .

فالله تعالى وحده هو الذي له هذا الحق .

﴿ وقد فصَّل لكم ما حُرِّم عليكم ﴾ . (١)

وهو الذي يبيِّن الحرام من الحلال ، والحقَّ من الباطل :

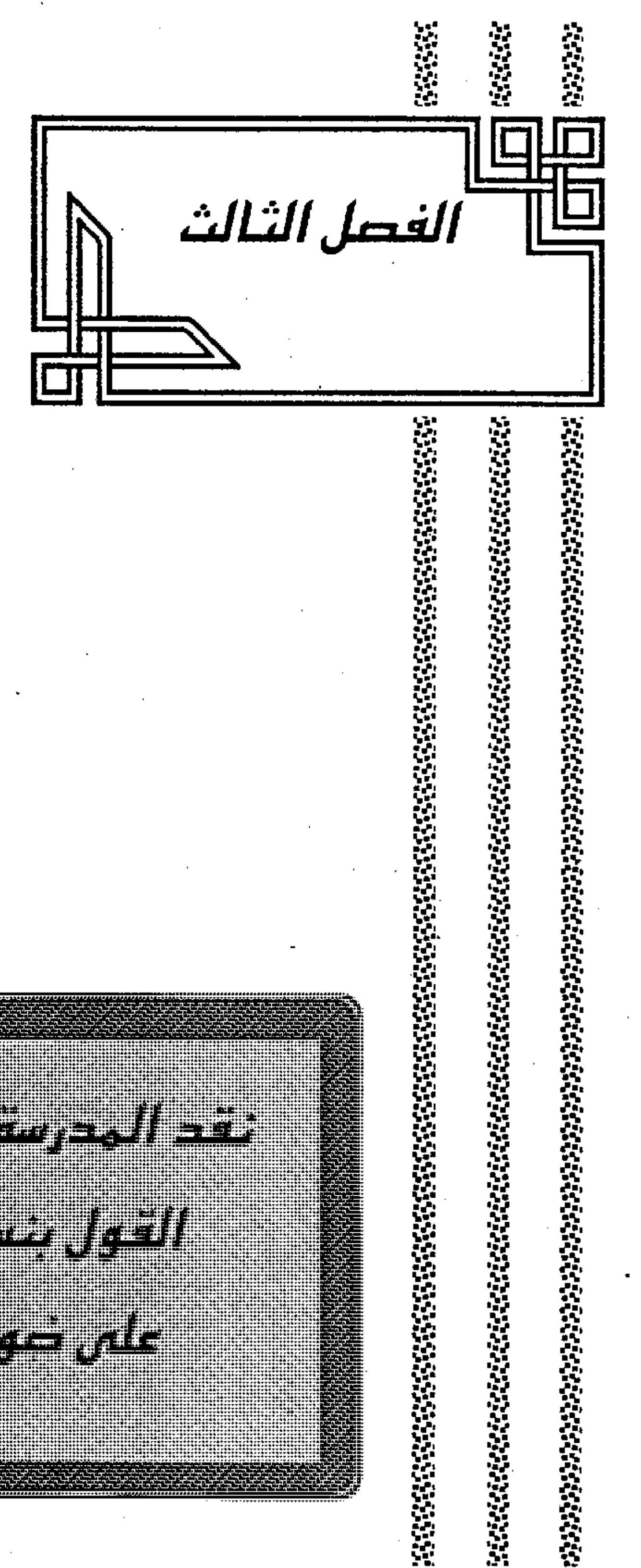
﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ . (٢)

فالمسلمون يتلقون من الله تعالى وحده منهاج حياتهم ، فهو وحده العليم الخبير بما يصلحهم ، وهو وحده الذي يعلم الحق من الباطل ، والصحيح من السقيم ، فوضع المعيار والمقياس الذي يقيس عليه ضوئه الناس سلوكهم هو حق الله تعالى وحده ، فما وافق هذا المقياس فهو الحق وإن تركه الناس ، وما خالفه فهو الباطل ، وإن كان شائعاً ، وعاماً في المجتمعات البشرية كلها .

---

(١) الأنعام آية ١١٩ .

(٢) النحل آية ٩٨ .



الفصل الثالث

نقد المدرسة الوضعية في القول بنسبية الأخلاق على ضوء الإسلام

محتويات الفصل

يشتمل الفصل على تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : آثار القول بنسبية الأخلاق وموقف الإسلام منها

المبحث الثاني : ردّ الأسس التي اعتمدها الوضعيُّون في القول بنسبية الأخلاق

المبحث الثالث : الإسلام ونسبية الأخلاق

تمهيد

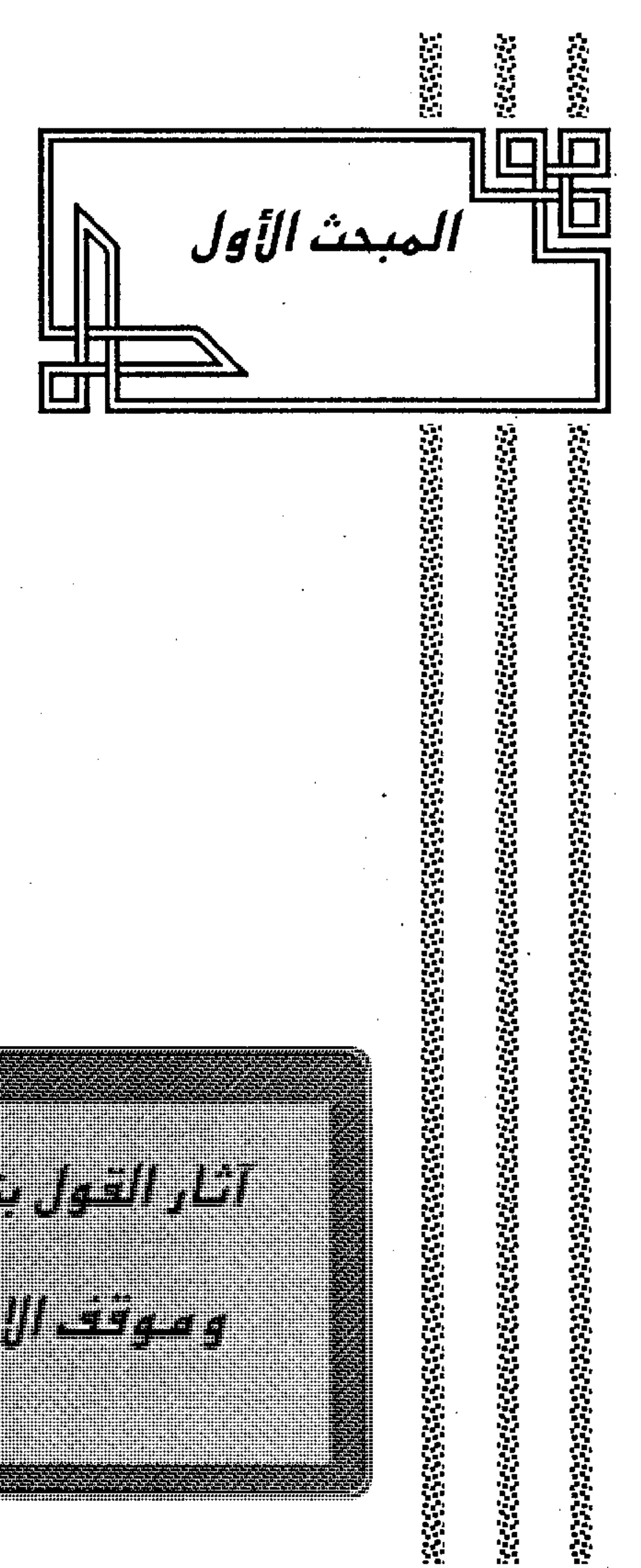
رأينا فيما سبق (١) أن المدرسة الوضعيّة تنكر أن تكون الأخلاق ثابتة أو مطلقة بحيث تصلح في كل العصور ، ومختلف البيئات ، وهي تستند في إنكارها هذا على ماظهر من اختلاف الأنماط الأخلاقية من مكان لآخر ، ومن عصر لآخر ، إلى درجة أنّ ما يُعد أخلاقياً في مكان ما ، أو عصر معيّن لا يُعد كذلك في مكان ما وعصر آخر ، فلكل عصر أخلاقه ، وقيمه التي تتناسب مع ظروفه ، وأحواله - كما يقولون - وقد توصلّوا من ذلك إلى القول بأنّ الأخلاق نسبيّة ، ومتغيرة ، وأنه لا ثبات للأخلاق إلا في خيال الفلاسفة الذين يشرّعون للإنسانية كلها بصرف النظر عن هذا الإختلاف في البيئات ، والعصور الذي يشهد به الواقع .

وفي هذا الفصل سأرد - بمشيئة الله - على هذا الرأى ، وأبيِّن موقف الإسلام من القول بنسبيّة الأخلاق ، وآثار هذا القول على البشرية ، وذلك من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول : آثار القول بنسبيّة الأخلاق وموقف الإسلام منها .

المبحث الثاني : رد الأسس التي اعتمدها الوضعيّون في القول بنسبية الأخلاق .

المبحث الثالث : الإسلام ونسبيّة الأخلاق .


المبحث الأول


آثار القول بنسبية الأخلاق
وموقف الإسلام منها

المبحث الأول

آثار القول بنسبية الأخلاق وموقف الإسلام منها

لقد فطن اليهود لما للأخلاق من أثر كبير في ضبط سلوك الناس في الحياة وأنها هي التي تمثِّل عناصر ارتقاء الأمم ، وترابطها ، وتماسكها فوجَّهوا جهودهم إلى تدمير هذه الضوابط ، والقضاء عليها بشتَّى الأساليب ، والحيل .

ويشهد بهذا بروتوكولاتهم (*) التي وضعوها ، ومن ذلك مثلاً ما جاء في البروتوكول الثاني الذي يقول :

[الأمميّون (غير اليهود) لا ينتفعون بالملاحظات التاريخية المستمرة بل يتبعون نسقاً نظرياً من غير تفكير فيما يمكن أن تكون نتائجه ، ومن أجل ذلك لسنا في حاجة إلى أن نقيم للأمميّين وزناً .

« دعوهم يتمتعوا ، ويفرحوا بأنفسهم حتى يلاقوا يومهم ، أو دعوهم يعيشوا في أحلامهم بملذات ، وملاه جديدة ، أو يعيشوا في ذكرياتهم للأحلام الماضية ، دعوهم يعتقدوا أنّ هذه القوانين النظرية التي أوحينا إليهم بها لها القدر الأسمى من أجلهم .. إن الطبقات المتعلمة ستختال زهواً أمام أنفسها بعلمها وستأخذ جزافاً في مزاولة المعرفة التي حصّلتها من العلم الذي قدّمه إليها وكلاؤنا رغبةً في تربية عقولها حسب الإتجاه الذي توخيناه .

لا تتصوروا أنّ تصريحاتنا كلمات جوفاء .. لاحظوا هنا أن نجاح « دارون » ، « ماركس » ، « ونيتشه » قد رتَّبناه من قبل ، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (**) (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد ، ولكي نتجنَّب ارتكاب الأخطاء في سياستنا وعملنا الإداري يتحتم علينا أن ندرس ونعي في أذهاننا الخط الحالي من الرأي ، وهو أخلاق الأمة وميولها] (١)

(*) البروتوكول : تقرير وضعه شخص ذو نفوذ بين اليهود يتضمن خططاً ومؤامرات يحيكها اليهود لغيرهم من أمم الأرض في سبيل تكوين مملكة إسرائيلية تتحكم في العالم كله .

(**) الأممي:من عدا اليهود ومعنى الكلمة عندهم : البهائم والأنجاس والكفرة والوثنيون وفي هذا ما يدل على أن اليهود ينظرون إلى مَن عداهم نظرات الحقد والإحتقار والمقت .

(١) الخطر اليهودي : برتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي صـ ١٦٦ ـ ١٦٧ تقرير الأستاذ : عباس محمود العقاد ـ مكتبة التراث .

من هذا النصّ يتضح لنا أنّ مخطط اليهود يستهدف في الأساس أخلاق الأمم لإفسادها ، والقضاء على مبادئها الثابتة التي تقوم عليها ، وقد كان العلم النظري وسيلةً من الوسائل التي تذرّعوا بها في تحقيق مآربهم ، ومخططاتهم ، وما ذاك في الحقيقة إلاّ لأنّ الأمميّين ـ كما يسمّونهم ـ لا يفكرون في النتائج التي تنتهي إليها هذه النظريات التي وضعها في حقيقة الأمر حكماء صهيون ، وخلعوا عليها رداء العلم ، وتقبلها غيرهم من الناس على أنّها مسلّمات لا تحتمل الجدال ولا النقاش ، وهي في الحقيقة تحمل بين ثناياها معاول الهدم والتدمير لأهم الأسس التي يقوم عليها رقي الشعوب والأمم ، وهي الأسس الأخلاقيّة ، والمعايير والمقاييس التي يقاس على ضوئها الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

ويتضح لنا ذلك إذا علمنا أنّ « دوركايم » من أصل يهودي ، وأفكاره في الحقيقة تحمل السم الزعاف ، والهلاك للأمم التي تتقبّلها ، ولقد رأينا باعتراف البرتوكولات أنّ هذه النظريات إنّما هي من عملاء اليهود ، ووكلائهم حيث يقولون : « إنّ الطبقات المتعلمة ستختال زهواً أمام أنفسها بعلمها ، وستأخذ جزافاً في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدّمه إليها وكلاؤنا رغبةً في تربية عقولها حسب الإتجاه الذي توخيناه » .

وتقول البروتوكولات أيضا : « لم يعد الأمميّون قادرين على التفكير في مسائل العلم دون مساعدتنا » .(١)

فالنظريات التي يقدّمها الوضعيّون وأمثالهم هي في الحقيقة من توجيهات اليهود ومن إيحاءاتهم المسمومة ، فقد استغلوا رغبة الشعوب والأمم في التعلّم ، فوجّهوا العلم لتحقيق مخططاتهم ، ومآربهم ، ووجّهوه أساساً لهدم الأخلاق ، بل للقضاء عليها ، وهدم أسسها الثابتة التي تقوم عليها .

---

(١) المرجع السابق صـ ١٧٢ .

وها هو البرتوكول التاسع يقول :

« عليكم أن توجّهوا التفاتاً خاصاً في استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصّة بالأمة التي أنتم بها محاطون ، وفيها تعملون ، وعليكم الاّ تتوقعّوا النجاح خلالها في استعمال مبادئنا بكل مشتملاتها حتى يُعاد تعليم الأمة بآرائنا ، ولكنكم إذا تصرفتم بسداد في استعمال مبادئنا فستكتشفون أنهّ ـ قبل مضي عشر سنوات ـ سيتغير أشدّ الأخلاق تماسكاً ، وسنضيف كذلك أمةً أخرى إلى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل » (١)

وهكذا إتضح لنا أنّ اليهود وجّهوا جهودهم أولاً ، وقبل كل شيء لهدم البناء الأخلاقي في الأمم ، حتى إذا تحقّق هدفهم سهُل عليهم بعد ذلك تحقيق كل ما يريدون ، وسهل عليهم استعباد الأمم التي استعبدتها الأهواء والشهوات .

فهم يهدفون إلى إشاعة التحلل ، والإنحلال الأخلاقي بين الشعوب ، والأمم ، وذلك بالطعن في ثبات القيم ، والمباديء الأخلاقية ، واعتبارها أموراً تواضعت عليها البشريّة ولا صلة لها بالدين ، وأنّها من مخلّفات القرون البائدة ، وأن التطور والتقدم الذي يشهده العالم اليوم في جميع الميادين ، والمجالات يقتضي أن تكون هناك قيم ، ومباديء جديدة تتلاءم مع المستوى الحضاري ، والتقدمي الذي بلغته ، فيجب أن تُترك الحرية للناس ليزاولوا السلوك الذي يحلو لهم ، والذي يتمشّى مع أهوائهم ، دون قيد ولا شرط .

---

(١) المرجع السابق صـ ١٩٤ .

وها هي البروتوكولات تقول :

« إن الكلمات التحررية لشعارنا الماسوني هي : < الحرية والمساواة والإخاء > وسوف لا نبدّل كلمات شعارنا بل نصوغها معبرة ببساطة عن فكره ، وسوف نقول : حق الحريّة ، وواجب المساواة ، وفكرة الإخاء ، وبها سنمسك الثور من قرنيه » (١)

وتقول أيضا :

« لقد أقنعنا الأمميّين بأن مذهب التحررية سيؤدّي إلى مملكة العقل » (٢)

إنهم يريدون للبشر أن ينطلقوا لتلبية أهوائهم دون قيد ، ولا شرط بدعوى أنّ لهم الحرية في فعل ما يحلو لهم لأنّه ليس هناك ضابط ولا وازع بل كل ما يراه الإنسان حقاً فهو حق بالنسبة إليه ، وهذه هي السوفسطائية تحيا من جديد ، ولكنها ترتدي هذه المرة مسوح العلم ، وتتمسّح به فهـي سوفسطائية العصر الحديث .

إن النتيجة التي نصل إليها من تطبيق القول بالنسبيّة الأخلاقيّة هي انهيار القوانين الأخلاقيّة فلا يبقى هناك مقياس ، ولا معيار يحدّد الخير من الشر ، والحقّ من الباطل ، وسيستوي جميع الناس فلا يكون هناك تقدم ، ولا تدهور أخلاقي ، ولن يكون هناك إنسان أفضل من إنسان آخر ، وذلك لأنّ الأمر متروك لوجهة نظر كل إنسان فيصبح ما هو خيرٌ في نظر فلان شرٌ في نظر غيره ، فتعمّ الفوضى الأخلاقية ، ويتفشّى التحلل ، والإنحلال الأخلاقي ، وهذا هو عين ما تستهدفه البروتوكولات التي وجّهت جهودها لهدم المعايير ، والموازين التي تضبط سلوك الناس سواء كانت هذه المعايير هي الدين أم الأخلاق .

---

(١) المرجع السابق صـ ١٩٤ .

(٢) نفسه صـ ١٧٤ .

وقد جاء في البرتوكول الثالث مانصّه :

« إنّ كل الموازين البنائيّة القائمة ستنهار سريعاً لأنّنا على الدوام نفقدها توازنها كي نبليها بسرعة أكثر ، ونمحق كفايتها » (١)

فعندما تنهار الموازين لن تكون هناك تفرقة بين الخير والشر ، وبين الحق والضلال فيكون الهوى هو القائد ، وهو المعلم .

وقد أدرك النتائج الخطيرة التي ستؤول إليها النسبيّة الأخلاقية علماء الغرب .

فها هو أحدهم يقول :

« إنها لقضايا مخيّبة للأمل ، وها هو ذا موقفها أمام مشاكل الحياة العملية : ولنفرض أنّ أحداً من خاصتّي قد ارتكب بعض الحماقات فأيّ موقف يتحتم عليّ أن أتخذه بإزاء ذلك ؟ أيتعيّين عليّ أن آخذه بالشدة لكي يتأدّب أم أتركه للعقوبات الطبيعية ؟ وإذا كان لي إبن فأيّ خطةٍ من التهذيب آخذه ؟ أيجب أن أعوّده مصارعة الخطوب أم يجب أن أربيّه على العدالة والرحمة ؟ وإذا قُدّر لي يوماً أن أكون مضطلعاً بعبء من سياسة بلادي فما الذي يجب عليّ نحوها لكي تتجه السلطات وجهةً موفّقة ؟ أيجب عليّ أن أمنح صوتي لأولئك الذين يوسّعون دائرة المشروعات الإستعمارية أم للذين يحدّون على هذا الإعتبار أو ذاك نظام الضرائب ؟ .

---

(١) المرجع السابق صـ ١٦٨ .

هذه المشاكل وكثير سواها يتعرّض لها كل امرىءٍ في حياته على الدوام ، وكل امرىء ملزم بأن يتخذ حيالها موقفاً معيناً ، وعند كل إنسان شعور بأنّه يمكنه اتخاذ ذلك الموقف ، وإذن فلابدّ له من مبادىء معتبرة يمكن أن يرجع إليها عند الحاجة » (١)

هذا النص يوضح لنا مدى الحيرة ، والتخبّط الذي سيؤول إليه أمر الناس عند القضاء على المعايير والمقاييس الأخلاقية الثابتة .

إن النتيجة التي ستنتهي إليها المجتمعات البشرية عند تطبيق النسبيّة الأخلاقية هي حيرة الناس ، وتخبطهم في أهم مسائل الحياة ، فلا يعودون يعرفون أى طريق يسلكون ؟ وبأي منهج يستهدون في حياتهم .

ولقد صوّر الكاتب السابق ـ بصدق ـ آثار القول بالنسبيّة الأخلاقية ، وبيّن أن الناس سيقفون حيارى لا يدركون ماذا يفعلون ، لأنّه لن يكون هناك قائد ، ولا معلم يقودهم إلى طريق الخير ، والفلاح فتتولّى الأهواء والشهوات هذه المهمة لتؤدّي بالبشر إلى الهلاك والدمار .

وهذا هو ما وصلت إليه المجتمعات الأوربيّة التي طُبِّقت فيها النسبيّة الأخلاقية بعد رفضهم للدين ، وللأخلاق الثابتة .

وقد وصف أحد كبار علمائهم (*) ما انتهت إليه حياتهم فقال :

[لم يبق إلاّ أقلية ضئيلة من الناس الذين يسلّمون بتعريف الخير والشر على النحو التقليدي الذي كان معروفا به بين أمم الغرب ، أما غالبيتهم فقد نسوا

---

(١) أندريه كريسون : الأخلاق في الفلسفة الحديثة صـ ١٢٩ ـ ١٣٠ ترجمة : د . عبد الحليم محمود ، أبو بكر زكري طبعة ١٣٦٨ هـ دار إحياء الكتب العربية .

(*) هوالكسس كاريل : ولد عام ١٨٧٣ في ليون بفرنسا حصل على إجازة الطب ، وإجازة في العلوم ، وتوظف في معهد روكفلر للأبحاث العلمية بنيويورك ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٩٢٩ وحصل على جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة .

وصايا الكتب الدينية بل أصبح الكثيرون منهم يجهلون مجرد وجودها ، ولم تعد هناك حدود معترف بها من الجميع بين الحلال والحرام ، وعجز معظم الناس عن التمييز بين الخير والشر تمييزا واضحاً ، ولقد عجزوا عن اتخاذ نوع من الأثرة الواضحة مقياساً لأفعالهم فقنعوا بطاعة شهواتهم ، وبالسعي وراء منفعتهم الوقتية ، ولم تعد هناك فكرة مشتركة عن طريقة السلوك بين الأغنياء والفقراء ، أو الشيوخ أو الشبان أو العلماء والجهلة ، فليسَ هناك خير أو شر في نظرهم ، ولم تعد خيانة الصديق لصديقه تعدّ عاراً إذا كانت خيانة الخائن تحقّق له بعض المنفعة ، وصار الخير هو المنفعة ، فالشجاعة تعرّض صاحبها لأخطار غير نافعة ، وإذن فالجبن خير من الموت ، واقتناء سيارة أفضل من إنجاب طفل ، ولابدّ من ربح أقصى ما يمكن ربحه بعمل أقل ما يمكن عمله ، وهناك إذن خلط شنيع في ذهن الإنسان الحديث ، فمن البديهي أنّه يجب على أعضاء الجماعات البشريّة أن يعرفوا كيف يُنظّمون سلوكهم تبعاً لقواعد واحدة بعينها ، ويجب عليهم أن يسلّموا بتعريف واحد للخير والشر ، كما يسلمون بتعريف وحيد للحرارة والبرودة] . (١)

فهذا النص اعتراف بما وصلوا إليه نتيجة للقضاء على الموازين الثابتة التي تحدّد ما هو الخير ، وما هو الشر ، والتي يهتدي الناس على ضوئها في حياتهم ، فهو يصوّر لنا الحالة التي آلوا إليها من حيث عدم التمييز بين الحلال والحرام ، والخير والشر ، فغدت الأمور فوضى ، وتحكم الهوى في توجيه الناس ، فكل أصبح يرى الخير فيما يتفق مع أهوائه وشهواته ، وفيما يحقق منافعه ومصالحه .

يقول الكسس كاريل : [إنّ قواعد السلوك لدى أسلافنا قد استبعدت نهائياً في أثناء الفترة التي فصلت الحرب الكبرى عن الحرب العالميّة الأخيرة ، وسيطر الهوى في كل مكان ، وأصبحنا نستوحي حياتنا الجماعية من مذهب الحرية الفردية الذي ليس إلاّ إحدى نزوات العقل ، أما حياتنا الخاصة فإنّنا نتّبع نزوة حواسنا ، وذكائنا . (١)

(١) تأملات في سلوك الإنسان صـ ٨٢ ـ ٨٣ ترجمة د . محمد محمد القصاص مراجعة د . محمود قاسم ـ مكتبة مصر .

(٢) نفسه صـ ٢٠ .

ويقول كذلك :

[لقد هجرنا كل قاعدة أخلاقية دون أن نتحمّل مشقة التساؤل عمّا إذا لم تكن القواعد التقليدية للسلوك ضرورية لنجاح الحياة الفردية ، والجماعية ، فامحت الحدود بين الخير والشر وسط ضباب المذاهب النظرية ، والهوى ، والشهوات .

وفي الوقت الذي تخلينا فيه عن تعاليم الدين ، هجرنا أيضاً كل قواعد السلوك الداخلية بل إن الأجيال الحديثة لتجهل كل الجهل ما إذا كانت هذه القواعد قد وُجدت في يوم من الأيام فأصبح الإعتدال ، والشرف ، والصدق ، والمسئولية ، والطهر وضبط النفس ، وحب الجار ، والبطولة كلها عبارات بالية ، ومجرد كلمات خاوية من المعنى تثير ابتسام الشباب ، ولكننا إذا استثنينا القلائل من المؤمنين ـ لم نجد أحداً يراعي هذه المبادىء في حياته اليومية فالرجل الحديث لا يرى قاعدة للسلوك سوى متعته] . (١)

وهكذا فقد سجل هذا العالم اعترافه بالحالة التي وصلت إليها المجتمعات الأوربية ، نتيجة لترك الناس على هواهم يفعلون ما يشاءون لأنّه ليست هناك معايير ، ومصابيح تنير للناس حياتهم ، ويهتدون على ضوئها ، ويسترشدون بها فيما يعِن لهم من مسائل ، وأمور في هذه الحياة .

إنه يقول : إن الأجيال التي نشأت لا تعرف التمييز بين الخير ، والشر ، ولا بين الحلال والحرام ، وأصبحت المعاني الخالدة التي تحقق سعادة البشر كلمات جوفاء خالية من المعاني السامية التي تحتلها في قلوب المؤمنين بها ، حيث أصبح الشرف والصدق ، والإعتدال والبطولة مجرد كلمات جوفاء لا تثير إلا سخرية الشباب ، وعدم اكتراثهم .

إن « أندريه كريسون » يتساءل متهكما ويقول إن « ليفي بريل » يدعونا إلى القضاء على الأخلاق التقليدية الثابتة التي تعارفت عليها البشرية ولكنه لم يقدم لنا البديل عن هذه القواعد الأخلاقية التي يدعو لتركها ، وقد علمنا أنّ الحياة التي نعيشها تستجِدُّ فيها أحوال وأمور كثيرة فكيف نسلك ؟ وعلى أى نور نستضيء ؟

(١) المرجع السابق صـ ٧٠٦ .

وفي هذا يقول « أندريه كريسون » :

[ماذا عسى الأستاذ « ليفي برول » أن يكون جوابه إذا ما سأله سائل في مثل هذه الأحوال المختلفة ؟ عمّا يكون من الصواب أن يعمل ؟]

إن « ليفي بريل » يدعو الناس إلى القضاء على المعايير الثابتة ، والأخلاق ، والقيم التي تعاهدتها البشرية على مر السنين ، والتي وإن خالطتها الشوائب ، وحرفتها إلاّ أنّها لا زالت علي قدرٍ من الهيمنة على سلوكيات الناس ، تهديهم إلى الخير وتنهاهم عن الشر ، وهو في دعوته إلى القضاء على هذه المعاييرالثابتة لم يقدِّم للبشرية البديل عنها ، ويدعو الناس إلى السير في أمور الحياة ، وما يعترضهم فيها على حسب هواهم ، وحسب طباعهم ، وفي هذا ما فيه من إشاعة الفوضى الأخلاقية .

إنَّ النتيجة الحتمية لانعدام المعايير الأخلاقية الثابتة إضافةً إلى ذلك أنّ الجميع سيتساوون فلا يكون هناك فرق بين الصالح ، والفاسد ، وبين المستقيم ، والمنحرف ، فلا نعود نميّز بينهم وكذلك الحال بالنسبة للجماعات فلن تكون هناك جماعة مستقيمة ، مهتدية ، وأخرى فاسدة ومنحلة ، بل الجميع سيكونون في مرتبة واحدة .

إنّ « ليفي بريل » والوضعيّين أمثاله الذين ينادون بالقضاء على الأخلاق المعياريّة يريدون للبشر أن ينطلقوا في الحياة متحللين من كل ضابط يضبط سلوكهم ، وكل وازع يردعهم عن فعل الشر ، واقترافه فيتساوى الجميع ، ولن يكون هناك شيء إسمه انحراف خلقي ، ولا شيء اسمه فضيلة ، وقيم ، وسيجد كل إنسان من المبررات ما يمكنه به أن يخدع نفسه ، ويوهمها أنّها على الحق ، وأنّ غيرها على الباطل لأنّه لن يكون هناك مباديء أخلاقية محدَّدة تنير الطريق ، وتحدِّد الخير من الشر .

يقول «أندريه كريسون» في الرد على « ليفي بريل» :

[إنّه لكي يُعنى بجماعة ما عناية علميّة يتعيّن الوقوف على هذه الأمور :

١ ـ الحال التي يجب أن تكون عليها جماعة من الجماعات لكي يُقال أنها جماعة صحيحة .

٢ ـ فيم تفترق هذه الجماعة عن الجماعة الصحيحة ؟

٣ ـ بأيٍّ علاج يمكن أن تعالج جماعة غير صحيحة حتى تردَّ إلى حالة الصحة ؟

ولهذا لا مناص هنا من مجابهة صعوبة خطيرة : كيف يمكن في الحقيقة أن نحكم بصحة جماعة من الجماعات من غير أن يكون لدينا من قبل مبدأ أخلاقي محدد ؟] . (١)

وهكذا اتضح لنا أنّ المنطق والعقل يبيِّنان لنا مدى ما في مذهب الوضعيّين من أخطاء ، وخطورة على البشرية كلها ، وأنّه بانعدام الموازين والمعايير التي يحكَم على ضوئها بصحة سلوك ما ، وأخلاقيته أو خطئه ستختلط الأمور في الأذهان ، ويكون الصالح كالطالح سواء بسواء .

وإنني حينما أستشهد بأقوالهم ، واعترافاتهم أنفسهم أبيّن أنّنا لا نتجنى عليهم ، ولا نصفهم بما ليس فيهم ، وإنّما هم أنفسهم الذين بدأوا يدركون ما آلت إليه حياتهم ، من فوضى أخلاقيّة ، ومن تحلل وانحراف أخلاقي ، فقام علماؤهم ، ومفكروهم المنصفون في وجه أفكار الوضعيّين ، وبيّنوا ما فيها من أخطار على البشر كلهم ، ووجّهوا الإنذارات إلى قومهم لينتبهوا ، ويتداركوا أحوالهم ، وما هم عليه من انحراف .

فلو كان حالهم سعيداً لما تمنّوا الخروج منه ، ولَمَا صاحوا في قومهم منذرين ، وذلك لأنّ كل ما يتنافى مع الفطرة السليمة السويّة التي خلق الله الناس عليها لايمكن أن تستروح إليه النفوس ، وتشعر معه بالطمأنينة والراحة النفسية ، وفي الحقيقة فإنّ آثار القول بنسبيّة الأخلاق قد ظهرت في واقع حياة الأوربيّين

---

(١) المرجع السابق صـ ١٣٢ .

فبالنسبة للأفراد : نجد أنّهم يعيشون هذه الحياة لا يعرفون معنى لوجودهم ، ولا هدفاً يعيشون لتحقيقه بعد أن نبذوا الإيمان بالله ، وبالدين فأصبحوا يعيشون في فراغ روحي ، وقلق ، وحيرة من أمرهم ، فهم تائهون لا يعرفون غايةً ، ولا هدفاً يسعون إليه بعد أن قوَّضوا الأسس الثابتة ، والدعائم المتينة التي تقوم عليها الأخلاق والقيم .

إن واقع حالهم اليوم يشهد بما بلغوه من انحدار أخلاقي ، وتحلل من القيم إلى الحضيض إلى درجة لم يسبقهم إليها أحد من البشر .

إنهم بدعوى التطور ، والتقدم ، والحرية مارسوا كل أنواع المحرَّمات ، وجروا وراء النزوات ، والأهواء ، فباسم الحرية الشخصيّة زاولوا أبشع أنواع المنكرات والجرائم فأحلُّوا الزنا ، والشذوذ الجنسي إلى درجة أنهم عقدوا المؤتمرات برئاسة أكابرهم وأعيانهم لتحليل ماحرّمه الله وكل ذلك مارسوه باسم الحرية الشخصية والتطور والتقدم .

يقول الكسس كاريل :

[الحقيقة أنّ من أخطاء مذهب الحريّة الفردية اعتقاد أنّ لكل شخص الحرية في توجيه سلوكه الأخلاقي على النحو الذي يحلو له] (١)

إنّ الحرية التي انتهوا إليها إنّما هي الفوضى الأخلاقية ، والإنهيار التام لكل القواعد التي تقوم عليها حياة البشر .

فماذا كانت النتيجة ؟

هل وصلوا إلى تحقيق ما يرجونه من الطمأنينة ، والإستقرار النفسي والسعادة التي ينشدونها ؟

إنهم ما زالوا ينحدرون إلى الحضيض ، وبلغوا إلى درجة الضياع ، والسأم من الحياة .

---

(١) تأملات في سلوك الإنسان صـ ٨٦ .

ويصوّر أحدهم حالة الإنسان الغربي فيقول :

[إن اللا منتمى هو رجل موزّع النفس وعليه فإنّه ينشد التوحيد النفسي ، وهو أناني بقدر من تؤلمه إحدى أسنانه طوال حياته] . (١)

يقول « الكسس كاريل » :

مبيناً أنّ الحضارة العصرية قد فشلت في توجيههم ، وفي التوصّل إلى مبادىء وقيم تتلاءم مع المستوى الحضاري الذي بلغـوه :

[يتميز العصر الذي نعيش فيه بفشل الحضارة فشلاً عجيبا .. إننا لم نعرف كيف نقود حياتنا الجماعية قيادة حكيمة ، لذلك ها نحن أولاء لا نعرف كيف نسوس وجودنا الفردي ، وهذا العجز عن قيادة أنفسنا بأنفسنا خاصّة يتميّز بها عصرنا ، لقد تحررنا من جميع الإلتزامات التي خضع لها أسلافنا ، ولكننا لم نعرف كيف نستعين بالعلم لكي نصنع درعاً حصيناً لحياتنا العضويّة والعقلية فظللنا دون حماية لنا ضد أنفسنا ، وأصبحنا في حالة عجز صارخ عن تنظيم أفكارنا ، ومراقبة شهواتنا ، وتهذيب حياتنا ، وتربية أطفالنا ، ويشهد هذا الإفلاس بشناعة السلوك الذي أنتجه .

واليوم كما كانت الحال في جميع الأزمات الكبرى أخذت الأقنعة تتساقط ، وظهر بنو البشر بوجوههم الحقيقية ... أما التربية الخلقيّة فعديمة الأثر أو لا وجود لها ، والناس جميعاً لا يدركون ضرورة السلوك تبعاً لقواعد محدّدة موحّدة بالنسبة للجميع] . (٢)

هذا النص يوضّح لنا أنّ العلم الذي اعتمدوا عليه في توجيه حياتهم بعد القضاء على القيم الأخلاقية الثابتة قد فشل فشلاً ذريعـاً في تحقـيق ما يرجون ،

---

(١)نقلاً عن رسالة الفراغ الروحي وأثره على البشرية جـ ١ صـ ٢٣٥ للطالب : جميل عبيد عبد المحسن القرارعة رسالة لنيل درجة الدكتوراة من جامعة أم القري .

(٢) تأملات في سلوك الإنسان صـ ١٨٩ .

ويؤكد هذا المعنى أيضا بقوله :

[لقد هجرنا القواعد التقليدية ثم لم نستطع أن ننظم حياتنا الفردية تبعاً لحقائق علميّة جديدة فقد كنا نهيم بالحرية ، وطاب لغالبيتنا أن تستروح إلى الفوضى ، والإنحطاط اللذين كان من الضروري أن ينجما عن التحلل من كل قيد ، ولكنّنا لم نجد وراء نظمنا التقليديّة تلك الجنّة التي وعدنا بها آباء مذهب الحريــة الفردية الماديّة ، والحقيقة أنّه لا يوجد بيننا إلاّ عدد قليل جداً ممّن يسمح لهم وقتهم وميلهم بالتأمّل ، ومع ذلك فإنّ الحرية التي نشأت بسبب تقدم المذهب العقلي والعلم ، والفنون الصناعية لا تبدوا أمام هذا النفر القليل بالإشراق الذي كان أسلافنا يعزونه إليها سلفاً .

الرجل المتحرر لا يشبه بأيّة حال نسراً يحلّق في رحاب السماء ، بل يُشبه كلباً هرب من مأواه ، وراح يهيم على وجهه تبعاً للمصادفة بين عجيج السيّارات ، نعم إنّه يستطيع على غرار هذا الكلب أن يسلك السلوك الذي يمليه عليه هواه ، وفي وسعه أن يذهب حيث يحلو له أن يذهب ، ولكن ذلك لا يجنّبه طريق الضلال لأنّه لا يعرف أين يذهب ، ولا كيف يحمي نفسه من الأخطار المحيطة به ، وكيف يتأتّى له أن يسترد الطمأنينة الروحية التي كان يعرفها أسلافنا ... لقد كان هؤلاء الناس يكّونون جزءاً من مجتمع يعرف فيه كل شخص مكانه ، ولا يستبعد منه أحد ، في مجتمع يعرف فيه أدنى الناس وأعظمهم أيّ سلوك يجب عليه أن يتّبع وأين يذهب ، وما معنى الحياة ، وما معنى الموت] . (١)

ويقول أيضا :

[لقد قنعنا بأن نكون جراثيم لا تقع تحت البصر ، وتحيا حياة تافهة على ذرة من الغبار تهيم هي الأخرى في سماء خاوية ، إننا غرباء في عالم يحفه الغموض من كل جانب ، ولا تثير فيه أفراحنا ، ورغباتنا وقلقنا أى صدىً ، ولا تقابل الروح في أى مكان منه] . (٢)

من هذا النص يتضح لنا مدى ما وصلوا إليه من ضياع ، وقلق ، وحيرة باتباعهم لشهواتهم وانطلاقهم وراء تحقيق ما يرغبون بدعوى الحرية الشخصية ، والتمرد على القواعد الأخلاقية التقليديّة التي سار عليها أجدادهم .

---

(١) تأملات في سلوك الإنسان صـ ١٤ ـ ١٥ .

(٢) نفسه صـ ١٨ .

والذي يلفت النظر في النص السابق تشبيه الكاتب للمتحرر من القيم ، والضوابط الأخلاقية بالكلب الهارب من مأواه هائماً على وجهه لا يعرف أيّ سلوك يسلك ، ولا أيّ اتجاه يختار .

ولقد سبق القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا من الزمان هذا العالم إلى هذا التشبيه ولعلّه اقتبسه من القرآن الكريم مع وجود بعض الاختلافات .

فالله تعالى يقول في كتابه الكريم :

﴿ واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون ﴾ . (١)

وصدق الله العظيم :

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ . (٢)

يقول سيد قطب في تفسيره للآية السابقة :

[ذلك مثلهم فقد كانت آيات الهدى ، وموحيات الإيمان متلبّسة بفطرتهم ، وكيانهم ، وبالوجود كله من حولهم ، ثم إذا هم ينسلخون منها إنسلاخاً ، ثم إذا هم أمساخ شائهوا الكيان ، هابطون عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان .. مكان الكلب الذي يتمرّغ في الطين .. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى علّيّين ، وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم فإذا هم ينحـــطون منها إلى أســــفل سافلين .] . (٣)

---

(١) الأعراف آيات ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٢) الأعراف آية ١٧٧ .

(٣) في ظلال القرآن جـ ٣ صـ ١٣٩٧ .

وهكذا يصوّر لنا القرآن الكريم حال الذّين يتّبعون هواهم ، وينطلقون لإشباع شهواتهم ورغباتهم دون وازع ، ولا ضابط فهم في ذلك كالحيوان سواء بسواء ، وذلك لأنّهم قد فضّلوا الخلود إلى الأرض ، والركون إلى المحسوس على العلو ، والإرتفاع اللذين يتميّز بهما الإنسان عن الحيوان .

والإنسان كلما انحط بفكره ، وعقله ركن إلى المحسوس فقط ، وفضّل المتاع الحسّي الزائل على النعيم الأبدي الأخروي .

ولقد حرص القرآن الكريم على بيان أنّ هؤلاء الذين يتّبعون أهواءهم ، ويجرون لإشباع نزواتهم إنّما هم كالأنعام تماماً لم ينتفعوا بما وهبهم الله من عقل وإرادة فألغوا عقولهم .

يقول تعالى :

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم ﴾ . (١)

ويقول تعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون ﴾ . (٢)

ويقول تعالى :

﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي مَنْ أضلَّ الله ﴾ . (٣)

وهكذا يحرص القرآن الكريم على توضيح أنّ الذين أزروا بأنفسهم ، وانحطوا بها إلى طلب المتاع الزائل قد أضاعوا منهم كل سمات الإنسانية التي وهبها الله تعالى لهم ، ولذلك فقد شبّههم الله تعالى بالحيوان ، وبيّن لنا أنّهم يتّبعون الباطل ، وشتّان ما بين الذين يسيرون في الحياة مهتدين بهدى الوحي السماوي ونوره ، وبين من يسيرون متبعين الهوى .

---

(١) محمد آية ١٢ .

(٢) الأعراف آية ١٧٩ .

(٣) الروم آية ٢٩ .

فالهوى متقلّب ، ولا ضابط ، ولا مقياس له .

ومن يتَّبع الهوى يكون كأنمًا جعله إلهاً له من دون الله .

يقول تعالى :

﴿ أفرأيت مَنْ اتخذ إلهه هواه وأضلَّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون ﴾ . (١)

ويقول تعالى :

﴿ ومن أضلُّ ممَّن اتبع هواه بغير هدىً من الله ﴾. (٢)

ويقول تعالى :

﴿ أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ . (٣)

فالبون شاسع بين من يسير في حياته على نور وبصيرة من الله ، وبين من يسير وراء شهواته ونزواته ، فالأول يكون مطمئن النفس ، واثقاً من أنَّه يسير على الطريق المستقيم ، والثاني يكون مضطرباً ، لايهدأ له قرار ولا يستقر على رأي .

يقول تعالى :

﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ﴾ . (٤)

[فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان ، وفي المنهج والسلوك فالذين آمنوا على بيِّنة من ربهم رأوا الحقَّ وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقّوا وهم على يقين مما يتلقون غير مخدوعين ، ولا مضلَّلين ، والذين كفروا زُيِّن لهم سوء عملهم فرأوه حسناً وهو سيء ولم يروا ، ولم يستيقنوا ، واتبعوا أهواءهم بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل] (٥)

(١) الجاثية آية ٢٣ .

(٢) القصص آية ٥٠ .

(٣) الفرقان آية ٤٣ ..

(٤) محمد آية ١٤ .

(٥) سيد قطب ـ في ظلال القرآن جـ ٦ صـ ٣٢٩١ .

ويقول تعالى :

﴿ ولو اتبع الحقُّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ . (١)

[فالحق واحد ثابت ، والأهواء كثيرة متقلِّبة ، وبالحق الواحد يُدبَّر الكون كله ، فلا ينحرف ناموسه لهوىً عارض ، ولا تتخلَّف سنَّته لرغبة طارئة ، ولو خضع الكون للأهواء العارضة ، والرغبات الطارئة لفسد كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسدت القيم والأوضاع ، واختلت الموازين ، والمقاييس ، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضا ، والكره والبغض ، والرغبة والرهبة ، والنشاط والخمول ، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد ، والإنفعالات والتأثرات] .

وبناء الكون الماديّ ، واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات ، والإستقرار ، والإطراد على قاعدة ثابتة ، ونهج مرسوم لا يتخلّف ، ولا يتأرجح ، ولا يحيد .

[ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون ، وتدبيره جعل الإسلام التشريع للحياة البشريّة جزءاً من الناموس الكلي تتولاه اليد التي تدبّر الكون كله ، وتنسِّق أجزاءه جميعاً ، والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرِّع لهذا الجزءَ مَنْ يُشرِّع للكون كله ، ويدبِّره في تناسق عجيب ، بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل] . (٢)

وهكذا اتضح لنا من خلال آيات الكتاب الكريم أنّ السبب الرئيسي لما يعانيه الناس في الغرب من شقاء ، وضياع إنّما هو ابتعادهم ، وإعراضهم عن منهج الله تعالى سواء كان في العقيدة ، أم في الأخلاق ، واتباعهم الهوى ، والنزوات ، وهذا الهوى غير ثابت فما يراه اليوم حقاً يراه غداً باطلاً ، وما ذاك إلاّ لتقلّب الهوى ، والشهوات .

---

(١) المؤمنون آية ٧١ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٤ صـ ٢٤٧٥ .

وما مظاهر الإنتحار التي سادت في المجتمعات الأوربية إلاّ دليلاً على هذا الشقاء الذي يعانيه أبناء هذه المجتمعات ، فبالرغم من أنّ بعضهم حقّق آماله ، وما ينشده في حياته من مالٍ ، وجاهٍ ، وشهرةٍ ، ووصل إلى كل ما كان يصبوا إليه إلاّ أنّه بالرغم من ذلك قد فضّل الإنتحار ، والتخلص من الحياة على الحياة بلا هدف ، ولا غاية ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها :

[الشاعر الإيطالي الشهير « ساندرولينا » الذي أمضى أخريات أيامه في نحيب مستمر ، ويأس مرير ، وتشتت ذهني لا يُطاق دون أن يعرف لذلك سبباً واضحاً .

[والأديب الكبير أرنست همنجواي] انتحر وهو في قمة مجده بعد حياة مترعة بالخيبة .. والشاعرة الروسية « بيلا أحمد ولينا » قالت : معظم شعراء روسيا ماتوا منتحرين وأنا نفسي أفكر في هذا الموضوع .

[والأمير رودلف ولي عهد النمسا] انتحر عام ١٨٨٩ بأن أطلق على نفسه الرصاص .(١)]

ومن ذلك تبيّن لنا أنّ الشرود عن منهج الله ، والتمرد على الضوابط ، والقواعد الثابتة التي تحكم سلوكيات الناس يؤدّي بهم إلى عبادة الهوى ، والشيطان ، وبالتالي إلى الضياع .

وبعد فهذه بعض آثار القول بالنسبيّة الأخلاقية في حياة الأفراد . أما بالنسبة لآثار القول بالنسبيّة الأخلاقية في حياة المجتمعات فإنّنا نجدها تتجلّى في مظاهر عديدة منها :

- شيوع الطلاق ، وانهيار الأسر ، وتفككها ، وما ذاك إلاّ لتفلّت الناس من الضوابط ، والقيود التي تتحكّم في سلوكياتهم ، وتحررهم ، وجريهم وراء شهواتهم ، وفي الحقيقة فإنّ أكثر النتائج سوءاً للقول بالنسبيّة الأخلاقية يتجلّى في إفساد المرأة وإشاعة المنكرات من الزنا والشذوذ فدعوى التطور والحرية

---

(١) نقلا عن رسالة : الفراغ الروحي وأثره على البشرية ، جميل عبيد القرارعة جـ ٢٦٩ جامعة أم القرى / قسم العقيدة رسالة دكتوراه .

الشخصية وجدت مجالها في الناحية الجنسية بصورة خاصة ، حتى أصبحت الحرية تعني الفوضى والإنطلاق من كل الضوابط ، والقيم [لقد وصلت إلى درجة مرضية من الحدة ، ولا شك أنّ فلاسفة عصر النور هم الذين مكّنوا لعبادة الحرية بصورة عمياء في أوربا وأمريكا ، فراحوا باسم العقل يزرون بجميع النظم التقليدية ، وبذلك رسموا هذه القيود في أعين الناس بميسم الشناعة ، أو البغض ، وحينئذٍ بدأت المرحلة الأخيرة من الصراع ضد القواعد التي رضي أسلافنا بأن تهيمن على سلوكهم ، وهي القواعد التي اشتركت في بنائها الأخلاقية الدينية ، والتجارب القاسية التي مرت بها الإنسانية خلال آلاف السنين] . (١)

إن النتيجة التي انتهت إليها الحرية الشخصية ، هي إشاعة الفاحشة والمنكرات في مجتمعات أوربا ، وقد أصبح الشباب هناك لا هم له إلاّ إشباع هذا الدافع بشتّى الطرق ، والوسائل .

ولقد كانت « فرنسا » هي المنطلق الذي انطلقت منه هذه النظريات التي تدعو للنسبيّة الأخلاقية ، وإشاعة الفواحش ، ولذلك فقد ظهرت آثار القول بالنسبيّة فيها أول ما ظهرت .

إن النتائج التي إنتهت إليها فرنسا في الحرب العالمية وما آلت إليه من انهيار سريع دليل على تمكن الشهوات فيها وعجزها لذلك عن الصمود بالرغم من امتلاكها لأحدث الأسلحة .

يقول الأستاذ « محمد قطب » :

[جاءت الحرب وفرنسا ماخور كبير غارق في حمأة الجنس المسعور .

وحدث ما لا بدّ أن يحدث ، انهارت فرنسا في أيام لا لأنها لا تملك السلاح . فقد كانت أحدث الأسلحة وأفتكها في أوربا كلها ملك فرنسا ، وكانت تحصينات خط ماجينو أشد ما عرف ذلك الحين ـ ولكن لأنها لا تملك الروح التي تحارب ، ولا تملك الكرامة التي تدافع عنها ، ولأنها خشيت على مراقص باريس ، ومواخيرها من قنابل الألمان فسلمت في أسبوعين من الزمان] . (٢)

---

(١) الكسس كاريل : تأملات في سلوك الإنسان .

(٢) جاهلية القرن العشرين صـ ١٦٤ . دار الشروق طبعة عام ١٤٠٣ هـ .

وهكذا كل البلاد التي تركت منهج الله ، وتركت العنان لشهواتها دون قيد ، ولا ضبط انتهت إلى هذه الحالة .

ومن آثار القول بالنسبيّة الأخلاقية ، والفوضى الجنسية كثرة اللقطاء في تلك المجتمعات ، وهؤلاء اللقطاء تمتلىء قلوبهم حقداً ، وغلاً على مجتمعاتهم ، فهم ينشأون لا يعرفون حنان الأبوة ، ولا يعرفون معنى الإستقرار النفسي ، فيترجمون مشاعرهم هذه بالأعمال الإجرامية التي يقومون بها عدواناً على مجتمعاتهم .

ولذلك أصبحت جرائم الأحداث ظاهرة تسترعي الإنتباه في تلك البلاد ، فقد [سجلت جرائم الأحداث في الولايات المتحدة ارتفاعاً ملحوظاً كعادتها منذ ١٢ سنة على التوالي حيث بلغ عدد الأولاد الذين مثلوا أمام محاكم الأحداث حوالي المليون بعد أن كان هناك ٧٧٣ ألف قضية أمام محاكم الأحداث عام ١٩٥٩ م ومشكلة الأحداث تثير الأمة الأمريكية ، ولا سيّما بسبب امتدادها إلى الطبقات العليا في المجتمع كما أنّ هناك نسبة عالية من الإنحراف بين الفتيات ، ويثرن مشكلة كبيرة في كيفية التصرّف معهن لأنّ معظم مؤسّسات الأحداث خاصة بالأولاد] . (١)

والجريمة في تلك البلاد بصفة عامة في تزايد مستمر ، وبصورة بشعة تدل على أنّ الذين يرتكبونها قد تخلّوا عن انسانيّتهم ومشاعرهم .

إن الفساد منتشر في جميع مناحي الحياة في أوربا ، وهذا ما تصوّره حالة الناس هناك ، وأخبارهم التي تصل إلينا .

وقد أدرك بعض مفكريهم ، وعقلاؤهم الخطر الذي يهدد حياتهم فأطلقوا صيحات الإنذار لقومهم عساهم يرتدعوا ، ويفيقوا من غفوتهم ، ويتداركوا ما هم فيه من انحلال ، وتحلل ، وهذا دليل على أنّ كل من ينحرف عن الفطرة السوية ، ويحاربها ، ويبتعد عن منهج الله الواضح ينتهي إلى هذا المصير ، فلو كان واقعهم سعيداً ـ كما يحاول البعض منهم أن يوهموا الناس به ـ لما تمنّوا الخروج منه ، ولما أنذر علماؤهم قومهم بما سيؤول إليه أمرهم .

---

(١) نقلاً عن التطور والثبات في حياة البشرية صـ ١٧٢ـ لمحمد قطب .

يقول الكسس كاريل في وصف الفساد الذي انتهوا إليه :

[إننا نواجه مشاكل أعظم خطورة تحتاج إلى حل سريع إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال ، والسل والدفتريا والحمى التيفودية ، فقد حلت محلها أمراض الفساد والإنحلال ، فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي ، والقوى العقلية .. ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى ، وكالجنون فإنّ الإضطرابات العصبيّة ، وضعف القوى العقلية آخذة في الزيادة ، وهي أكثر العناصر نشاطاً في جلب التعاسة للأفراد ، وتحطيم الأسر .. إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن] . (١)

ويقول رينيه دوبو :

[الآن يعتقد المتنبؤن المتشائمون أنّ البشريّة في طريقها إلى تدمير نفسها بنفسها ، وإذا لم يحدث ذلك ـ وهذا احتمال ضعيف ـ فستسير البشرية قدماً نحو التخلي عن قيم ـ ورفاه المدنية الغربية ، فالأسلحة النوويّة ، وتلوث البيئة ، وانقطاع التيار الكهربائي ، وانعدام الطاقة ، والفساد المتنامي في الآداب المدنية ، كل هذه الأمور تشكّل تهديدات واضحة مباشرة للوجود الإنساني] . (٢)

يقول الكسس كاريل مؤكدا نفس الحقيقة :

[يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه ... إنّه لم يستطع أن ينظّم دنياه بنفسه لأنّه لا يملك معرفة علميّة بطبيعته .. ومن ثمّ فإنّ التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية .. فالبيئة التي ولدتها عقولنا ، واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ، ولا بالنسبة لهيئتنا .. إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً .. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي ، على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربريّة والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : تعريب شفيق أسعد صـ ٣٤ مكتبة المعارف .

(٢) إنسانية الإنسان صـ ٤٢ تعريب : نبيل صبحي الطويل ـ مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة عام ١٤٠٧ هـ

العدائية التي شيّدها العلم حولها ..... إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولّد عن نظمهم السياسية والإقتصادية والإجتماعية] (١)

ويلتقي « رينيه دوبو » مع « الكسس كاريل » في تقرير ما بلغوه من يأس ، وتشاؤم ، وما ذاك إلاّ لانفلاتهم من الضوابط ، والقيم الأخلاقية النابعة من الدين ، وجريهم وراء الشهوات ، والنزوات ، وظنهم أنّ العلم وحده هو الذي سيحقّق لهم آمالهم ، فجاءت النتيجة على عكس ما كانوا يأملون ، ويرجون ، فالمنجزات المادّية لم تستطيع أن تملأ خواء أرواحهم من العقيدة التي لا يمكن للنفس أن تشعر بالسعادة ، والطمأنينة إلاّ في ظلها .

يقول « رينيه دوبو » :

[نشرت المنجزات الإجتماعية ، والتكنولوجيّة الرفاه الإقتصادي وزادت الرخاء ، كذلك زادت سرعة وسائط النقل ، وكافحت بعض أنواع من الأمراض ، ولكن الكفاية المادية التي نتجت لم تزد كثيراً في السعادة ، وفي معنى الحياة ، ومن التناقض أن يكون عصر الرخاء ، والعجائب التكنولوجيّة ، والمعجزات الطبيّة هو أيضاً عصر الأمراض المزمنة والقلق .. واليأس ، وظهرت أعراض « الغثيان الوجودي » أي « القرف من الحياة » في عقر دار مجتمعات الرفاه المادّي ، وفي أكثر أجزاء العالم تقدماً تكنولوجياً ، وتتكاثر في هذه المجتمعات ـ مشاكل فكريّة شديدة كالنزاع العنصري ، والفقر المادّي ، والعزلة العاطفية ، والقباحة المدنية ، في الحواضر الكبرى ، والمظالم بكل أشكالها وأنواعها ، والجنون العام الذي يسبّب تهديداً دائما بالحرب النووية ، والجذور العميقة للقلق المعاصر موجودة في البنية النفسيّة للفرد ـ كل فرد ـ من أفراد هذه المجتمعات ، وأكبر مشكلة حادة في الحياة المعاصرة هي في الغالب شعور الإنسان أن الحياة فقدت معناها ، فالمشاعر الدينية ، والتقاليد الإجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلميّة ، وسخافة الأحداث العالمية الباطلة ، ونتيجة لذلك انتشر تعبير « مات الإله » بصورة واسعة في الأوساط اللاهوتية والعلمانية على السواء ، وبما إنّ فكرة الإله كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعة : الخلق والمخلوقات ، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة ، لا قرار له] . (٢)

---

(١) الإنسان ذلك المجهول صـ ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) إنسانية الإنسان صـ ٤٦ ـ ٤٧ .

وهكذا اتضحت لنا الحالة التي آل إليها المجتمع الغربي ، وذلك على لسانهم أنفسهم ، فصوّروا لنا حالة الضياع ، والتشتت التي يعيشونها، حيث لم تجدِ المخترعات الحديثة ، ولم تنفعهم ، ولم تستطع أن تزيل عن أنفسهم الشعور باليأس .

إن النتيجة التي وصلت إليها المجتمعات الغربية بالرغم من جميع الملهّيات ، والمسلّيات التي انغمسوا فيها هي الشعور « بالغربة » كما يقول « رينيه دوبو » : الغربة كلمة مبهمة إلاّ أنّها تعبير عن حالة منتشرة بصورة هائلة الآن في مجتمعات الرفاه المادي . (١)

ويقول أيضا :

[الإنسان العصري قلق حتى ولو كان في زمن السلم ، وفي جو البحبوحة الإقتصادية لأنّ عالم التكنولوجيا الذي يشكل محيطه المباشر ، والذي فصله عن عالم الطبيعة الذي تطوّر الإنسان فيه أصلاً فشل ـ أي عالم التكنولوجيا ـ في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغيّر ولم تتبدّل ، ومن نواح كثيرة يشبه إنسان العصر « الحيوان البري » الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات ، فالإنسان الآن كهذا الحيوان .. يتوفّر له الغذاء الكافي ، والحماية الكافية من القسوة ، ولكنه يحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من ظائفه الجسدية والفكريّة] . (٢)

ومن هذا النص يتضح لنا إتفاق معظم علماء أوربا على تصوير الحالة التي وصلت إليها المجتمعات الأوربية من يأس وقلق ، واتفاقهم على تصوير الإنسان المتفلت ، المنطلق في هذه الحياة وراء الشهوات والأهواء بالحيوان الذي لا همّ له إلاّ إرواء ظمئه ، وإشباع حاجاته الحسّية فقط ،أما ما عدا ذلك فلا يهمه في شيء ، والإنسان الغربي ـ باعتراف علمائهم وصل إلى هذه الدرجة ، وإلى هذا الدرك من الحضيض .

---

(١) إنسانية الإنسان صـ ٤٧ .

(٢) نفسه صـ ٤٩ .

يقول رينييه دوبو :

[تعب الكثير من الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم ، وانهك هذا الصراع البالغين ، أما المراهقين فلقد أصبحوا لا يجدون فيه أيّة قيمة تذكر ، وعندما يُشاهد هؤلاء جميعاً تعقيد الحياة المدوِّخ والجهود المهووسة لاختراع تكنولوجيات جديدة لتُحلّ مشاكل خلقتها التكنولوجيات نفسها يعلو صراخهم : « قفوا هذا العالم فنحن نريد أن نخرج منه »] (١)

وإذا علمنا النتائج التي انتهى إليها القائلون بالنسبيّة الأخلاقية الداعين إلى التحرر من ضوابط الأخلاق الثابتة ، والمعايير الراسخة فإنّنا نعجب لأمر الذين يحملون لواء القول بالنسبيّة الأخلاقية في بلاد المسلمين ، من أساتذة الجامعات ، والقائمين على التعليم العالي فيها الذين يروِّجون لعلم العادات الأخلاقية الذي أسّسه « ليفي بريل » مستوحياً أفكار أستاذه « أوجست كونت » ومن هؤلاء الداعين إلى نسبيّة الأخلاق بتحمس واندفاع أذكر مثلاً :

مترجم كتاب « المدخل إلى علم الأخلاق » (*) الذي نراه متحمّساً لفكرة « ليفي بريل » في أن يحلّ علم العادات الأخلاقية محل علم الأخلاق المعيارية وهو يوافق « ليفي بريل » فيما يذهب إليه ، والأمرُ من ذلك أنَ مؤلف الكتاب المذكور (**) يذهب إلى اعتبار الأخلاق علما معيارياً ، ولكن المترجم العربي ، والأستاذ المذكور يعيب عليه ذلك ، ويكرر نفس آراء « ليفي بريل » ، ويرفض الإيمان بمعيارية القيم والأخلاق **فيقول في هذا الصدد ما نصُّه :**

[إننا لا نقبل قول المؤلف بأن الأخلاق علم معياري .

ثم يقول أيضا : [من التناقض أن نجمع بين كون الأخلاق علماً ، وبين كونه معيارياً إذ يقال لا يوجد علم معياري ، ولقد أصبح هذا الرأى شائعا منذ ظهور كتاب « ليفي بريل » المسمى « علم العادات الأخلاقية » فالأخلاق كما تصوّرها الفلاسفة إنما تفرض علينا مثلاً علياً أو معايير يجب أن يرقى إليها

---

(١) إنسانية الإنسان صـ ١٧١ .

(*) هو الدكتور : علي عبد المعطي محمد أستاذ بكلية الآداب جامعة الأسكندرية .

(**) مؤلف الكتاب هو « وليام ليلي »

السلوك الإنساني إذا أُريد به أن يكون خلقياً ، وهذا هو ما لم يسمح لها بأن تقوم كعلم طوال تاريخ الأخلاق ، وهي لكي تصبح كغيرها من العلوم الإجتماعية يجب ألا تكون معياريّة] . (١)

ويقول أيضا :

[إنّ الأخلاق وغيرها إذا أرادت أن تكون علماً بكل معاني الكلمة فلابدّ من ابتعادها عن فكرة المعيارية هذه أي لابدُ أن نكتفي بأن نتقصّى الوقائع ، وتدرس السلوك الإنساني كما هو حادث في المجتمعات وتستنبط منها القوانين الخلقية ، وتلزم الناس بها .

ومن ثم فإن الأخلاق إذا أريد لها أن تقوم كعلم حقيقي فيجب ألا نتصوّرها تصوّراً معيارياً ، ولا تكون معبّرة عن أحكام معياريّة لأنّه من التناقض أن نجمع في شيء واحد بين كونه علـــماً ، وكونه معياريـــاً ، فهذا شيء ، وذاك شيء آخر] . (٢)

وهكذا اتضح لنا أنّ هذا المؤلف الذي يقوم بمهمة تعليم الأجيال الناشئة من أبناء المسلمين يزرع هذه الأفكار المسمومة التي آمن بها ، واقتبسها من أساتذته الغربييّن فهو يرفض فكرة الأخلاق الثابتة المعياريّة ، ويؤمن بالعلم الذي ينادي به الوضعيّون ، وعلى رأسهم « ليفي بريل » والذي سمّوه « بعلم العادات الأخلاقية » ، ولقد تبيّن لنا من خلال دراستنا السابقة أن هذا العلم يهدف في الحقيقة إلى القضاء على الأخلاق قضاء باتاً ، ويدعو إلى استنتاج الأخلاق من واقع الحياة في المجتمعات ، ولقد تبيّن لنا أنّ الواقع العملي الذي يعيشه الناس لا يعبِّر عن الأخلاق ، فقد يكون هذا الواقع منحلاً ، ومتحللاً من الأخلاق كما هو حال المجتمعات الأوربيّة بصفة عامة التي غلبت عليها المنكرات ، والرذائل ، وشاعت إلى درجة أنّه لم يسلم من شرها إلاّ القليل ، فكيف يمكن أن يستقي الوضعيّون مبادىء الأخلاق من هذا الواقع ؟ وكيف يمكن أن يُوصف هذا التحلل ، وهذا الإنحلال بأنه أخلاقي ؟

---

(١) من مقدمة ترجمة كتاب « المدخل إلى علم الأخلاق » المترجم : علي عبد المعطي محمد صـ ١٨ .

(٢) نفسه صـ ١٩ .

إنهم لا يؤمنون بأي قوة تفرض مبادىء الأخلاق ، ولا يؤمنون بوجود الفطرة ، ولا بوجود مبادىء قبليّة للأخلاق ، ويقولون إنّ الأخلاق لا يمكن أن تكون معياريّة لأنّه لا يوجد علم معياري ــ كما علمنا هذه الأقوال كلها والردّ عليها ــ وهذا كله في الحقيقة يهدف إلى ترك الناس على ميولهم ، وأهوائهم يفعلون ما يشاءون بحجة أنّه ليست هناك مبادىء تفرض على الناس ، بل ما يمارسه الناس في الواقع هو الأخلاق ، وهو الذي يجب أن يحدِّد المبادىء والقيم .

يقول الدكتور ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني :

[ما قيمة مفاهيم الناس حول حقيقة من الحقائق ؟ ولنفرض أنّ بعض الناس استحسنوا رذائل الأخلاق ولم يجدوا أيُّ رادع من ضمائرهم يردعهم عنها فمارسوا الظلم بمثل الجرأة التي يمارسون بها الأمانة ، ومارسوا قسوة القلب بمثل الجرأة التي يمارسون بها الشفقة والرحمة ، ومارسوا الكذب الضار بمثل الجرأة التي يمارسن بها الصدق النافع أفيغير ذلك من واقع حال الرذائل فيجعلها من قبيل الفضائل ؟

كم نشاهد من شعوب تألف القذارات ، وتعيش فيها ، ولا تشعر بأنّها تعمل عملاً غير مستحسن ، أو غير جميل فهل تغيُّر مفاهيمهم من واقع حال القذارة القبيح شيئاً ؟

إن فساد مفاهيم الناس حول حقيقة من حقائق المعرفة لا يغيِّر من واقع حال هذه الحقيقة شيئا ، وجميع حقائق المعرفة تتعرض لمشكلة فساد مفاهيم الناس عنها ، وفساد تصور الناس لها] . (١)

إنَّ ماعليه المجتمعات الأوربية لو كان تطوراً حقيقياً لما لفظته الفطر السليمة ولما نادى عقلاؤها بضرورة العودة إلى المبادىء الأخلاقية الثابتة ، وإلى الضوابط التي تكبح جماح الشهوات والأهواء ، وتضبط المجتمعات .

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها : الجزء الأول صـ ٩٥ الطبعة الأولى عام ١٣٩٩ هـ دار القلم ــ دمشق ، بيروت .

[إن الجانب الخلقي ـ على الأقل ـ من حياة الإنسان ذو مقياس ثابت يُقاس به في جميع الأجيال فما كان صواباً في علاقات الناس ، وعلاقات الجنسين بصفة خاصة ـ قبل ألفي عام ـ ما يزال هو الصواب ، وما كان خطأ وانحرافاً في تلك العلاقات ما يزال هو الخطأ والإنحراف بعد كل التقدم العلمي ، والتطور الإجتماعي والإقتصادي والسياسي ، « والتحور » النفسي في ألفين بل ألوف من الأعوام .
وخلاصة ذلك كله أنّ أيَّ نظام لحياة البشرية ينبغي أن يجعل في حسابه ذلك المقياس الثابت للأخلاق مهما كانت مرونته في الجوانب الماديّة ، والإقتصادية والإجتماعية ، والسياسية التي ينبغي أن تنمو ، وينبغي أن يسمح لها بالنمو في ظل أي نظام صالح للحياة] . (١)

إن ثبات القيم ، والمباديء الأخلاقية هو الذي يقي الناس شر الوقوع في الإنحدار ، والتحلل الذي ليس له مثيل في تاريخ البشر كما هو حاصل الآن في أوربا وقد أدرك علماؤهم هذه الحقيقة بعد الدراسة الواعية المستفيضة لأحوال تلك الأمم ، والشعوب التي شاعت فيها النسبيّة الأخلاقية .

يقول الكسس كاريل ـ مقرراً هذا الأمر :

[وقصارى القول أنّ الخير والشر لا يختلفان باختلاف العصور والبلدان ، وهما أيضا أمران حقيقّيان ثابتان ثبات الميول الجوهرية للحياة ، ولا يتوقّف تعريفهما على مذاهبنا النظرية أو على أذواقنا ، ولكنه واحد بعينه بالنسبة إلى جميع الكائنات البشرية] . (٢)

ويقول مبيناً ما تؤدّي اليه الرذائل ، وارتكابها في حياة الناس :

[الخطيئة تؤدّي إن عاجلاً ، وإن آجلاً إلى التدهور ، والموت ، التدهور والموت للجاني نفسه ، أو للوطن ، أو للنوع ، ولهذا يجب على كل فرد أن يكون قادراً على التمييز بين الخير والشر] . (٣)

---

(١)محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشرية صـ ١٧٤ .

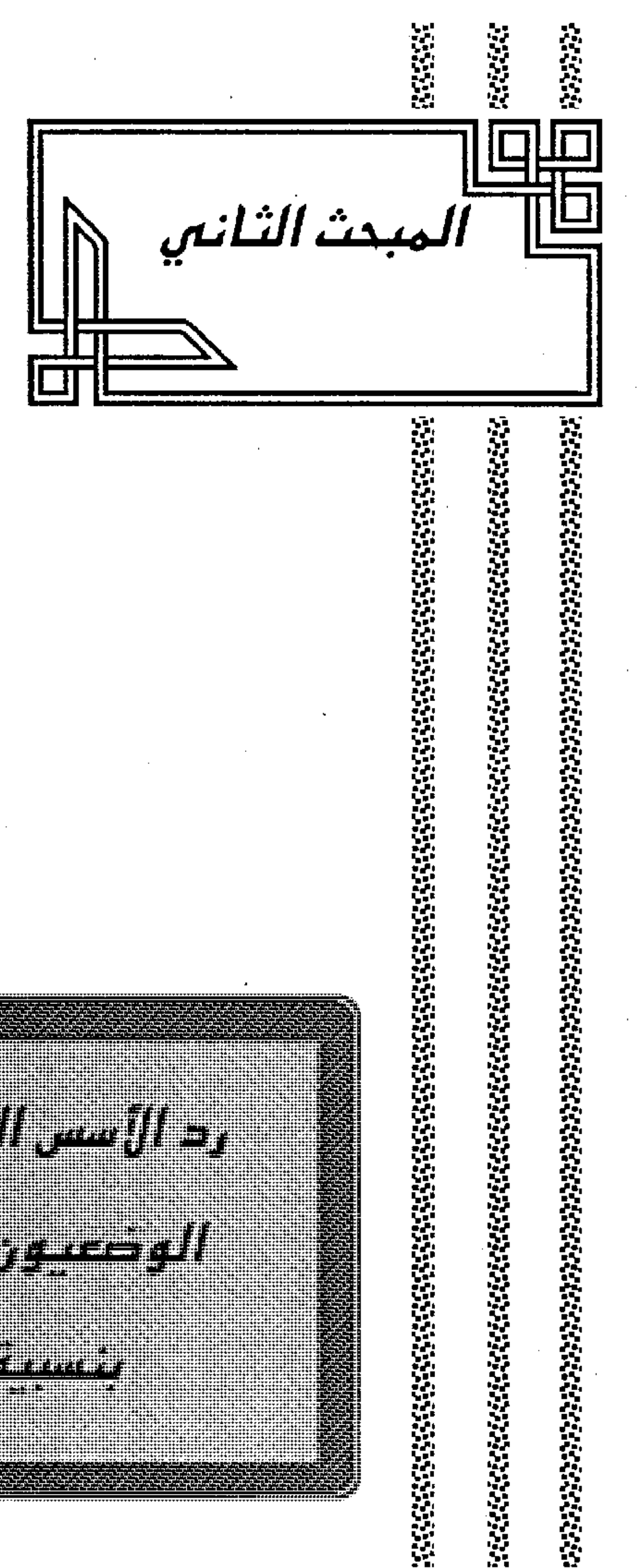
(٢)تأملات في سلوك الإنسان صـ ٩٤ .

(٣)نفسه صـ ٩٥ .

لقد ثاب بعض علمائهم إلى رشدهم بعد رؤيتهم للنتائج التي تسبّبت عن القول بالنسبيّة الأخلاقية ، ولذلك فقد عادوا يؤكدون على ثبات القيم ، والمبادىء الأخلاقية وهذا يبيّن لنا عظيم نعمة الله تعالى علينا الذي لم يتركنا نتخبّط في هذه الحياة من غير هدىً ، ولا كتاب منير ، بل تكفَّلنا سبحانه بنعمته ، وأرسل لنا رسلاً لهدايتنا ، وإنارة الطريق لنا بنور الوحي الإلهي ، ولذلك فإنّ المسلم يسير في هذه الحياة هادىء النفس ، مطمئن القلب إلى أنّه يسلك الطريق الصحيح الذي أرشده الله تعالى إليه فهو سبحانه عنده علم ما كان ، وما سيكون ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فيسلم المسلمون باتباعهم لهذا المنهج من التخّبط ، والإضطراب الذي انتهى إليه الأوربّيون اليوم ، وقد رأينا أنّهم بابتعادهم عن منهج الله ، وإعراضهم عنه سلكوا مختلف المسالك ، والطرق ، وجربوا مختلف المذاهب ، وصاروا يخلعون هذه المذاهب واحداً تلو الآخر بعد أن أكدت لهم التجربة فساد هذه المذاهب ، ومخالفتها للفطرة السويّة . وخير مثال على ذلك انهيار الشيوعية بعد أن ثبت لأهلها فشلها الأكيد ، وعدم قدرتها على تلبية حاجات الناس ، ولكن بعد أن قُتِل في سبيل ذلك الآلاف ، بل الملايين من البشر .

وهذه هي نتيجة التجريب في المذاهب ، فالخسارة فيها خسارة أرواح عزيزة من بني الإنسان ، بينما التجريب في المواد لا يؤدّي إلى إلاّ خسارة في تلك المواد .

وبذلك فقد تبيّن لنا عظمة الإسلام وأنّه بمبادئه السامية الثابتة هو المنهج الوحيد الذي يحقق سعادة الإنسان ، ورفاهيته .



المبحث الثاني

رد الأسس التي اعتمدها الوضعيون في قولهم بنسبية الأخلاق

المبحث الثاني

رد الأسس التي اعتمدها الوضعيون في قولهم بنسبية الأخلاق

لم يرتض الوضعيون أن يقوم علم الأخلاق النظري على مبادئ كليّة عامة ، وثابتة تصلح في كل زمان ، ومكان ، وتبيّن للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه سلوكه وتوجّهه إلى الغاية التي ينبغي عليه أن يتوخاها ، وترسم له المثل الأعلى الذي ينبغي أن ينشده ، وقالوا إنّ فكرة هذا العلم التي يقوم عليها إنما هي فكرة متناقضة في أصلها إذ لا يمكن أن يكون العلم نظرياً ، وعملياً في آن معاً بحيث لايمكن أن يضع النظريات ، ويأمر بما ينبغي أن يكون في نفس الوقت .

وكذلك انتقدوا هذا العلم ، وقالوا إنّه لا فائدة منه ، وذلك لأنّه يستقي مبادئ الأخلاق من الواقع الذي يعيش فيه الناس ، ويبني على ذلك نظرياته ثم يزعم بعد ذلك أنّه يعتمد على المبادئ الثابتة ، والدليل على ذلك ـ كما يقولون ـ هو اتفاق المذاهب الأخلاقية على المبادئ العمليّة بالرغم من انطلاق كل منها من مبدأ يخالف الآخر فبعضهم ينطلق من مبدأ المنفعة ، والبعض من مبدأ اللذة ، . وهكذا .

وذلك بخلاف المفروض حيث إنّ كل علم يضع النظريات أولاً ، ثم يصل إلى التطبيقات التي يوصي بها على ضوء ذلك فتختلف التوصيات باختلاف النظريات لا كما هو حاصل في علم الأخلاق النظري ، الذي لا يأتي بجديد في مجال السلوك العملي ، بل يصف ما عليه واقع الناس وإضافة لذلك أخذوا على علم الأخلاق أنّه يقوم على مبدئين باطلين هما :

المبدأ الأول : تسليمه بالفكرة القائلة بوجود طبيعة بشرية ثابتة يمكن أن يقوم على أساسها قانون أخلاقي واحد يطبّق على الناس بصرف النظر عن اختلاف ظروفهم ، والعصور التي وجدوا فيها .

والمبدأ الثاني : تسليمه بأنّ الضمير وحدة متجانسة ، متضامنة في محتوياته

وكلا هذين المبدأين باطلين ـ في نظر الوضعيّين ـ ، وذلك لأنه ليست هناك طبيعة بشريّة ثابتة في ذاتها في جميع العصور ، والأقطار حتى يمكن تحديد قواعد ومبادىء للسلوك ليسير بمقتضاها الإنسان ، والعلم الحديث أثبت ذلك فالمعلومات التي توّصل إليها الرحالة الذين جابوا مختلف نواحي العالم تثبت اختلاف الناس في أحكامهم الأخلاقية على الفعل الواحد ، واختلاف هذه الأخلاق من مكان لآخر باختلاف الأقاليم ، والبيئات التي وجدوا فيها .

وكذلك فإنّ الواقع ـ كما يقولون ـ يرينا أنّ الضمير الأخلاقي لا يؤلف وحدة متجانسة ، وإنما يتنازعه مختلف الواجبات ، التي تجعل الضمير في بلبلة وحيرة من أمره .

وبناءً على ذلك كله فقد رفض الوضعيّون علم الأخلاق النظري ، ورفضوا الأخلاق المعياريّة التي تحدِّد القواعد ، والمبادىء التي يجب على الناس التمسك بها ، وقالوا إنّ الأخلاق نسبيّة تختلف باختلاف الأمم ، والهيئات ، والبيئات ، فلكل مجتمع ، ولكل عصر أخلاقه التي تتناسب مع ظروفه ، وأحواله ، ولذلك فعلى من يريد دراسة الأخلاق ، ومعرفتها أن يتجه إلى الواقع الفعلي ، ويستقي منه مبادىء الأخلاق ، ويقوم بتصنيفها بعد ذلك .

هذا ملخص لفكرة الوضعيّين وللأسس التي أقاموا عليها رفضهم للأخلاق المعياريّة والمطلقة .

فبالنسبة إلى الإعتراض الأول الذي يتلخص في أن الفكرة التي يقوم عليها علم الأخلاق النظري فكرة متناقضة ، وخاطئة ، وذلك لأنّ العلم ـ كما يقول « ليفي بريل » ـ يهدف إلى معرفة الحقيقة الواقعيّة ، أما المعيار أو المقياس فإنّه يختص بالسلوك فقط ، ولا يخضع للمعرفة إلا على اعتبار أنّه نتيجة لها .

وعلم الأخلاق النظري أو المعياري يجمع بين هاتين الحالتين التي لا يمكن أن تكونا إلاّ متعاقبتين ، ويخلط بين المجهود الذي يوصل إلى المعرفة ، والمجهود الذي يوصل إلى وضع قواعد للسلوك .

فقد رد الدكتور « محمد عبد الله دراز » على هذا الإعتراض بقوله :

[إن كلمة « الواقع » في تعريف الفلسفة بأنّها « البحث عن حقائق الأشياء على ماهي عليه في الواقع » لا تعني الواقع في الزمن الحاضر بل في الحقيقة ، ونفس الأمر سواء كان وقوعه في الماضي ، أو الحال ، أو الإستقبال فتشمل ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ، وتشمل النهائي واللا نهائي .

« وبالجملة فإنّ التأمل الفلسفي يتناول كل ما يتعلق به الفكر ، ويخطر بالبال ، لمعرفة الحق فيه ، بل يتناول الفكر نفسه ، وحدود عمله ، ومنهاج سيره ، وما فيه من مبادىء ثابتة أو متحوّلة ، وما يتطلّع إليه من قيم عالية ، أو نازلة ، فلا عجب إذاً أن يكون للأخلاق فلسفة كما للعقائد فلسفة ألا وإنّ الفلسفة في كل شأن تتناوله تردُّ الفروع فيه إلى أصولها الأولى ، وقواعدها العامة ، وتزن كل طائفةٍ من المعاني بميزانها اللائق بها ، فتزن الأحكام والأوامر الأخلاقية بميزان العدل والقسط طبقا لمنطق القضايا الإنشائية ، كما تزن العقائد والقضايا الإخباريّة بميزان الحق والصدق الذي يقتضيه وضعها العقلي .

وهكذا يتبيّن بجلاء أنّ فلسفة الأخلاق فلسفة وصفيّة تصويريّة كاشفة لأصول القيم الأخلاقية ، ولكنها بتقرير هذه الأصول ، وإرسائها تبعث في النفس إيماناً بعدالة تلك القيم ، واقتناعاً بأنّها تستند إلى حقائق ثابتة ، وتنتسب إلى مقّدسات سامية ، ومن شأن هذا الإيمان بدوره أن يوحي إلى النفس أمراً علوياً بوجوب تحقيق تلك القيم الكبرى .

فها هنا إذاً حكمان منفصلان لا اختلاط بينهما ولا التباس في أمرهما ، وإنّ أوّلهما يستتبع ثانيهما حقاً ، لكنه لا يستتبعه استتباع المقدمات القياسية لنتائجها المنطوية فيها حتّى يقال إنّ الخبر لا ينتج إنشاءً بل استتباع الأسباب لمسبّباتها ، والوسائل لمقاصدها فإنّ معرفة مبررات القانون ، والإقتناع بعدالته يجذب النفوس إلى امتثاله ، ويغريها بطاعته عن محبة وطواعية] . (١)

ومن هذا النص يتضح أن الدكتور « محمد عبد الله دراز » رحمه الله ـ قد

---

(١) نقلاً عن : كلمات في مبادىء علم الأخلاق صـ ٢٠ ـ ٢١ .

بيَّن المقصود من كلمة « الواقع » في تعريف الفلسفة ، وأنَّه لا يعني الحاضر ، وإنَّما « الواقع » في الحقيقة ونفس الأمر فيشمل الحال ، والماضي ، والمستقبل على السواء ، فالفلسفة الأخلاقية أو علم الأخلاق النظري حين يصف مبادىء الأخلاق إنَّما يصفها على حقيقتها ، ويبيِّن ما فيها من جمال ، وروعة ، وهذا في حد ذاته يغري النفس بالإمتثال لها ، والخضوع لمبادئها ، وذلك كما تستتبع الأسباب مسبباتها ، فلا تكون الأخلاق المعياريَّة قد جمعت بين الوصف ، والأمر أي بين الواقع ، وبين ما ينبغي أن يكون كما يعترض الوضعيّون بل هي تصف المبادىء الأخلاقية كما هي في الحقيقة ، وتبيِّن ما فيها من جمال ، وعلو ورفعة ، وهذا في حدٍّ ذاته يغري النفس بالإمتثال لها عن حب ، ورضا ، وطواعية .

ويمكنني أن أضيف إلى هذا الردّ بأنّ هناك فرقاً عظيماً بين العلم الطبيعي وعلم الأخلاق ، فالعلم الطبيعي يعتمد في الحصول على حقائقه على الواقع ، ويعتبره ميداناً له ينطلق منه ليصل إلى حقائق لم تكن معروفة لديه ، بينما الأمر يختلف عن ذلك بالنسبة إلى الفلسفة الأخلاقية ، وذلك لأنَّها لا تستقي الحقائق الأخلاقية من الواقع ، وليست هذه الحقائق مجهولة لديها ، وإنَّما هي تُقرر مبادىء تعارفت عليها البشرية منذ الأزل بالإعتماد على الفطر السليمة المستقيمة ، وبالإعتماد على تعاليم الأنبياء والمرسلين التي وإن اختفت معالمها - في بعض العصور إلاّ أنّ نورها لم يطمس كليَّةً فكان هذا النور هو الذي أضاء للمصلحين ، والهداة طريق حياتهم ، وأرشدهم إلى هذه المبادىء السامية التي تتفق مع ما في نفوسهم من فطرة سليمة ، فحقائق علم الأخلاق إذاً ثابتةٌ ، وليست مأخوذةً من الواقع كما هو بالنسبة للعلوم الطبيعية .

يقول الدكتور « توفيق الطويل » :

[أول ما يُلاحظ على هذا المذهب ضيق أفقه في فهم العلم باعتباره العلم الطبيعي الذي لا يقوم على غير المنهج التجريبي ، وهو فهم عاش إلى منتصف القرن الغابر ، ثمَّ اتسع فهم العلماء لمعنى العلم فأدخلوا في مجاله كل دراسةٍ منظَّمة ترمي إلى معرفة الحقائق وتفسيرها في ضوء منهج تجريبي ، أو عقلي ،

ومن ثمّ أصبح منهج البحث العلمي أعمّ من المنهج التجريبي وأشمل ، وقد وضع علماء المناهج لكل لونٍ من هذه الدراسات المنّظمة منهجاً يلائم موضوعه ، وبهذا دخلت في زمرة العلوم دراسات أدبية ، وفنيّة كانت منذ قرن ونصف قرن لا تعتبر علوماً ، ومات التصوّر القديم لمعنى العلم ومنهجه] . (١)

فهذا الردّ يبيّن أنّ مفهوم العلم لا يقتصر على العلم الذي يدرس الظواهر الطبيعية الواقعيّة فقط ، بل يمتّد ليشمل كل دراسة منتّظمة تهدف إلى معرفة الحقيقة .

ويقول الدكتور « زكريا إبراهيم »

[لو أنعمنا النظر إلى العلم بوصفه نشاطاً بشرياً لتبيّن لنا أنّه يسلّم ضمناً ببعض القيم فلا يضع قيمة العلم نفسها موضع المناقشة بل يفترض أنّ المعرفة أفضل من الجهل ، وأنه من الخير للإنسان أن يعرف الأشياء على ما هي عليه ، وأن من واجب العالم ألاّ يكتم الحقيقة عنّا حسنةً كانت أم سيئّة ، وأنّ نتائج العلم كفيلة بأن تساعد الإنسان على المضي قدماً في تحقيق أغراضه .

حقاً إنّ هذه القيم جميعاً لا تدخل في صميم موضوع العلم أو مضمونه ، ولكنها بلا شك تمثّل الدعامة التي يستند إليها كل نشاط علمي] (٢)

فالعلم إذاً ليس مقتصراً على دراسة الواقع الملموس فقط دون الإلتزام بالقيم والمباديء الأخلاقية ـ كما يقول الوضعيّون ـ بل العلم نفسه يؤمن بالقيم الأخلاقية التي تبّين للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه سلوكه لكي يكون أخلاقياً .

وفي الحقيقة فإنّ المدرسة الوضعية تهدف إلى القضاء على علم الأخلاق النظري الذي يبيّن للناس ، ويرشدهم إلى ما ينبغي أن يكون عليه سلوكهم ، فهي تهدف باعتراضاتها هذه إلى إبطال هذا العلم النظري والعملي جميعاً .

---

(١) من مقدمة ترجمة كتاب « المجمل في تاريخ علم الأخلاق » تأليف : هنري سدجويك صـ ١٧ ـ ١٨ .
المترجم : توفيق الطويل .

(٢) مبادىء الفلسفة والأخلاق صـ ٨٨ .

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز »

[والواقع أنّ مهمة هذه الفلسفة محو كلمة الوجوب من معاجم الأخلاق كليّة بحجة أنّ السؤال عمّا يجب أن يكون لا محلّ له في العلوم ، وأنّ مطلب العلم إنّما هو البحث « عما هو كائن » فالذي تطلب دراسته في الأخلاق هو : ماذا يفعل المجتمع في الواقع ؟ وماذا يترك ؟ وهكذا يريدون أن يصبح علم الأخلاق فرعاً من فروع علم الإجتماع يُسمّى علم الآداب العرفية «أوعلم الإجتماع الأخلاقي ، وتقتصر مهمته على وصف سلوك الناس وأخلاقهم على ماهي عليه لا كما يجب أن تكون] . (١)

هذا عن الإعتراض الأول ، أمّا بالنسبة للإعتراض الثاني الذي يتلخص في أنّ « علم الأخلاق النظري » ليست له فائدة لأنّ كل المذاهب الأخلاقية النظرية تتفق في الأخلاق العمليّة التي تدعو إليها بالرغم من اختلاف المبادىء التي تؤمن بها ، وتنطلق منها في فلسفتها الأخلاقية ، وهذا يدل على أنّها تستقي أخلاقها من البيئة والواقع ، وتحرص على مراعاة « الضمير الجمعي » للمجتمع وعدم الخروج عليه فتأمر في مجال العمل بما يتفق مع هذا الضمير الجمعي السائد ، ولا يخرج عليه ، فقد ردّ على هذا الإعتراض أيضاً **الدكتور « محمد عبد الله دراز » فقال :**

[أمّا دعوى إتفاق أصحاب النظريات الأخلاقية كلهم على قواعد عمليّة واحدة فهي دعوى غير صحيحة ، فهناك مثلاً مذهب القوة الذي يتنكر لكل القواعد الأخلاقية المعروفة ويرى أنّها ما وُضعت إلاّ لاستغلال الضعفاء ، والسيطرة على الجماهير ، وأنّ القوّة هي التي تجعل الحقّ حقاً ، والباطل باطلاً ، وهناك مذهب المتعة والمسرّة الذي يوصي باغتنام اللحظة الحاضرة .. نعم يبقى السؤال عن الفائدة في دراسة المذاهب الأخرى المختلفة في نظرياتها ، المتحدة في تطبيقاتهاوجوابه أنّ تضافر النظريات المختلفة على قاعدة واحدة كترادف الأدلة المتنوعة على الدعوى فهي بمثابة التحريض بمختلف الوسائل على العمل بتلك القواعد] (٢)

(١) كلمات في مبادىء علم الأخلاق صـ ١٩ .

(٢) نفسه صـ ٢٢ .

وبالنسبة للإعتراض الأخير للوضعييّن الذي يبررون قولهم بالنسبيّة في الأخلاق ألا وهو قولهم إنّ علم الأخلاق النظري يقوم على أساس أنّ الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغيّر بتغيّر العصور ، والبيئات ، وليس الأمر كذلك بدليل اختلاف أحكام الناس الأخلاقية من مكان لآخر فما هو حقٌ هنا شر هناك ، وهكذا تتغيّر المفاهيم والمباديء الأخلاقية بتغيّر الأحوال ، والبيئات كما يقول الوضعيُون .

فقد ردّ الدكتور « محمد عبد الله دراز » على هذا الإعتراض فقال :

[هذه الحجة قديمة كان يُرَوِّجها سوفسطائية اليونان ثم تجدّدت في عصر النهضة الأوربية ، ثم انتحلتها هذه المدرسة الإجتماعية ، وتوسّعت في سرد شواهدها نقلاً عن الرحّالة والسائحين القدامى والمحدثين .

ونحن لا نطيل النقاش في قيمة هذه المصادر ، وضعف الثقة العلمية بها لكثرة تناقضها ، وقلة تحري كتّابها ، وضعف خبرتهم بالناحية الأخلاقية ، ولأنّ ولوعهم بالغرائب إرضاءً لشهوة قرائهم يدفعهم إلى ترك معالم التشابه والإتحاد بين الأمم ، وتتبع المفارقات والشواذ منها لعرضها في صورة قواعد عامة ، ولكننا نكتفي أن نقول في صميم الموضوع إنّ ما نسبوه إلى الجماعات البدائية من خلوّها من كل قاعدة للسلوك هو على طرف النقيض من الواقع الذي تضافرت عليه كل الدلائل ، وهو أنّ هذه الجماعات تبالغ في تشددها ، وتضييقها في أسلوب الحياة والمعاملات إلى حد التزمت ، أو الخرافة] . (١)

ممّا سبق يتضح لنا أنّ الوضعييّن في اعتراضهم هذا لم يأتوا بجديد ، وإنّما أحيوا ما كانت تدعو إليه سوفسطائية اليونان من نسبيّة أخلاقيّة ، وأن هؤلاء الوضعييّن قد تجردوا من الأمانة العلميّة فوجّهوا جهودهم لاقتباس شواهد ، وأدلة تؤيد مزاعمهم ، وأغفلوا في نفس الوقت عن مظاهر التشابه التي بين الشعوب ، والأمم المختلفة ، وذلك لأنّه مهما بلغت أمة من الأمم من الهمجية ، والتأخر فلابدّ أن يكون هناك قدرٌ من حب الخير ، والنفور من الشر في قلوب النـــاس ، وذلـك حـظ

---

(١) المرجع السابق صـ ٢٣ ـ ٢٤ .

الفطرة في البشر ولا يعقل أن تستسيغ كل الضمائر في كل الشعوب الشر ، وينعدم لديها كلها التمييز بين الخير والشر ، ولذلك فإنه [ينبغي لنا عند اقتباس الشواهد الأخلاقية أن نفصل بين أعمال الناس ، وأحكامهم فالذي يدل على خلُوّ النفوس من قانون أخلاقي ليس هو موضوع الظلم ، ولكنه استساغة الضمائر له ، وعدم استنكارها إياه ، أما مجرد وقوعه فمعناه أن القانون لم يُطبّق ، ولم يُنفّذ .. أرأيت لو أنّ رجلاً أوربياً جاء إلى بلاد الإسلام في عصرنا هذا فأخذ يستقي قانون الإسلام وتعاليمه من واقع سيرة أهلها أيكون حكمه صحيحاً ؟ فالذي يأتي المحرّم عالماً بحرمته ، شاعراً بتأنيب ضميره لا يُقال إنّه لا يعرف للأخلاق قانوناً ، ولكنه يعرفه ، ويخالفه ، نعم لو وجدنا في أمة ما قانوناً يبيح لها القتل والسرقة مثلاً فأصبحا أمرين مستباحين عندها بلا استهجان ولا نكير من ضميرها إذاً لساغ لنا أن نقول بفقد قانون الأخلاق عندها .] (١)

ومن هذا النص يتضح لنا أن الدكتور « محمد عبد الله دراز » يركز في رده على الوضعييّن على أنّ هؤلاء الرحالة ، والباحثين لا تتوفر فيهم الأمانة العلمية اللازمة لكي يوثق بالمعلومات التي يُدلون بها فَهَمُّهم الأول هو إرضاء شهوة القراء باقتباس كل غريب في المجتمع ، وجعله من قبيل الأخلاق ، وهو ليس منها ، كما أنّ المعلومات التي يدلون بها تتناقض من باحث لآخر مما يدل على أنهم يأتون بالشواهد التي تخدم أغراضهم ، فهم يركزون على إقتباس المفارقات والشواذ ، ثم يعرضونها علي أنها تمثّل أخلاق الأمم ، والشعوب القديمة بصورة عامة ، وهذا كله خطأ ، فإن النفوس لا يمكن كلها أن تستروح إلى هذه الشواذ ولا يمكن أن تفسد فطرهم جميعاً ، فإن القانون الأخلاقي مغروس في نفوس البشر وإن فسد بعضهم فليس ذلك دليلاً على خلو نفوس الجميع من هذا القانون ، ومن التمييز بين الخير والشر ، فهذا التمييز أودعه الله في كل النفوس والضمائر حتى ضمائر الأشرار ، والمجرمين .

---

(١) المرجع السابق صـ ٢٤ ـ ٢٥ .

وقد أشار إلى هذا الرد أيضاً الدكتور « زكريا إبراهيم » فقال :

[نحن لا ننكر أن تاريخ الحضارة البشرية حافل بالشرائع الأخلاقية المختلفة ، والمعايير الإجتماعية المتباينة ، ولكننا نلاحظ أن الدراسات الأنثربولوجية الحديثة قد كشفت لنا عن وجود تقارب كبير بين هذه الشرائع الأخلاقية المختلفة] . (١)

وهكذا فقد أثبت العلم التجريبي الذي يستند إليه الوضعيّون عكس ما كانوا يأملون فقد أثبت هذا العلم ـ باعتراف العالم العلماني السابق ـ أنّ هناك تقارباً بين الشرائع الأخلاقية في الأمم والشعوب ، وليس العكس .

وقد تضافرت ردود العلماء والمفكرين على الوضعيّين في بيان أنّ الإختلافات التي تبدو بين الأمم والشعوب مردّها إلى الإختلافات في تطبيقات المبادىء الأخلاقية ، وليس في المبادىء نفسها .

يقول الدكتور « توفيق الطويل » :

[واختلاف الأحكام الخلقية على الفعل الواحد باختلاف الزمان والمكان ، ومستوى التفكير ، ونحوه لا ينفي ما نقول (أى قوله إنّ من الممكن قيام علم الأخلاق النظري) لأنّ الإختلاف بين الناس إنما يكون في تطبيقات المبادىء الخلقية ، ولا يكون قط في المبادىء الكليّة ، فاعتبار القتل جريمةً مبدأ يلتقي عنده اتفاق الناس في كل زمان ومكان بالغاً مابلغ حظهم من الجهل أو الثقافة ، ولكن الخلاف إنّما يكون في تطبيق المبدأ على الحالات الفرديّة الجزئيّة ، وهو خلاف مردّه إلى مستوى الحضارة ، والتقاليد ، ونحوها مما يؤثر في الحكم على الأفعال الجزئية] . (٢)

ويقول الدكتور « محمد كمال جعفر » ـ رحمه الله :

إن اختلاف الأخلاق الفعلية باختلاف الأمم ، والعصور لا ينهض حجّة على اختلاف القيم الأخلاقية في عمومها ومثاليتها ، ونحن نعلم أنّ الأوائل ، ومن

---

(١) المشكلة الخلقية صـ ٦٢ الطبعة الثانية عام ١٩٧٥ الناشر : مكتبة مصر .

(٢) من مقدمة ترجمته لكتاب المجمل في تاريخ علم الأخلاق صـ ١٨ .

تبعهم من هؤلاء الذين يرون وجود مبادئ أخلاقية موحّدة لجميع الناس نعلم أن هؤلاء يعترفون بأنّ هذه المبادىء والمثل ليست عامةً إلا بالقوة ، أمّا بالفعل فإنها ي المجال التطبيقي تختلف . (١)

ويقول الدكتور « زكريا إبراهيم » :

[الواقع إنّ هذا التفاوت القائم بين الشرائع الأخلاقية يرجع أولاً وبالذات إلى أنّ هذه الشرائع لا تمثّل تقريرات أو صياغات للمبادىء الأخلاقية القصوى بل هي مجرد تطبيقات لتلك المبادىء على بعض الظروف الواقعية لهذا المجتمع أو ذاك .. وكثيراً ما تجيء بعض العوامل الحضارية أو التاريخية ، أو الإجتماعية فتحول بيننا ، وبين الوقوف على السمات المشتركة التي تجمع بين الأنظمة الأخلاقية المختلفة فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الشرائع الأخلاقية القائمة بالفعل لا تمثّل بالضرورة المعايير الأخلاقية المطلقة أمكننا أن نفهم أنّها جميعاً شرائع أخلاقية ناقصة ، وبالتالي فإنّ اختلافها فيما بينها هو مجرد نتيجة لنقصها .. ربما كان الأصل في هذا الخلاف المستمر بين فلاسفة الأخلاق حول المبادىء الأخلاقية ، وهل هي نسبيّة أو مطلقة وجود خلط مستمر في أذهان الكثيرين بين مبادىء الأخلاق من جهة وأساليب السلوك من جهة أخرى] . (٢)

من ردود هؤلاء المفكرين جميعاً يمكننا أن نستنتج أنهم جميعاً يتفقون على القول بأنّ المبادىء الأخلاقية ثابتة ، ومعروفة في جميع الأمم والشعوب وأن الإختلافات التي يستدل بها الوضعيّون هي اختلافات ناشئة عن تطبيق هذه المبادىء على الحالات الجزئية التي تعرض للناس في حياتهم .

فالقانون موجود ، وإن لم ينفّذه الناس ، ولا يعتبر إنتهاك القانون الأخلاقي في الشعوب والأمم دليلاً على اختفاء هذا القانون .

وقد رد الدكتور « عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني » على الوضعيّين في ردود ثلاثة فقال :

---

(١) دراسات فلسفية وأخلاقية صـ ٢٧٣ ط ١٩٧٨ الناشر : مكتبة دار العلوم .

(٢) المشكلة الخلقية صـ ٦٢ .

[إن أسباب الغلط عند أصحاب فكرة نسبيّة الأخلاق ترجع إلى ثلاثة :

الأول : تعميمهم اسم الأخلاق على أنواع كثيرة من السلوك الإنساني فلم يميّزوا بين الظواهر الخلقيّة عن الظواهر الجمالية والأدبيّة ... فأفضى ذلك بهم إلى الخطأ الأكبر وهو حكمهم على الأخلاق بأنّها أمور اعتبارية نسبيّة .

الثاني : أنهم جعلوا مفاهيم الناس عن الأخلاق مصدراً يرجع إليه في الحكم الأخلاقي مع أنّ في كثير من هذه المفاهيم أخطاءً فادحة ، وفساداً كبيراً يرجع إلى تحكّم الأهواء والشهوات والعادات والتقاليد فيها .. والتحري العلمي يطلب من الباحثين أن يتتبعوا جوهر الحقيقة حيث توجد الحقيقة لا أن يحكموا عليها من خلال وجهة نظر الناس إليها فكل الحقائق عرضة لأن يثبتها مثبتون ، وينكرها منكرون ، .. ومع ذلك تبقى على ثباتها لا تؤثّر عليها آراء الناس فيها .

الثالث : اعتمادهم على أفكارهم وضمائرهم فقط وجعلها المقياس الوحيد الذي تقاس به الأخلاق] . (١)

ومن هذا يتضح لنا أن بعض الباحثين قد أدخلوا كثيراً من الظواهر في مجال الأخلاق ، وهي ليست منها ، كما أنّ هؤلاء الباحثين جعلوا أفعال الناس التي تصدر منهم مصدراً للأخلاق ، ولم يفرِّقوا بين المبادىء ، وبين تطبيقات الناس لها .

وقد رد الدكتور « محمد عبد الله دراز » على الوضعيّين الذين يقولون إن الضمير الأخلاقي لا يؤلِّف وحدة متجانسة بل تتزاحم فيه الواجبات ، وتتنافس فقال :

[إذا كانت الواجبات قد تتزاحم وتتنافس فالأصل أن يبذل كل إمرىء جهده في طلب التوفيق بينها لإعطاء كل ذي حق حقّه فإن بلغ التزاحم فيها . مبلغ التعارض كان من تمام مهمة المشرِّع أن يضع لكل واجب رتبته تقديماً أو تأخيراً ، زيادة أو نقصاً ليبدأ العامل بالأهم قبل المهم ، وبالمهم قبل غير المهم فيجعل الضروري قبل الحاجي ، والحاجي قبل الكمالي ، ويضحي بالأدنى في سبيل المحافظة على الأعلى .. وهكذا يستقيم الأمر جملة وتفصيلاً تشريعاً وتنفيذاً] . (٢)

---

(١) الأخلاق الإسلامية جـ ١ صـ ٩٧ . دار القلم الطبعة الأولى عام ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩ م .

(٢)كلمات في مبادىء علم الأخلاق صـ ٢٦ .

ومما سبق يتضح لنا تهافت الإعتراضات التي اعترض بها الوضعيون على علم الأخلاق النظري ، واستندوا إليها في تقويض هذا العلم ، والقضاء على كلمة « ينبغي أن يكون » لجعل السيادة للواقع الذي تظهر فيه أخلاق الناس على حقيقتها ومن هذا الواقع يريدون للعلماء أن يقيموا علماً جديداً للأخلاق يحلُ محل العلم القديم وقد رأينا ردود المفكرين والعلماء على الإعتراضات التي تذرّع بها الوضعيون ، وعلى الأدلة التي استندوا إليها فكلها أدلة باطلة ، وقد أثبت العلم نفسه أنّ هناك قدراً من الحقائق الثابتة ، والقواعد الأخلاقية العامة التي هي محل اتفاق الناس جميعاً في مختلف البيئات والأمم ، وهذه الحقائق هي حظ الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وعلى هذه الحقائق الثابتة يمكن قيام علم للأخلاق تسلّم به جميع الشعوب والأمم على اختلاف بيئاتها .

يقول الدكتور « محمد يوسف موسى » :

[رغماً عن هذا الإختلاف الذي لا ريب فيه بين ما يُسمى واجباً هنا ، وواجباً هناك ليس من النادر أن نلاحظ تماثلاً بين بعض النظريات والآراء الأخلاقية لدى جميع الناس .

إنّه من العسير بل من المستحيل أن نذكر وسطاً ، أو عصراً يُعتبر الجبن فيه أفضل من الشجاعة ، أو الظلم أفضل من العدالة .

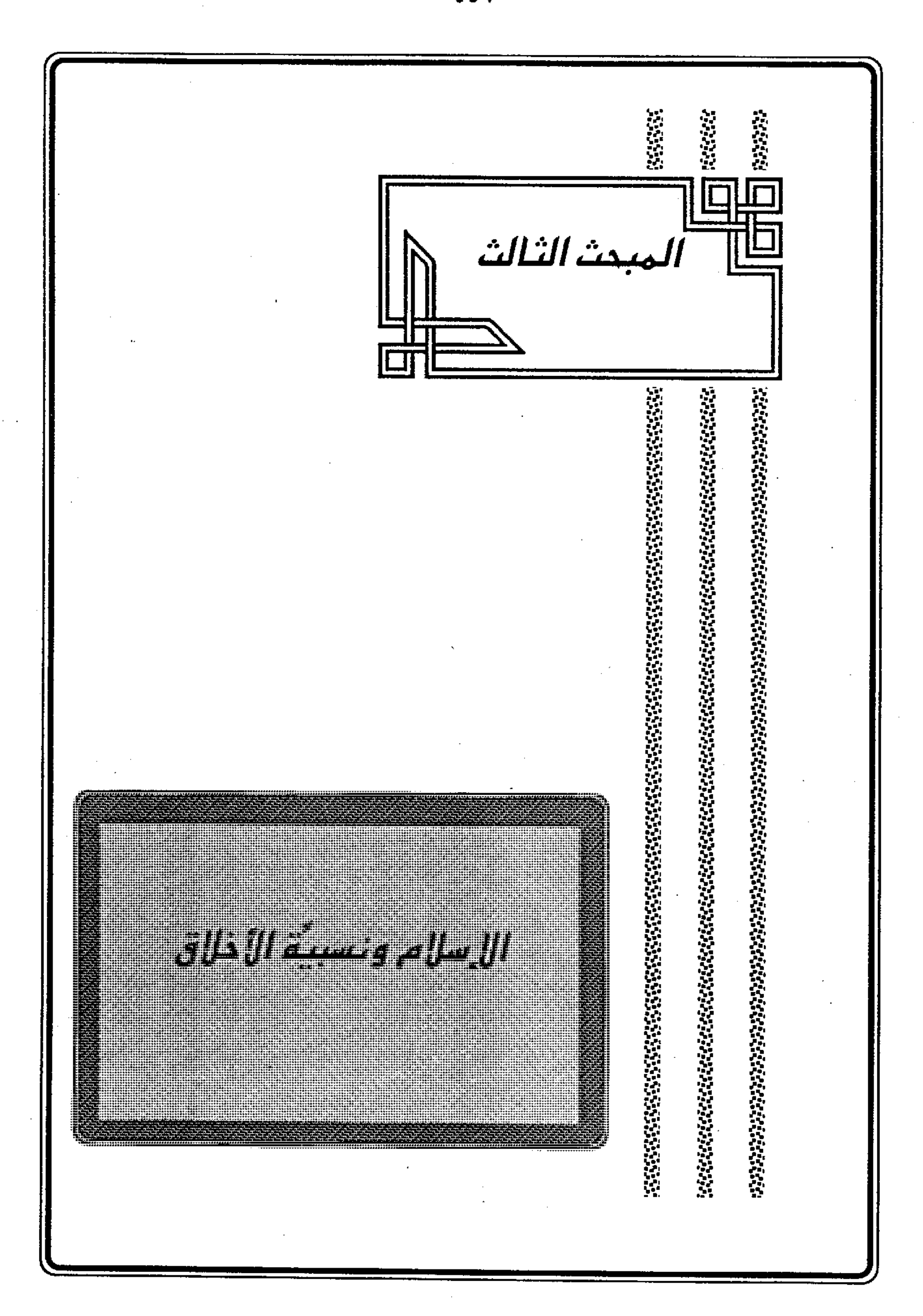
« العدالة فُهمت ، وطُبقت بطرق متغايرة في الأمم المختلفة هذا حق ، ولكن الرجل العادل ، والشجاع محترم دائماً بخلاف الظالم ، أو الجبان . الرجل الساذج في تربيته بل الطفل يقبل بطيبة خاطر عقاباً يعتقد عدالته ، ويثور في نفسه ضد عقاب يراه ظالما ذلك معناه تأصّل فكرة العدالة لدى الجميع ، العدالة العامة التي يُحسّها الناس جميعا في قرارة نفوسهم لا العدالة القانونية التي تتغيّر بتغيّر البيئات] . (١)

---

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق صـ ٢٨ ـ ٢٩ طبعة عام ١٣٦٨ هـ .

وقد استشهد الدكتور « محمد يوسف موسى » على اثبات هذا الأمر بالتاريخ البشري الذي يوضّح أنّ الأمم كلها لم تخلُ من المصلحين والهداة الذين أدركوا بفطرهم السليمة نور الحق ، ودعوا أقوامهم إليه ، وحاربوا ما شاع في مجتمعاتهم من إنحطاط أخلاقي ، ومنكرات ، ومفاسد .

فمنهم مثلاً « بوذا » الحكيم الهندي ، « وكونفوشيسوس » الصيني ، « وسقراط » الإغريقي فهؤلاء وإن لم يدركوا الحق بالإهتداء بنور الوحي مباشرة فقد أدركوه بفطرهم السليمة ، وبقايا تعاليم الأنبياء والمرسلين ، ومن هذا تهافت ما زعمه الوضعيّون من أنّ الشعوب والأمم تختلف في أخلاقها باختلاف البيئات والعصور لأنّه وإن اختلفت التطبيقات فإنّ المبادىء ذاتها ثابتة لا تتغيّر .


المبحث الثالث
الإسلام ونسبية الأخلاق

المبحث الثالث

الإسلام ونسبية الأخلاق

« الثبات » (*) أحد الخصائص الهامة التي تتميز بها الأخلاق الإسلامية ، بل التصوّر الإسلامي كله لأنّه من لدن الله تعالى ، لا من وضع البشر الذين تتغيّر آراؤهم ، وأفكارهم تبعاً لما يتأثرون به من عوامل ، وظروف محيطة .فالإسلام ـ كما رأينا ـ يُقيم تصوّره على أسس ثابتة ، وقواعد كلية تحكم جميع ما يستجد في حياة الإنسان من ظروف ، وأحوال ، وتزنها بميزان الإسلام ، وتحكم عليها إن كانت موافقة لروح الدين الإسلامي أم لا .

والقول بالنسبيّة الأخلاقية يتعارض مع هذا الثبات الذي يقوم الإسلام عليه ، ويتنافى معه ، لأنّ هذا القول يعني أنّه ليس هناك مقّوم ، ولا ميزان ثابت ، ولا مقياس ثابت تقاس به أفعال البشر ، وأخلاقهم لتُعرف إن كانت أخلاقية أم لا ؟ فهو يعني أنّ الأمور الأخلاقية ستُترك لأهواء البشر ، ونزواتهم ، وأنهم هم الذين سيقررون الأخلاق حسب ما تزينه لهم هذه الأهواء والنزوات ، وهذا كله يتعارض مع الأسس التي يقوم عليهاالدين الإسلامي ، فالعقيدة ، والأخلاق لا يمكن أن يتركها الله تعالى للبشر ، وأهوائهم ، فقد نزّل الله سبحانه وتعالى أصول العقائد ، والأخلاق ، وحدّدها منذ القدم ، وإلى الأبد لا تتغيّر ولا تتبدّل بتغيُر الظروف والأحوال وَلا يمكن أن يأتي عصر ينقلب الخير فيه شراً ، والشر خيراً مهما تغيّرت الأمصار والعصور ، ولا يمكن أن تنقلب الموازين ، وتتغيّر القيم الأخلاقية من النقيض إلى النقيض كما يدعي ذلك الوضعيون ، وقد بينا ذلك فيما سبق . (**)

(*) أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني .

(**)نفسه

وهذه ميزة تتميز بها الأخلاق في الإسلام ، وتظهر فيها رفعةالإسلام كله ، فهو الرسالة الخاتمة التي رسمت للناس القواعد ، وحددت الأسس التي تضبط السلوك ، وتسير الحياة مهتدية بهدي الله منضبطة بشريعته في كل ما يستجد من أمور ، ومسائل لم تكن معروفة من قبل ومع ذلك فالإسلام لا يقيّد سلوك الإنسان في صور محدَّدة لا تتلاءم مع تطور الحياة ، بل يترك مجالاً تتجلَى فيه المرونة وبذا نرى الإسلام يجمع بين صفتي الثبات والمرونة [ونستطيع أن نحدّد مجال الثبات ومجال المرونة في شريعة الإسلام الشاملة فنقول :

إنه الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والأساليب .

الثبات على الأصول والكليّات ، والمرونة في الفروع والجزئيات .

الثبات على القيم الدينيّة والأخلاقية « والمرونة في الشئون الدنيوية ، والعلمية »].(١)

وبهذا الجمع بين الثبات والمرونة [يستطيع المجتمع أن يعيش ويستمر ، ويرتقي ثابتاً على أصوله ، وقيمه ، وغاياته ، متطوراً في معارفه ، وأساليبه وأدواته .

فبالثبات يستعصي هذا المجتمع علىَ عوامل الإنهيار والفناء أو الذوبان في المجتمعات الأخرى أو التفكك إلى عدة مجتمعات تتناقض في الحقيقة ، وإن ظلت داخل مجتمع واحد في الصورة ، بالثبات يستقر التشريع ، وتُتبادل الثقة ، وتُبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة ، وأسس راسخة لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية والإجتماعية ما بين يوم وآخر ، وبالمرونة يستطيع هذا المجتمع أن يكيّف نفسه وعلاقاته حسب تغيُّر الزمن ، وتغيُّر أوضاع الحياة دون أن يفقد خصائصه ومقوِّماته الذاتية] (٢)

ومن هذا يتضح لنا أنّ الجمع بين الثبات والمرونة في الإسلام خاصيّة هامة ينفرد بها الدين الإسلامي الحنيف ، وبهذه الخاصية استطاع الإسلام أن ينجو من الأخطاء التي وقع فيها الوضعيّون وأمثالهم الذين ينادون بمبدأ نسبيّة القيم والأخلاق

---

(١)د. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام صـ ١٩٥ الطبعة الثانية عام ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م الناشر : مكتبة وهبه .

(٢) نفسه صـ ١٩٨ .

ويربطونها بعجلة التقدم ، والتطور الذي تتصف به المجتمعات ، فالحياة في جوهرها هي التنوع ، والتغيِّر ، والتطور ، ولا يمكن أن تبقى أحوالها على وتيرة واحدة ، ونمط واحد ، بل هي في تغيِّر مستمر .

ولكن الإسلام ـ مع تسليمه بأنّ الحياة تتغيِّر ، وتتبدّل أحوالها وظروفها من حال إلى حال ـ حدّد الأسس الهامة ، والقواعد العامة التي يجب أن يضبط الناس سلوكهم بموجبها ، ولا يخرجوا عن روحها ، وجوهرها ، أمّا تفصيلات ذلك والجزئيات التي يمكن أن تتعرض لها حياة الناس فقد تركها لضمير المسلم ، الذي يعلم حق العلم أن الله يراقبه ، ويطلع على ماتخفى نفسه ، وما توسوس به وأنه ـ سبحانه ـ سيحاسبه علي كل مايصدر منه .

وبهذا تكون الأخلاق الإسلامية قد حققت بالجمع بين هاتين الصفتين ما عجزت عن تحقيقه كل المذاهب الأخلاقية الوضعية ، فحققت ثبات القانون الأخلاقي ، مع جدة الإبداع الفني [وذلكم هو شأن الأخلاقية الإسلامية ... فلا الصيغة المجردة لقاعدة عامة ، ولا التحليل الدقيق للحالة الخاصة ـ معزولاً كلاهما عن الآخر ـ يكفي لهداية إرادتنا ، وإنما هو تركيب « المثل » الشامل القادم من « أعلى » مع الواقع الراهن الذي ليس سوى إيضاح وبيان حتى يوجد الدليل الممتاز لضميرنا فبين المثل الأعلى والواقع ، بين المطلق والنسبي يوجد الضمير الإنساني علامة توحيد ، يجب أن يستمرً في التقريب بين هذين الطرفين بأن يؤكد رابطة ما بينهما في صورة العمل الذي يولد من اقترانهما] (١)

فالإسلام إذاً يقرر أنّ الأخلاق ثابتة الأسس والقواعد ، لأنّ هذه الأسس أنزلها الله تعالى للبشر منذ آدم عليه الصلاة والسلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولذلك [فإنّ من الحقّ أن يُقال كقاعدة عامة إنّ جميع المحظورات القرآنيّة والنبويّة مما يدخل في مفهوم المعروف ومتناوله ، ونحن إذا أمعنا النظر في هذه المحظورات والمأمورات والممدوحات كالكذب والنميمة ، والغيبة والإثم والبغي ، والظلم والزنى ،والقتل والقذف والسرقة والنفاق ، وشهادة الزور والغش ، والغدر

---

(١) د.محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ١٢٦ .

والنكث وتولي الأعداء والإسراف ، والبخل ، والتهرب من واجب الجهاد بالمال والنفس والتثبيط عنه ، والسعي في الأرض فساداً وأضدادها كالصدق ، واحترام حق الغير ودمه وماله وعرضه ، والوفاء ، والجهاد في سبيل الله ، وفعل الخير والبر .. الخ وجدناها لا يمكن أن تتغيَّر منكريتها ، ومعروفيتها في ظرف دون ظرف ، ومكان دون مكان .

[وهناك شؤون من الحياة قد سكت عنها القرآن اكتفاءً بالخطوط والتلقينات العامة التي احتواها ، فمن الحقّ أن يُقال كقاعدة عامة أيضاً : إنّ ما سكت عنه القرآن ، ولم يثبت فيه سنة من شؤون خاصة وعامة فمعروفيته ، ومنكريته منوطتان بالقادرين على الإستنباط من أهل العلم والدراية من جهة ، وبما يكون نحوه من إقبال عام ، أو استنكار عام من مختلف طبقات المجتمع من جهة أخرى على أن يكون هذا كله في نطاق التوجيهات والتلقينات القرآنية والنبوية العامة] (١)

والأدلة الإسلامية على ثبات المباديء الأخلاقية كثيرة نورد أهمها .

أولاً : وحدة الرسالات السماوية في العقيدة ومباديء الأخلاق :

يقول الله تعالى :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ . (٢)

ومن هذه الآية يتبيَّن لنا أنّ جميع الرسالات السماويّة من أول رسول إلى سيدنا محمد عليه الصَّلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين قد دعوا إلى عقيدة واحدة ، وقيم ثابتة في أصولها ، ولا شك في ذلك فمنزّلها جميعاً واحد وهو الله سبحانه وتعالى .

---

(١) محمد عزه دروزه : الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة جـ ٢ صـ ٨ طبع عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

(٢) الشورى آية ١٣ .

يقول « سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية :

إن الله [يقرر أن ماشرعه للمسلمين هو ـ في عمومه ـ ما وصّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يُقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه ، ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهي دون التفـــات إلى أهـــواء المختلفين] . (١)

فجوهر الرسالات السماوية واحد ، وإن اختلفت بعض الشرائع من عصر لعصر إلاّ أنّ الأسس ثابتة لا تتغيّر ، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى قيم ثابتة .

يقول أبو السعود ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية :

هذا [إيذان بأن ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة ، كما أنّ بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل ، والخطاب لأمته عليه الصّلاة والسّلام أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع ، وأولي العزائم من مشاهير الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام ، وأمرهم به أمراً مؤكداً ، على أنّ تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ... وإلاّ فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به وهو عبارة عن التوحيد ، ودين الإسلام ، وما لا يختلف باختلاف الأمم ، وتبدّل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام ، كما ينبيء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر ، والإعتناء بشأن المأمور به] (٢)

فالأنبياء جميعاً أمروا بعقيدة واحدة ، وأصول ، ومبادىء واحدة لا تختلف باختلاف الأمم ، وتبدّل الأعصار .

يقول الفخر الرازي :

[المقصود من الآية أنّه يُقال شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته ، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام، وذلك لأنّها مختلفة متفاوتة قال تعالى :« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

---

(١)في ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٣١٤٧ .

(٢)تفسير أبي السعود جـ ٨ ـ صـ ٢٥ .

فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان يُوجب الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، والسعي في مكارم الأخلاق ، والإحتراز عن رذائل الأحوال] (١)

ويقول الفخر أيضا :

[هذه الآية تدل على أنَّ الشرائع قسمان منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه ، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان كالقول بحسن الصدق ، والعدل والإحسان ، والقول بقبح الكذب ، والظلم ، والإيذاء ، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان .

ودلت هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني] (٢)

وقد وضّح الإمام « القرطبي » ـ رحمه الله ـ أنّ دين الله الواحد الذي جاء به الرسل عليهم الصّلاة والسّلام يُقصد به العقيدة الواحدة الصحيحة ، والأخلاق الواحدة التي لا تتغيّر بتغير الأزمان والبيئات فقال :

[المعنى أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة ، وهي التوحيد ، والصلاة ، والزكاة والصيام والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزُّلف إليه بما يردُ القلب والجارحة إليه ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وتحريم الكفر ، والقتل ، والزنى ، والأذية للخلق كيفما تصرفت ، والإعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات ، وما يعود بخرم المروءات ، فهذا كله مشروع ديناً واحداً ، وملة متحدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء ، وإن اختلفت أعدادهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي اجعلوه قائماً يزيد دائماً ، مستمرا محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ، ولا اضطراب] . (٣)

ومن مجموع هذه التفاسير لأجلّة علماء المسلمين يتضح لنا أن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أشار إلى أنَّ العقيدة التي دعا إليها جميع رسل الله تعالى عقيدة

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢٧ صـ ١٥٦ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة .

(٢) نفسه صـ ١٥٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٦ صـ ١١ .

واحدة فكل واحدٍ منهم عليهم الصّلاة والسّلام قال لقومه :

﴿ ياقوم اعبدوا اللهما لكم من إله غيره ﴾ .(١)

وقال تعالى :

﴿ ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . (٢)

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾. (٣)

وبالإضافة إلى تصحيح العقيدة ، والدعوة إلى دين الله فإنّ الرسل عليهم الصّلاة والسّلام قوّموا الإنحرافات الأخلاقية التي كان عليها أقوامهم ، فكلهم دعوا إلى مباديء وأسس أخلاقيّة واحدة لا تتغيّر ، وهي أخلاق الفطرة السوية الإسلامية لا يختلف على ثبوتها وصحتها أصحاب العقول السليمة .

والقرآن الكريم قد قص علينا أخبار الرسل ـ عليهم الصّلاة والسلام ـ وما بذلوه من جهد في الدعوة إلى الله، وتقويم الإنحرافات الخلقية التي كانت شائعة لديهم . فكل رسول منهم كان يعنى ـ إلى جانب الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ـ بتصحيح المفاهيم الأخلاقية ، ومحاربة المنكرات ـ والرذائل الأخلاقية التي عمّت وتفشّت في أقوامهم إلى درجة أنّهم ألفوها ، ولم تستنكرها نفوسهم ، وهذا في الحقيقة دليل على ثبات الأخلاق وقيمها في كل العصور والأزمان .

وأذكر من ذلك مثلاً :

هود عليه الصّلاة والسّلام فقد أنكر على قومه استعلاءهم ، وبطشهم بالناس ، وطول أملهم في الدنيا .

يقول تعالى :

﴿ كذبت عادٌ المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين أتبنون بكل ريع آيةً تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . (٤)

---

(١) الأعراف آية ٥٩ . (٢)النحل آية ٣٦ .

(٣) الأنبياء آية ٢٥ . (٤) الشعراء آيات ١٢٣ ـ ١٣١ .

فــفي هـذه الآيات الكريمة نرى أن هوداً عليــه الســلام أنكر على قــومــه اشتغالهم بالدنيا ، وانشغالهم بالبنيان للعبث ، واللهو دون التفكر بالآخرة ، فعملهم هذا دل على أنهم يأملون أن يخلدوا في الدنيا .

يقول « إبن كثير » ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية :

أنّهم كانوا [يبنون بنياناً محكماً هائلاً باهراً ، ولهذا قال « أتبنون بكل ريع آية » أى معلماً بناءً مشهوداً أى إنما تفعلون ذلك عبثاً لا للإحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو ، وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيّهم عليه السلام ذلك لأنّه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا والآخرة] .(١)

ويقول « الإمام الفخر الرازي » ـ رحمه الله ـ :

إن عمل قوم هود [صار مذموماً لدلالته على الأمل الطويل ، والغفلة عن أنّ الدنيا دار ممر لا دار مقر] .(٢)

وكذلك أنكر عليهم نبيهم عليه السلام بطشهم بالناس ، وتجبرهم عليهم ، ومعاملتهم معاملة الجبّارين ومن هذا اتضح لنا أنّ هوداً عليه الصلاة والسلام إلى جانب إنكاره على قومه الشرك بالله ، فقد أنكر عليهم الرذائل الأخلاقية السائدة بينهم كالسرف ، والخيلاء ، وطول الأمل في الدنيا ، والبطش بالناس ، والتجبر عليهم . وكذلك الأمر بالنسبة « لصالح » عليه الصّلاة والسّلام فإنّه لم تقتصر دعوته على الدعوة إلىالله بل تعرّض أيضا لعلاج الإنحرافات الخلقية السائدة بين قومه .
يقول تعالى موضحاً ذلك :

﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ .(٣)

---

(١)تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ٥٤٦ .

(٢)التفسير الكبير جـ ٢٤ صـ ١٥٧ .

(٣)الشعراء من آية ١٤١ـ ١٥٢ .

يقول الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ :

[إن صالحاً خاطب قومه بأمور : **أحدها** : ﴿ أتتركون فيما هـهنا آمنين ﴾ أى أتظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وأن لادار للمجازاة .

وثانيها : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ ظاهر هذه الآيات يدل على أنّ الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية وهي طلب الإستعلاء ، والبقاء ، والتفرد ، والتجبر ، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسيَّة ، وهي طلب المأكول ، والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة .

وثالثها : ﴿ ولا يطيعوا أمر المسرفين ﴾ وهذا إشارة إلى أنه يجب الإكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ، ولا يجوز التوسع في طلبها ، والإستكثار من لذاتها وشهواتها] . (١)

وهكذا يتضح لنا أنّ الإنحراف الخلقي الذي عالجه « صالح » عليه الصلاة والسلام هو الإسراف في طلب الدنيا ، والتوسع فيها ، والغفلة عن الآخرة .

وكذلك فقد عالج « لوط » عليه الصلاة والسلام الإنحراف الخلقي الذي كان سائداً بين قومه ، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ، والإنتهاء عما هم فيه من شذوذ وانحراف .يقول الله تعالى :

﴿ كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاَّ على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكوننَّ من المخرجين ، قال إني لعملكم من القالين رب نجِّني وأهلي مِمَّا يعملون ﴾ . (٢)

---

(١)التفسير الكبير جـ ٢٤ صـ ١٥٩ .

(٢)الشعراء آيات ١٦٠ ـ ١٦٩ .

هذه الآيات الكريمة يتضح منها إنكار سيّدنا لوط عليه السّلام على قومه شذوذهم وفساد فطرهم بارتكاب الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من قبلهم (*) فأنكر عليهم هذه الفعلة الفاحشة المتمادية في الفحش والقبح . [فالإنحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط ، ومن ثمّ لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الإنحراف أو أن يهلكوا لخروجهم من ركب الحياة ومن موكب الفطرة ، ولتعريهم من حكمة وجودهم وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد] . (١)

وكذلك عالج « شعيب » عليه الصّلاة والسلام انحراف قومه الأخلاقي كما يتضح ذلك من قول الله تعالى :

﴿ كذّب أصحاب لئيكة المرسلين إذ قال لهم شعيبُ ألا تتقون إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ . (٢)

ففي هذه الآيات الكريمة يتضح لنا أن شعيباً عليه الصّلاة والسلام اتجه إلى قومه ودعاهم إلى توفية الكيل والميزان ، وعدم بخس الناس حقوقهم ، حيث كان قومه يفعلون هذه الفعلة .

يقول الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

[كان من خبر قصة شعيب ، وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن كانوا أهل بخس للناس في مكاييلهم ، وموازينهم مع كفرهم بالله ، وتكذيبهم نبّيهم وكان يدعوهم إلى الله ، وعبادته ، وترك ظلم الناس ، وبخسهم في مكاييلهم ، وموازينهم] (٣)

(*) أنظر أيضا فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير جـ ٢ صـ ٢٢٢ . للإمام محمد علي الشوكاني طبعة ١٤٠٣ دار الفكر .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٦١٣ .

(٢) الشعراء آيات ١٧٦ ـ ١٨٣ .

(٣) تفسير الطبري جـ ٦ صـ ٤ .

فقد أمرهم شعيب عليه السلام بتوفية الكيل والميزان ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، وعن قطع الطريق على الناس .

يقول الإمام « الفخر الرازي » ـ رحمه الله ـ :

[إن شعيباً أمرهم بأشياء أحدها : قوله : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ وذلك لأن الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء .. ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ يقال : بخسه حقه إذا نقصه إيّاه وهذا عام في كل حق يثبت لأحد أن لا يُهضم ، وفي كل ملك أن لا يُغصب مالكه ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ يُقال عثا في الأرض : نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك] (١)

ونجد في القرآن الكريم أنَّ لقمان عليه السَّلام حين أوصى إبنه أوصاه بأصول القيم الأخلاقية ومبادئها ويتجلى ذلك في قول الله تعالى :

﴿ يا بنّي أقم الصَّلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنْ ذلك من عزم الأمور ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمشي في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك ﴾ . (٢)

فهذه الوصايا التي أمر لقمان ابنه بالتمسك بها هي التي دعا إليها رسل الله الكرام ، وهي التي جاء بها رسول الله ﷺ ، والقرآن الكريم يؤكِّد على هذه الحقيقة.

يقول تعالى :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ . (٣)

---

(١)التفسير الكبير جـ ٢٤ صـ ١٦٣ .

(٢) لقمان آيات ١٧ ـ ١٩ .

(٣) الحديد آية ٢٥ .

ويقول الله تعالى :

﴿ يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ . (١)

يقول أبو السعود في تفسير الآية إنه :

[استئناف لتقرير ما سبق من الأحكام ، وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين] (٢)

فالقرآن الكريم يقدم لنا مباديء الأخلاق وأسسها على أنّها هي نفس دعوة السابقين من رسل الله الكرام ، وسبيلهم المستقيم ، وقد حوى القرآن الكريم بين دفتيه جميع تعاليم الأخلاق ، ومبادئها التي دعا إليها رسل الله السابقون .

وقد بين الدكتور « محمد عبد الله دراز » أنّ القانون الأخلاقي الذي جاء به سيِّدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام ، ومن بعده عيسى عليه السّلام ورد ذكره تماماً في كتاب الله الكريم .

ومن هذا يتضح لنا إذاً أنّ جميع الرسالات السماوية قائمة على أسس أخلاقية واحدة لا تتغيّر ، ولا تتبدّل مهما تعددت هذه الرسالات ، واختلفت ، وبالتالي هذا يدل على ثبات القيم الأخلاقية ، ومبادئها بخلاف ما يدّعيه الوضعيّون .

ثانيا : كمال الإسلام دليل على ثباته وثبات أسسه :

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكّد أنّ الله سبحانه وتعالى قد أكمل هذا الدين ، وأتمّه ، فهو ثابت على أسسه التي أقامه الله عليها إلى يوم القيامة ، ولا مجال فيه لتغيير ، ولا تبديل ، ولا تطوير ، وإن تطورت وتبدّلت

---

(١) النساء آية ٢٦ .

(٢) تفسير أبي السعود المسمّى ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ٢ صـ ١٦٨ .

أساليب الحياة ، ومن هذه الآيات أذكر مثلاً قول الله تعالى :

﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ .(١)

جاء في تفسير « الفخر الرازي » ما يلي :

[إن المقصود بكلمة « الله » القرآن الكريم فمجموع القرآن كلمة واحدة في كونه حقاً ، وصدقا ، ومعجزاً] .

وهذه الآية ـ كما يقول « الفخر » ـ تدل على أن كلمة الله تعالى موصوفة بصفات كثيرة :

أولاً : كونها تامة : فهي كافية وافية بكونها معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ ، وهي كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة عملاً وعلما .

ثانيا : كونها صدقا :

ثالثا : كونها عدلاً « فكل ما أخبر الله تعالى عنه من وعد ووعيد وثواب ، وعقاب فهو صدق لأنه لابد وأن يكون واقعاً ، وهو بعد وقوعه عدل لأنّ أفعاله منزهة عن أن تكون موصوفة بصفة الظلمية .

وقال الفخر في تفسير قوله تعالى « لا مبدل لكلماته » المراد أنها لا تقبل التبديل البته ، وأنها مصونة عن التناقض ، وأن أحكام الله لا تقبل التبديل ، والزوال لأنها أزلية والأزلي لا يزول] . (٢)

وقال « ابن كثير » ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية :

[﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ صدقاً : فيما قال ، وعدلاً : فيما حكم ، يقول صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة كما قال تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ : أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة « وهو السميع » لأقوال عباده « العليم » بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله] (٣)

---

(١) الأنعام:آية ١١٥ .

(٢) التفسير الكبير جـ ١٣ ط ٣ دار إحياء التراث العربي .

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ صـ ٢٦٩ .

ومن هذا نعلم أنَّ ما قرره الله تعالى هو الحق الثابت الذي لا يتغيّر ، ولا يتطور ، وأن ما جاء به الأنبياء عليهم السَّلام هو الحقّ الذي ليس بعده إلاّ الوهم والضلال ولذلك فقد عقب الله تعالى بعد هذه الآية بقوله :

﴿ وإن تُطع أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله إن يتّبعون إلاّ الظن ، وان هم إلاّ يخرصون ، إنّ ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (١)

ويقول ابن كثير :

[يخبرنا الله عن حال أهل الأرض من بني آدم أنّه الضلال ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنّما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ﴾ (٢)

ولقد بيّن « سيد قطب » ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية السابقة أنّ الله تعالى قد أتّم الدين فليس لأحدٍ أن يأتي برأيٍ ، أو قول يخالف ذلك ، وينسب ذلك إلى أنه التطور ، والتقدم ، فالحق هو ماقرره الله تعالى وحده ، والباطل ما عداه ، وهذا الأصل ثابت إلى يوم القيامة ، ولما كانت قيم الأخلاق ، ومبادئها من أصول هذا الدين فإنّها تعتبر أيضا ثابتة إلى يوم القيامة .

يقول سيد قطب :

[لابُد من قاعدة للحكم على عقائد الناس ، وتصوراتهم ، وقيمهم وموازينهم ، ونشاطهم ، وأعمالهم . لابد من قاعدة لتقرير ما هو الحق ، وما هو الباطل في هذا كله ــ كي لا يكون الأمر في هذه المقومات أمر هوى الناس المتقلّب ، واصطلاحاتهم المادية المتغيرة .. ثم لابُد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات ، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء .

---

(١)الأنعام آية ١١٦ .

(٢)تفسير القرآن العظيم جـ ٢ صـ ٢٦٩ .

والله ـ سبحانه ـ يقرر هنا أنّه هو ـ وحده ـ صاحب الحق في وضع هذا الميزان ، وصاحب الحق في وزن الناس به ، وتقرير من هو المهتدي ، ومن هو الضال .
إن المجتمع ليس هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة وإن المجتمع تتغير أشكاله ، ومقوماته المادّية فتتغيّر قيمه وأحكامه تبعاً لذلك .
« الإسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره .. الإسلام يعيّن قيماً ذاتية له يقررها الله ـ سبحانه ـ وهذه القيم تثبت مع تغيّر أشكال المجتمعات .. والمجتمع الذي يخرج عليها له اسمه في الإصطلاح الإسلامي .. إنه مجتمع غير اسلامي .. مجتمع جاهلي] (١)
ومن الآيات التي يستنتج منها أيضا ثبات الشريعة الإسلامية ، وبالتالي ثبات القيم الأخلاقية الإسلامية قول الله تعالى :
﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾] (٢)

يقول « ابن كثير » ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية السابقة :

[هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلاّ ما أحله ، ولا حرام إلاّ ما حرّمه ، ولا دين إلاّ ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ، ولا خلف] . (٣)
وقد نُقِل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله :
[أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا] . (٤)

---

(١) تفسير في ظلال القرآن جـ ٣ صـ ١١٩٦ دار الشروق .
(٢) المائدة آية ٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم جـ ٢ صـ ١٩ .
(٤) نفسه صـ ٢٠ .

وما دام الله تعالى قد أكمل لنا دينه فهو ثابت على ماجاء به رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة لا تغيير فيه ، ولا تطوير فالحرام فيه حرام إلى يوم القيامة ، والحلال فيه حلال إلى يوم القيامة ، فهو ثابت على أصوله التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى رسولنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقيمه ، وأخلاقه ثابتة كذلك إلى يوم القيامة ويحتكم إلى هذه القيم ، والمبادىء الأخلاقية المسلمون في جميع العصور ، والدهور ، ويسيرون على هديها في جميع أمورهم .

يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ :

[أعلن الله لهم إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معاً .. فهذا هو الدين .. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين ـ بمعناه هذا ـ نقصاً يستدعي الإكمال ولا قصوراً يستدعي الإضافة ، ولا محليّة أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير وإلا فما هو بمؤمن ...

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان ، لأنها ـ بشهادة الله ـ شريعة الدين الذي جاء « للإنسان » في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان في جيل من الأجيال ، في مكان من الأمكنة كما كانت تجيء الرسل والرسالات . الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي ، والمبادىء الكليّة جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه إلاّ أن تخرج من إطار الإيمان .

والله الذي خلق الإنسان ، ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة فلا يقول : إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم إلا رجل يزعم لنفسه أنّه أعلم من الله بحاجات الإنسان ، وبأطوار الإنسان .] (١)

وبذلك اتضح لنا ثبات أسس الأخلاق إلى يوم القيامة فالزنا ، وشرب الخمر ، والغيبة والنميمة كلها من الرذائل التي لا يمكن أن يتغيَّر وضعها إلى يوم القيامة ، وبذلك يكون الإسلام قد وضع للناس المبادىء الهادية لهم في حياتهم لئلا يضلوا ، وينحرفوا كما يريد لهم الوضعيّون الذين لا يؤمنون بقيم ثابتة .

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٢ صـ ٨٤٣ .

ولقد رأينا تهافت هذه النظريات إزاء ما قرره القرآن الكريم من أنّ الإنسان مخلوق مكرم عند الله تعالى ، فهو خليفته على أرضه ، ميّزه الله عن سائر المخلوقات بنفخة الروح التي يتصل بواسطتها بالله تعالى ، ويناجيه .

يقول تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ، ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ . (١)

فهذه الروح هي التي تميّز الإنسان عن سائر مخلوقات الله ، وتجعله قابلاً للرقي العقلي والروحي ، وهي التي تجعله قادراً على الإتصال بما لا تدركه الحواس ، وهو الله سبحانه وتعالى .

والعلم مهما تقدم لا يمكنه أن يقدّم دليلاً واحداً على عدم وجود الروح ، مهما بالغ في إنكارها ، ونفيها [وإنسانية هذا الإنسان المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفخة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميّزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله . إنسانية هذا الإنسان ثابتة ، ولكن هذا الإنسان يمُر بأطوار جنينية شتى من النطفة إلى الشيخوخة ، ويمُر بأطوار اجتماعية شتى يرتقي فيها وينحط ، حسب اقترابه ، وابتعاده عن مصدر انسانيّته ، ولكن هذه الأطوار ، وتلك لا تخرجه من حقيقة إنسانيته الثابتة ، ونوازعها ، وطاقاتها ، واستعداداتها المنبثقة من حقيقة إنسانيّته .(٢)

فطبيعة الإنسان ثابتة لا تتغيّر كما يزعم الوضعيّون .

---

(١) ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) سيد قطب : خصائص التصوّر الإسلامي صـ ٧٣ .

والإسلام يقرر أنّ الإنسان له طبيعة ثابتة خلقه الله عليها ، يقول الله تعالى :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ . (١)

فالطبيعة الإنسانية ثابتة لا تتغيّر في الإنسان منذ آدم عليه السلام وإلى يوم القيامة ، ولها استعداد للتوجّه إلى الخير ، وإلى الشر حسب التربية والتوجيه الذي تتلقاه : ﴿ ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ . (٢) .

وكذلك فإنّ الدوافع الفطريّة التي خلقها الله تعالى في الإنسان ثابتة لا تتغيّر، ولا تتطور بتطور المجتمعات [حب الحياة هو الدافع الأكبر للإنسان ، وهو دافع مشترك بين جميع الأحياء ، كلهم يحبون الحياة ، ويتشبثون بها ، ويعملون على البقاء فيها أبداً .. وإذا كان من طبيعتهم أن يصيبهم الفناء] . (٣)

وهذا الدافع الفطري دافع أصيل ثابت في النفس البشرية لا يتغيّر ، ويتفرع منه فرعان كبيران هما : حب الذات ، وحفظ النوع . وهذان الدافعان ينقسمان إلى دوافع فطريّة عديدة منها دافع الأكل ودافع الملك ، ودافع الجنس ، ودافع البروز ، ودافع الصراع . (٤)

فهذه الدوافع كلها فطرية في النفس البشرية لا تتغيّر ، ولا تتبدَّل ، ولا يملك أحد أن ينازع فيها أو يدَّعي عدم وجودها في النفس الإنسانية ، ولقد أثبتت التجارب الإنسانية أنه لا يمكن تجاهل هذه الدوافع الفطرية أبداً ، فها هي الشيوعية التي تنكر دافع التملك في الإنسان قد انهارت في أكبر معقل لها تحت مطارق الفطرة التي حاولوا تجاهلها .

فهذه الدوافع ثابتة في طبيعة الإنسان ، ولقد شرع الإسلام للإستجابة لهذه الدوافع أحكاماً أخلاقية ثابتة يجب على الإنسان مراعاتها ، والتمسك بها ، فما دامت الطبيعة الإنسانية ثابتة لا تتغيّر فلابدّ إذاً أن تكون هناك أحكام ثابتة تحدّد كيفية الإستجابة لها ضمن حدود الإسلام ، ومراعاة روحه السائدة في كل تشريعاته ،

---

(١) سورة الروم آية ٣٠ . (٢) الشمس آية ٧ .

(٣) محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشرية صـ٨٦ . (٤) المرجع السابق نفسه .

وهي السماحة ، والسهولة ، واليسر .

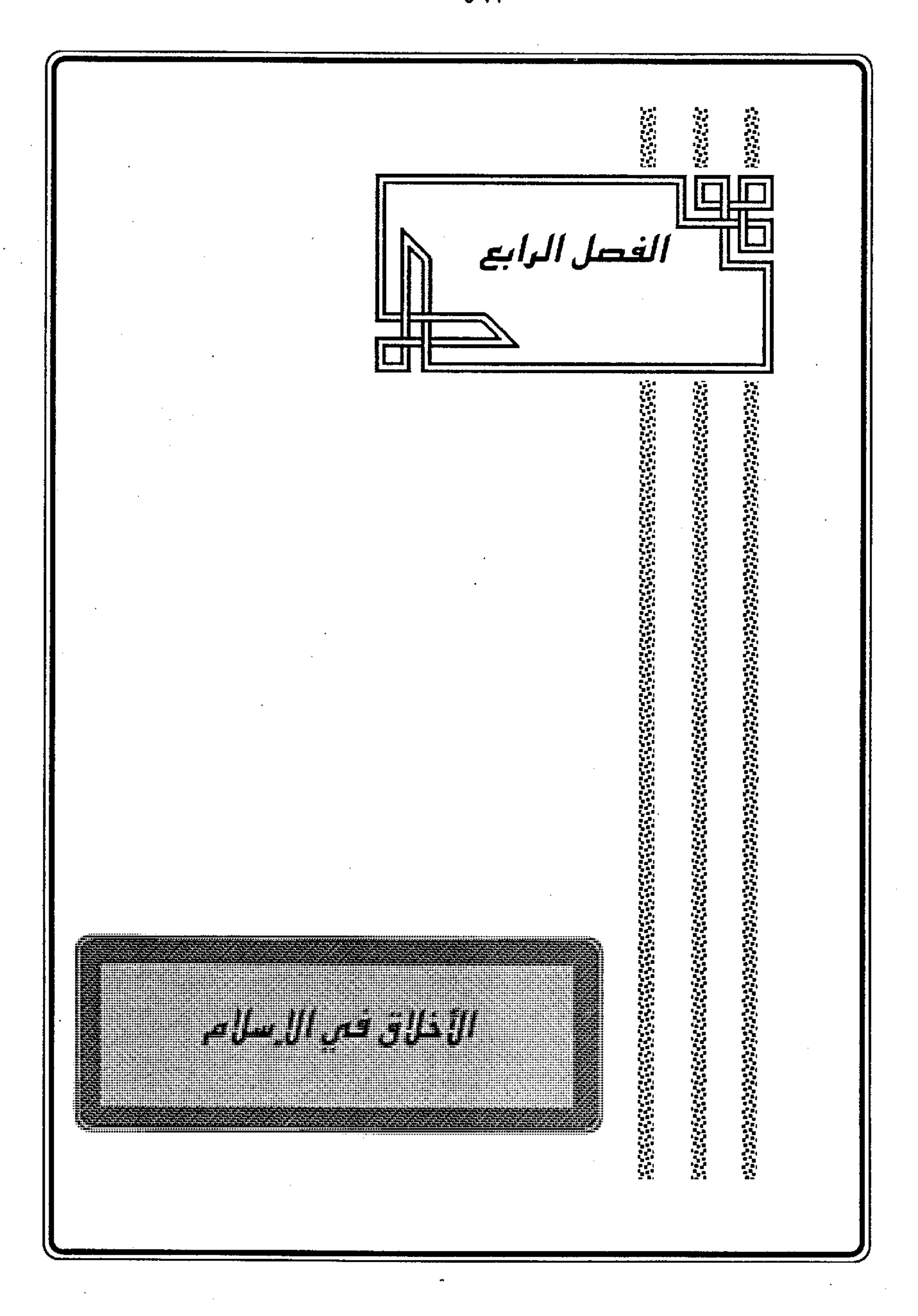
﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ . (١)

وهذه الأحكام التي شرعها الله تعالى هي التي تحكم سلوكيات المسلمين في كل أفعالهم فلا تتركهم يتخبطون في التيه ، والضلال بلا هادٍ ، ولا نور ينير لهم طريقهم ، ومن هذا نعلم عظيم نعمة الله علينا إذ حدَّد لنا المباديء العامة ، والكليّات التي تحكم كل أفعالنا في كل عصر ، ومصر مهما تَغيَّرت ، وتطورت أساليب الحياة فهناك أصول ثابتة يرجع إليها المسلمون لقياس ووزن أفعالهم ، ومعرفة ماهم عليه من الحق أو الضلال .

وبذلك يتضح لنا ما في دعوى الوضعيّين من خبث ، ومكر ، وكيد للبشريّة جمعاء إنهم يريدون للبشر جميعاً أن يتحللوا من كل ضابط يضبط سلوكهم ، متذرعين في ذلك بالتطور ، فلا تبقى هناك معايير ، ولا موازين يضبطون على ضوئها أفعالهم فتعم الفوضى الأخلاقية ، ولا يعود هناك خير ولا شر ، بل تصبح الأمور نسبيّة ، ويصبح الهوى هو المتحكم في تسيير دفة الحياة ، وهذا ما هو حاصل في أوربا منطلق هذه الأفكار ، والنظريات ، وهذا مايدفعنا إلى دراسة آثار القول بالنسبيّة الأخلاقية في المجتمعات البشرية .

---

(١) البقرة آية .



الفصل الرابع

الأخلاق في الإسلام

تمهيد

لقد تبيَّن لنا من خلال الرد على آراء الوضعيّين أنّ الأخلاق الإسلامية تتميّز عن غيرها من المذاهب والنظريات الأخلاقية الوضعيّة حيث تتلافى ما فيها من عيوب ، وثغرات ، وتنفرد دونها بالمزايا الهامة التي تحقِّق سعادة الإنسان ، واطمئنان روحه ، وفي هذا الفصل سأتحدث عن هذه الخصائص الهامة التي انفردت بها الأخلاق الإسلامية ، وتميّزت بها عن الأخلاق الوضعيّة القاصرة ، ولا غرو في ذلك فإنّ أخلاق الإسلام هي أخلاق ربّانيّة المصدر ، فالذي وضعها هو الله تعالى الذي ليس كمثله شيء في الأرض ، ولا في السماء ، ولذلك فقد جاءت هذه الأخلاق متميزة ، فهي وحدها التي تحقِّق سعادة البشريّة ورفاهيّتها .

كما أنّ هذه الأخلاق الإسلاميّة تهتم بالجانب العملي من حياة الإنسان ، وبالتطبيق الفعلي لهذه المبادىء ، والمثل العليا التي دعت إليها ، وذلك في عالم الواقع لا الخيال ، فالذي يميّز الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الوضعيّة هو أنّ الله تعالى وضعها ليعمل بها المسلمون ، ويحقّقوها فعلاً في حياتهم ، لا لمجرد التأمّل ، والنظر العقلي ، والجدل كما هو حاصل بالنسبة للأخلاق الفلسفيّة .

فالأخلاق الإسلاميّة هي « أخلاق عمليّة » وقد تمثّلت في شخص رسول الله ﷺ فكان بحق خير من تمثّلت فيه أخلاق القرآن ، وفي صحابته رضوان الله عليهم أجمعين الذين كانوا مصابيح الهدى ، وخير قدوة للمسلمين على مرّ الأجيال ، والعصور ، فهم قد حقّقوا في عالم الواقع جميع ما يدعونا إليه القرآن الكريم من قيم ، ومبادىء ، ومثل عليا .

وفي هذا الفصل سأتحدث ـ بمشيئة الله تعالى ـ عن أهم القواعد والأسس التي وضعها الله تعالى لتوجيه الفرد في تهذيب نفسه وطهارة روحه ، وفي علاقاته مع أسرته ، ومع المجتمع من حوله فكل ذلك قد حدّده القرآن الكريم ، وبيّنه خير

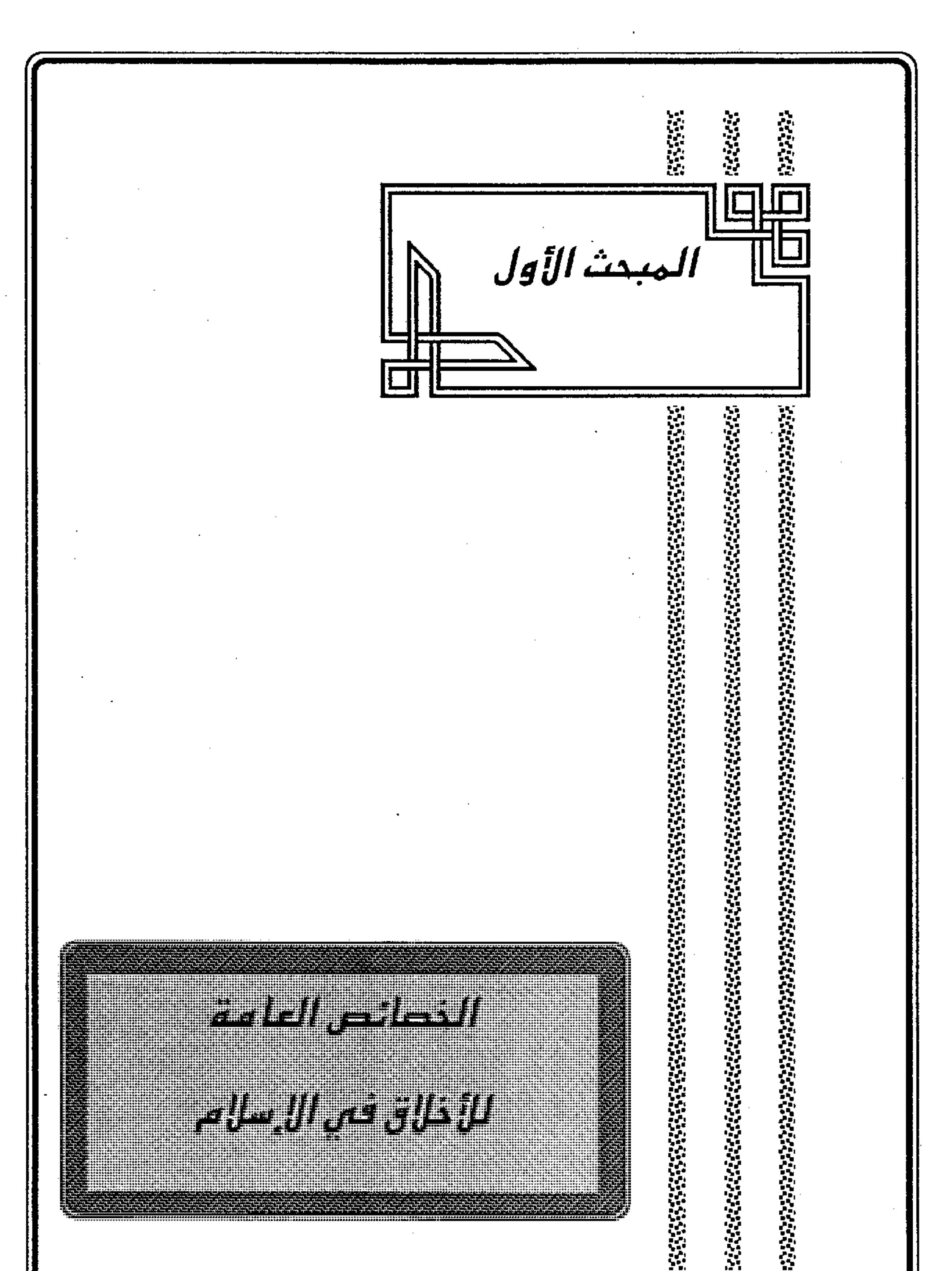
بيان ، ورسم للمسلمين طريق حياتهم ، فلا يضلوا ، ولا ينحرفوا ، ولا يخضعوا للأهواء ، والشهوات المضلة إذا ما تمسكوا بهذه الأخلاق ، وما تدعو إليه .

وسيأتي هذا الفصل مشتملاً على مبحثين إثنين هما :

المبحث الأول : الخصائص العامة للأخلاق في الإسلام .

المبحث الثاني : الأخلاق العمليّة في الإسلام .

والله الموفق ،،


المبحث الأول
الخصائص العامة
للأخلاق في الإسلام

المبحث الأول
الخصائص العامة للأخلاق في الاسلام *

تتميز الأخلاق في الإسلام بخصائص تنفرد بها عن غيرها من الأخلاقيات في المذاهب البشرية القاصرة وأهم هذه الخصائص هي :

أولا : الربانيّة :

فالمسلم يتلقى مبادىء الأخلاق ، ومنهاج حياته من الله سبحانه وتعالى الذي خلقه ، فهو وحده العليم بما يُصلحِ هذه الحياة في الدنيا والآخرة ، ولذلك فقد تميّزت هذه الأخلاق بكل كمال ، وخلت من كل عيب ونقص ، ولا غرو في ذلك فهي أخلاق ربانيّة ، آتية من عند الله تعالى الموصوف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقص فهو سبحانه :

﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . (١)

وهو سبحانه :

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ . . (٢)

ولقد بيَّن الله تعالى أنّه أحكم آيات القرآن فكل ما فيه من عقائد ، وشرائع محكمة ، خالية من الفساد ، والخلل ممّا تتصف به مذاهب البشر القاصرة .

يقول الله تعالى :

﴿ كتابٌ أحكمِت آياته ﴾ . (٣)

يقول الإمام « القرطبي » في تفسيره للآية :

{ أحسن ما قيل في معنى « أحكمِت آياته » قول قتادة : أى جُعلت محكمة كلها لا خلل فيها ، ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد أى نُظّمت نظماً محكماً لا يلحقها تناقض ولا خلل } . (٤)

---

(١) الشورى : ١١ . (٢) الأنعام : ١٠٣ .

(٣)هود : ١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ ٩ صـ ٢ .

(*) ذكر سيد قطب « رحمه الله » هذه الخصائص للاسلام في كتابه « خصائص التصور الإسلامي » وقد اقتبسها منه .

وقد اختار الإمام « الطبري » في تفسيره للآية السابقة قول من قال [معناه أحكَم الله آياته من الدخل ، والخلل ، والباطل ، وفصلها بالأمر والنهي ، وذلك أنّ إحكام الشيء إصلاحه وإتقانه ، وإحكام آيات القرآن إحكامها من خلل يكون فيها ، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله ، وأمّا تفصيل آياته فإنّه تمييز بعضها من بعض بالبيان عمّا فيها من حلال وحرام ، وأمر ونهي] . (١)

فالمسلمون يتلقّون مبادىء دينهم ومن بينها مبادىء الأخلاق ، والقيم من الله تعالى وحده فهو وحده سبحانه هو الذي له حق التشريع وبيان الخير من الشر .

يقول تعالى :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مّما قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾ . (٢)

وبذلك يكون الله تعالى قد حمى العقول البشريّة من الحيرة ، والتخبّط في اختيار السلوك المناسب الذي يؤدّي إلى صلاحهم ، وسعادتهم .

وقد ضرب لنا الدكتور « محمد عبد الله دراز » ـ رحمه الله أمثلة لهذه الحيرة التي سيقع فيها الإنسان فيما لو تُرِك دون هداية الوحي فقال :

[فمثلاً ما واجبنا حيال طبيعتنا العاطفية ؟ أمن الواجب ألاّ نستجيب لشيء من شهواتنا ، وأن نفرض على أنفسنا الآلام ، وألوان القهر والتقشّف ؟.... أو أنه يكفي أن نتظاهر ـ كما يفعل الرواقيّون ـ بنوع من اللامبالاة تجاه كل ضروب الخير والشر في هذا العالم وإن كنّا نفضّل بعضها على بعض ؟ أو أنّه يجب علينا أخيراً أن نستمتع بكل ملذات الحياة ؟ ....

وكذلك الحال في علاقاتنا بأقراننا فإنّ الإهتداء إلى السلوك المناسب لا يقلّ صعوبة بسبب ما يواجهنا من اختلاف في الرأى .... وضرب لذلك مثالاً فقال :

« فهل يجب على من لحقته إهانة أن يقتص أو أن يعفـــو ؟ أو أن له الخيار ؟وهل

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن جـ ١١ من المجلد السابع صـ ١٢٣ . دار المعرفة ـ بيروت .

(٢) النساء :٦٥ .

يجب علينا أن نعامل أخواتنا بتحفظ أو بقساوة ؟ أو نكشف لهن عن حبنا الأخوي ؟ .... وهل ينبغي أن نساعد الآخرين ليعيشوا أعفّاء ، أو نتركهم لوسائلهم الخاصة ؟ فلو أردنا أن ننزل إلى تفاصيل الحياة اليوميّة من بيع ، وربا و وخمر ، وزواج وزنا فإنّ الخطايا سوف تعظم أبداً ، ولسوف تقاوم العقول دائماً بعقول كما تقاوم العواطف بعواطف » . (١)

فالقرآن الكريم إذاً هو المرجع للمسلمين في كل أمور حياتهم دقيقها ، وجليلها

يقول الدكتور « عبد الحليم محمود » رحمه الله :

[نزل الدين هادياً للعقل في جميع الأمور التي لو تُرِك العقل ، وشأنه فيها ضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة وهذه الأمور هي :

أ ـ العقائد .

ب ـ المبادىء الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً .

جـ ـ التشريع في قواعده العامة وفي بعض تفصيلاته ، وقواعده العامة التي تتضمن الجزئيات على مر الزمن ، وعلى اختلاف البيئات] (٢)

فالأخلاق الإسلامية إذاً أخلاق ربانية ، وهي تتميّز بأنّها موافقة للفطرة الإنسانية تستجيب لها النفس بسهولة لأنها تتفق مع ما فطرها الله عليه من حب الخير ، وبغض الشر ، ويتميّز التكليف الأخلاقي باليسر ، وإمكانيّة التطبيق .

وبهذا يتضح لنا الفرق بين الأخلاق في الاسلام وبين الأخلاق الوضعية التي ليس لها مصدر إلا نظريات ، وأفكار البشر ، وهم مهما بلغوا من الذكاء فلا يمكن لهم الوصول الى الحق ، والصواب بالاعتماد على عقولهم وحدها ، ولذلك كان التخبط ، والاضطراب واضحاً في المذهب الوضعي .

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن صـ ٣٢ .

(٢) التوحيد الخالص والإسلام والعقل صـ ٢٩ .

ثانيا : الشمول :

إن الأخلاق في الإسلام يتسع نطاقها ليشمل كل الأفعال الإنسانية ، وهذه حقيقة لا ريب فيها حيث إنّ خاصيّة الشمول هذه من خصائص التصور الإسلامي لأنّه من عندالله تعالى الذي عنده العلم الشامل المحيط بكل ما يصلح حياة الإنسان ، ويؤدِّي إلى سعادته في الدنيا ، والآخرة .

وشمول الأخلاق في الإسلام يمتد إلى كل أوجه النشاط الإنساني ، الظاهرة ، والباطنة ، والإسلام يهتم بباطن الإنسان أكثر من الظاهر ، ويوجّه الانسان ليبتغي بعمله وجه الله تعالى ورضاه .

والله تعالى لا يقبل من المؤمن أن يقوم بأداء التكاليف الإسلامية إلاّ إذا تشرّبت بها روحه ، ورضيت بها نفسه ، وقامت بأدائها عن حب ، ورغبة لا عن إكراه أو كسل .

فنطاق الأخلاق يشمل كل عمل ، وكل نشاط يقوم به الإنسان ، فليس هناك عمل يقوم به الإنسان إلاّ ويجب أن يكون أخلاقيا متشربا بالقيم ، والمباديء الإسلامية ، وقد بيّن الله تعالى لنا ذلك في كتابه الكريم ، ولم يدع الله سبحانه وتعالى لنشاط الإنسان في أيٍّ مجال من المجالات إلاّ ورسم له المنهج ، والقاعدة العامة لسلوكه بحيث يكون سلوكه متوافقاً مع قواعد الأخلاق ، ومبادئها ، فشمل بذلك علاقة الانسان بربه ، وبالناس من حوله ، وبالكون كله ، ولا عجب في ذلك فهذا المنهج هو منهج الله تعالى الذي اختاره لعباده المؤمنين مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ . (١)

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

يقول الإمام القرطبي في تفسيره للآية :

[أى ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلاّ وقد دلّلنا عليه في القرآن إمّا دلالة مبيّنة مشروحة ، وإمّا مجملة يُتلقى بيانها من الرسول عليه الصّلاة والسلام ، أو من الإجماع ، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب] . (١)

ويقول أبو السعود يرحمه الله ـ في تفسيره للآية :

[أى ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنّه تعالى مراعٍ لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي] . (٢)

وهكذا يتضح لنا أنّ الله سبحانه وتعالى قد أرشد الناس إلى كل ما يُصلح حياتهم في الدنيا ، والآخرة ، ويشمل ذلك الأخلاق ، وقيمها فهي من أهم ما بيّنه الله تعالى فإنّ نطاق الأخلاق في الإسلام يشمل كل نشاط الإنسان الفردي ، والإجتماعي ، سواء كان في مجال العلم ، أو الفن ، أو الإقتصاد أو أى جانب من جوانب الحياة .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

[إن سلطان الأخلاق منبسط على وجوه النشاط الإنساني كلها لا يشذّ عنه عمل تربوي ، ولا غير تربوي ، ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني ، أو أدبي أو روحي ، فالفنان الذي يجافي بفنه قانون الحشمة واللياقة ، ويهتك به ستر الحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الحيّ ، وإن لم تؤاخذه قواعد الفن ، والمعلم الذي يختار مادة تدريبه العقلي واللغوي للناشئين من أحاديث الرفث ، وأقاويل التحريض على الهجر والإثم ، يسيء من حيث يحسب أنّه يحسن ، والمرشد الديني أو المبشّر الذي يتوسلّ في الدعوة إلى دينه بوسائل الخداع والكذب ، أو بشيء من الإغواء بالمال أو الجاه ، أو غيرهما يرتكب جريمة من أشنع الجرائم ..) (٣)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ صـ ٤٢٠ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٣ صـ ١٣١ دار إحياء التراث العربي .

(٣) كلمات في مبادىء علم الأخلاق صـ ٤٠ .

ومن مظاهر شمول الأخلاق في الإسلام أنّ الله تعالى وجّه أوامر هذا الدين للناس كافةً كما في قوله تعالى :

﴿ قل يا أيها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعا ﴾ . (١)

﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . (٢)

ومن مظاهر الشمول أيضاً أنّ الانسان يجب عليه تطبيق قواعد الأخلاق على نفسه ، وعلى غيره ، وأن يكون تطبيقها على نمط واحد سواء كان على نفسه ، أم على الآخرين :

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ . (٣)

﴿ ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه ﴾ . (٤)

﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ . (٥)

وسواء أكان هذا التطبيق على أقربائه ، أم على البعداء ، على الأغنياء أم على الفقراء :

﴿ كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً ﴾ . (٦)

وسواء أكان خارج الجماعة أم داخلها :

﴿ ذلك بأنّهم قالوا : ليس علينا في الأمييّن سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهده واتّقى فإن الله يحب المتقين ﴾ . (٧)

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) الفرقان : ١ .

(٣) البقرة : ٤٤ .

(٤) البقرة : ٢٦٧ .

(٥) المطففين : ١ ـ ٣ .

(٦) النساء : ١٣٥ .

(٧) ال عمران ٧٥ـ٧٦ .

على الأصدقاء أم على الأعداء :

﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾. (١)

بل إنَّه حتّى في الحالة التي لا يشتمل نص التشريع فيها على لفظ عام ، وحتى لو كان منَزلاً بمناسبة ظرف فردي ـ فإنّه يعتبر من حيث المبدأ قابلاً للشمول .. ومن ذلك ما أعلنه رسول الله ﷺ في قوله :

[إنّي لا أصافح النساء إنّما قولي لمائة إمرأة كقولي لامرأة واحدة]. (٢)

ثالثا : الثبات :

يعتبر الثبات من خصائص الأخلاق في الإسلام ، ولا غرو في ذلك لأنّ هذه الأخلاق ربّانية المصدر ، وليست من وضع البشر ، ولذلك فهي ثابتة في أسسها ، ومقوّماتها ، وقيمها ، لا تتغيّر ، ولا تتبدّل ، وهي تستمدُ ثباتها من ثبات التصوّر الاسلامي نفسه و [هناك ثبات في « مقومات » هذا التصور الأساسيّة ، و«قيمه » الذاتية فهي لا تتغيّر ولا تتطور حينما تتغيّر « ظواهر » الحياة الواقعية ، و«أشكال » الأوضاع العملية .. فهذا التغيّر في ظواهر الحياة ، وأشكال الأوضاع يظل محكوماً بالمقوّمات والقيم الثابتة لهذا التصوّر ..

ولا يقتضي هذا « تجميد » حركة الفكر والحياة ، ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة ـ بل دفعها إلى الحركة ـ ولكن داخل هذا الإطار الثابت ، وحول هذا المحور الثابت] . (٣)

فالثبات في التصور الإسلامي يتجلّى في ثبات الأهداف ، والغايات ، وثبات الأصول ، والقواعد ، والكليات العامة ، وثبات القيم الأخلاقية .

---

(١) المائدة : آية : ٨ .

(٢) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي صـ ٧٢ .

وحول هذا الإطار الثابت تدور أحداث الحياة تحكمها هذه الأسس والقواعد الثابتة « وقيمة وجود تصور ثابت للمقوِّمات والقيم على هذا النحو هي ضبط الحركة البشرية ، والتطورات الحيوية ، فلا تمضي شاردةً على غير هدىً ـ كما وقع في الحياة الأوربيةعندما أفلتت من عروة العقيدة ـ فانتهت إلى تلك النهاية البائسة ذات البريق الخادع ، واللألاء الكاذب الذي يخفي في طياته الشقوة والحيرة والنكسة ، والإرتكاس .

« وقيمته هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه « الإنسان » بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصوّرات ، وبكل ما يجِدُ في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات فيزنها بهذا الميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها عن الحق والصواب .

ومن ثم يظل دائما في الدائرة المأمونة لا يشرد إلى التيه الذي لا دليل فيه من نجم ثابت ، ولا من معالم هادية في الطريق » .

« وقيمته هي وجود مقَوِّم للفكر الإنساني ، مقوِّم منضبط بذاته ، يمكن أن ينضبط به الفكر الإنساني فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثِّرات ، وإذا لم يكن هذا المقوِّم ثابتاً فكيف ينضبط به شيء إطلاقاً ؟ إذا دار مع الفكر البشري ـ كيفما دار ـ ودار مع الواقع البشري ـ كيفما دار ـ فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة وهي لا ترجع إلى ضابط ثابت يمسك بهذا الفكر الدوَّار أو بهذا الواقع الدوَّار ؟ » . (١)

ومن هذا التصور الإسلامي الثابت الأصول ، والقواعد تستمدُ الأخلاق الإسلامية ثباتها ، وتستند إليه فهي ثابتة ثبات الجبال الراسيات ، لا يلحقها تغير ، ولا تطور في أصولها ، وأسسها ، وضعها الله تعالى لعباده المؤمنين لتصلح حياتهم ، ويهتدون على ضوئها في كل ما يعِنُّ لهم من شئون الحياة .

---

(١) المرجع السابق صـ ٧٦ ـ ٧٧ .

فالأحكام في ديننا الإسلامي الحنيف على نوعين كما يقول ابن القيّم ـ رحمه الله ـ :

« نوع لا يتغيّر عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ، ولا اجتهاد الأئمة كوجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، والحدود المقدّرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ، ولا اجتهاد ولا يخالف ما وُضع عليه .

والنوع الثاني : ما يتغيّر بحسب اقتضاء المصلحة له زمانا ومكاناً ، وحالاً ، كمقادير التعزيرات ، وأجناسها ، وصفاتها فإنّ الشارع ينوّع فيها بحسب المصلحة » . (١)

والأخلاق من النوع الأول الذي لا يتغيّر بحسب الأزمنة ، ولا الأمكنة ، ولا الأحوال ، فالخير خير ، والشر شر ، ولا يمكن أن ينقلب الحال من النقيض إلى النقيض مهما تغيرت أحوال الناس ، وتبدلت ، فلا يمكن أن يأتي عصر يُعتبر فيه الكذب فضيلة ، والصدق رذيلة ، مهما ادّعى الوضعيون ذلك ، ومهما أتوا بشواهد من التاريخ لتُثبت أقوالهم ، فالشواهد التي يأتون بها تعود إلى حالات خاصة بضلال الضمير الإنساني ، ولا يمكن أن تتخذ قاعدةً عامة للبشرية .

فالأخلاق الإسلامية إذاً تتصف بصفة الثبات في قواعدها ، وأسسها التي تقوم عليها ، وذلك لأنّ المسلم يتلقّاها من الله العلي القدير العليم بما كان ، وما سيكون ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فوضع لنا بذلك المقياس الثابت الأصول ، والقواعد الذي يمكن للمسلم على ضوئه التمييز بين ماهو خير ، وما هو شر مهما تَغيّرت العصور ، والأحوال .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ ١ صـ ٣٣٠ ـ ٣٣١ الطبعة الثانية عام ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ م .

فالإسلام إذاً « يزودنا بقاعدة دائمة لمعرفة الحسن أو القبح الخلقي ، والإسلام لم يحصر علمنا بالأخلاق على العقل ، أو المشيئة ، أو التجارب أو العلوم الإنسانية فقط ، حتى لا تتغيّر أحكامنا الخلقيّة بتغيُّر هذه الوسائل الأربع ولا يقرُّ لها قرار أبداً ، بل الإسلام يمنحنا مرجعاً ثابت الأركان يزودنا بالتعاليم الخلقيّة في كل حال وزمان الا وذلك المرجع هو كتاب الله ، وسُنَّة رسوله الكريم ﷺ ، وهذه التعاليم ترشدنا إلى الطريق الأقوم ، وتضيء لنا الخطة المستقيمة في كل شأن من شؤون الحياة من أتفه المسائل البيتيّة إلى مسائل السياسة الدولية العظيمة ، ومشاكلها الخطيرة ، ونجد فيها انطباقاً متسعاً لأصول الأخلاق على شؤون الحياة المختلفة بحيث لا تحتاج بعده في رحلة من مراحل الحياة إلى وسيلة أخرى للعلم » (١)

وهكذا اتضح لنا البون الشاسع بين ما عليه الأخلاق الإسلامية من علوٍ ، ورفعه ، وثبات في أصول القيم ، وقواعدها ، وبين مايدعو إليه الوضعيون من جعل الأخلاق منفلتةً من الضوابط ، والقيم الثابتة التي توزن بها أفعال الناس ، وسلوكياتهم .

وهذه الخصائص التي اتصفت بها الأخلاق الاسلامية راجعة إلى كونها أخلاق ربانيّة المصدر ، فهي من الله الذي ليس كمثله شيء ، وكذلك كانت الأخلاق في الإسلام في منزلة سامية دونها جميع ما يدعو إليه الوضعيّون ، وغيرهم من أخلاق إنسانية المصدر .

---

(١) أبو الأعلى المودودي : نظام الحياة في الإسلام صـ ٢٣ ـ ٢٤ طبعة عام ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م الدار السعودية للنشر والتوزيع .

رابعا : كونها جزءاً من المسئولية الدينية :

الأخلاق الاسلامية تنبع من الدين ، وتقوم على أساسه ، وهي تكليف من الله تعالى ، وتحتل قسماً من أقسام الشريعة الإسلامية .

فمن المعروف أنّ الشريعة الإسلامية تشمل :

أ ـ ما يتعلق بالعقائد من أحكام مثل الأحكام المتعلقة بذات الله ، والإيمان به تعالى ، وباليوم الآخر .

ب ـ ما يتعلق باصلاح النفس الإنسانيّة ، وتهذيبها من أحكام ، وما تدعو اليه من فضائل ، وما تنهي عنه من رذائل .

جـ ـ ما يتعلق بالعبادات ، وهذا ما اختص به علم الفقه الذي يشمل جميع الأحكام العمليّة المشروعة في الإسلام .

والأخلاق الاسلامية يمتدُ نطاقها حتى يشمل جميع هذه الأقسام [فإن معظم أحكام هذه الأقسام يمكن إدراجها تحت عنوانها ولو باعتبار من الاعتبارات ، لأنّ دوافعها قد ترجع من قريب أو من بعيد إلى دوافع الأسس الأخلاقية] . (١)

وقد ضرب الشيخ « عبد الرحمن حبنكة » أمثلة عديدة بيّن لنا فيها مدى امتداد نطاق الأخلاق إلى كل أحكام الشريعة الإسلامية ، ولا غرو في ذلك فديننا الإسلامي في حقيقة أمره يقوم على الأخلاق .

وهذا ما أدى برسول الله ﷺ إلى أن يحدد بعثته كلها في إتمام مكارم الأخلاق حيث قال عليه الصلاة والسلام :

{ بعثت لأتمم حسن الأخلاق } . (٢)

---

(١) الأخلاق الإسلامية جـ ١ صـ ٢٣ ـ ٢٤ للدكتور عبد الرحمن حسن حبنكه .

(٢) موطأ مالك : كتاب حسن الخلق باب ماجاء في حسن الخلق جـ ٢ صـ ٩٠٤ من مجموعة الكتب الستة

والأخلاق الإسلامية تفترق عن المذاهب الوضعيّة القاصرة في أنّها تكليف، وإلزام من الله تعالى للمسلمين ، وهي ليست مذاهب ، ونظريات من وضع البشر يمكن أن تخضع للمناقشة والبحث والجدال فيها كما هو حاصل في الأخلاق الوضعيّة .

إن الإسلام يقدِّم لنا الأخلاق على أنّها أوامر تكليفيّة يجب الإلتزام بها ، والتمسك بها ، لأنّها من عند الله تعالى وهو مقتضى الايمان به تعالى لأنه :

﴿ ألا له الحكم ﴾ . (١)

﴿ لا معقب لحكمه ﴾ . (٢)

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مّما قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾ . (٣)

فالمسلم يتلقّى مباديء أخلاقه من الله ، ولا يُخضِع هذه المباديء للجدل والمناقشة لأنّها فوق ذلك ، فالأخلاق الإسلامية أخلاق عمليّة يجب على المسلم الإلتزام بها في كل شأن من شؤون حياته ، وكل عمل يُقدِم عليه ، والقرآن الكريم حافل بالتوجيهات والأوامر الأخلاقية التي يجب على المؤمن أن يتصف بها ، فهي مقتضى الإيمان ، فأسلوبها أسلوب الإيجاب ، والأمر من الله تعالي بالتخلّق بهذه الأخلاق لأنّها أخلاق الإيمان .**يقول الله تعالي :**

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغّن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمها كما ربّياني صغيراً ، ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنّه كان للأوّابين غفوراً ، وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تُبَذِر تبذيراً ، إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه

(١) الأنعام : ٨ .
(٢) الرعد : ٤١ .
(٣) النساء : ٦٥ .

لربه كفوراً ، وإمَّا تعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ، ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً إنَّ ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنَّه كان بعباده خبيراً بصيراً ، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيَّاكم إنَّ قتلهم كان خطئاً كبيراً ولا تقربوا الزنا إنَّه كان فاحشة وساء سبيلاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحقّ ، ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنَّه كان منصوراً ، ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه ، وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولاً ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ، ولا تقفُ ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً كل ذلك كان سيئّه عند ربك مكروهاً ذلك مّما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ . (١)

ففي هذه الآيات الكريمات يأمر الله تعالى فيها المؤمنين بالإتصاف بالأخلاق الإسلامية فمعنى قوله تعالى : « قضى » أى أمر فالقضاء هنا بمعنى الأمر . (٢)

فما احتوته الآيات الكريمة من مبادىء الأخلاق إنّما هي أمر ، وتكليف من الله تعالى على عباده المؤمنين ، فقد بيّنت الآيات الكريمة السابقة المنهاج الذي يجب على المسلم إتباعه في سلوكه وأخلاقه ، وعلاقاته مع الله تعالى أولاً ، ثم مع الجماعة المسلمة التي يعيش بينها .

ففيها أولاً ما يجب أن تكون عليه أخلاقه وسيرته مع الله تعالى من إفراده سبحانه بالتوحيد ، والنهي عن الشرك .

---

(١) الإسراء من ٢٣ ـ ٣٩ .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٧ دار الكتب العلمّية بيروت الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ

وما يجب أن تكون عليه أخلاقه تجاه والديه من البر ، والرحمة ، وخفض الجناح ، ونحو ذوي القربى ، والمساكين ، وابن السبيل .

وما يجب أن تكون عليه أخلاقه من ناحية الإنفاق ، والنهي عن التبذير والإسراف ، والتوجيه إلى التوازن ، والتوسط فخير الأمور الوسط العادل بلا إسراف ولا تقتير .

ثم النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر .

ثم النهي عن الزنا .

والنهي عن قتل النفس .

ثم النهي عن أكل أموال اليتامى .

ثم الأمر بالوفاء بالعهود ، والإلتزام بها .

ثم الأمر بايفاء الكيل والميزان .

ثم الأمر بالتثبت من الخبر ، ومن الظواهر قبل الحكم عليها .

ثم النهي عن الكبر والخيلاء .

وبعد فهذه الآيات قد أمرت بمجموعة من الصفات ، والأخلاق الكريمة التي يجب على المسلم الإلتزام ، وهي من مقتضى الإيمان بالله تعالى ، فالله تعالى هو الذي أمر نبّيه عليه الصّلاة والسلام بهذه الأخلاق ، وأمره بتبليغها إلى أمّته ، ففيها جماع الصفات ، والأخلاق التي يجب على المسلم الإتصاف بها والسير بموجبها نحو الله ، ونحو الوالدين ، والأقرباء ، والمجتمع بأسره .

ومن هذا يتضح لنا أنّ الأخلاق في الإسلام إنّما هي تكليف وأمر من الله تعالى الذي بيّن للمسلم المنهاج الذي يسير عليه في حياته في كل صغيرة وكبيرة ، فلا يضل ، ولا يشقى .

وسيأتي مزيد لهذه الجوانب العملية للأخلاق الاسلامية في المبحث القادم .

خامساً : ارتباطها بالجزاء الديني :*

لكل قانون جزاء يرتبط به ، يوقعه على الخاضعين له ثواباً ، أو عقاباً وإلاّ فقد القانون معناه .

[فالجزاء هو ردّ فعل القانون علي موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون] (١)

والأخلاق الإسلامية تمتاز على الأخلاق الوضعيّة بارتباطها بالجزاء الإلهي إرتباطا وثيقاً ، وقيامها على هذا الأساس .

ذلك لأنّ المسلم ينطلق من عقيدة الإيمان بالله تعالى رباً خالقاً له ، ومشرِّعاً لمنهاج حياته ، ومباديء أخلاقه ، وفي نفس الوقت من عقيدة الايمان باليوم الآخر ، وأن هناك حياة أخرى ، هي التي سيُحاسب فيها الناس على ما قدموا في هذه الدنيا من أعمال أى الايمان بمبدأ الجزاء في اليوم الآخر ، فالله تعالى هو المكافيء ، وهو المجازي العدل ، حيث لم يخلقنا عبثاً .

يقول تعالى :

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ . (٢)

﴿ أيحسب الانسان أن يُترك سدى ﴾ . (٣)

وعلى أساس الايمان بهذه العقيدة تقوم الأخلاق الاسلامية ، فالحياة الدنيا ليست عبثاً ، وليست آخر الرحلة ، ولا نهاية المطاف بل لابدّ من الجزاء العدل في اليوم الآخر ، وإلاّ لم يكن هناك معنى للتكليف ، والإلزام .

وللجزاء ميادين ثلاثة هي :

الجزاء الأخلاقي ، والجزاء القانوني ، والجزاء الإلهي (٤)

وسنتحدث عن كل جزاء من هذه الجزاءات بصورة مختصرة .

---

(١) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ٢٤٥ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ (٣) القيامة : ٣٦

(٤) دستور الأخلاق في القرآن صـ ٢٤٥ .

(*) اعتمدت في هذه الصفة على الاقتباس من كتاب دستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبد الله دراز .

أ ـ الجزاء الأخلاقي :

لقد رأينا عند حديثنا على الضمير الأخلاقي أنَّ من وظائفه أن يثيب صاحبه بالراحة ، والطمأنينة النفسية إذا أطاعه ، وبالألم والقلق ، والشعور بالإثم إذا عصاه ، والمذاهب الوضعية تعتبر هذا جزاءً أخلاقياً ، وتتوقف عنده ولكن الأمر في الإسلام يختلف عن ذلك ، فإن الإسلام يعترف بهذا الأثر الذي يحدثه الضمير في نفس الإنسان ، ولكن لا يعتبره جزاءً أخلاقياً ، وإنما دليلاً على إيمان الشخص .

يقول رسول الله ﷺ :

{ إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن } . (١)

وهذا اللوم الباطني الذي يتعرض له الإنسان المسلم إذا أقدم على فعل الشر ، يؤدِّي به إلى الندم ، والتوبة إلى الله تعالى من العودة إلى مثله ، وتعتبر التوبة جزاءً اصلاحياً أخلاقياً ، وتعتبر واجباً يفرضه الشرع علينا .

﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيُّها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ . (٢)

وإلى جانب الجزاء الإصلاحي هذا والذي يتمثّل في التوبة هناك جزاء ثوابي يتمثّل فيما يُسبغه فعل الخير ، والتمسك بالفضائل من شعور المؤمن بقيمة نفسه ، وسموِّها ، ورفعة شأنه ، وسمو روحه ، وأنه مخلوق مكرَم عند الله تعالى ، بينما ارتكاب الشرور والآثام يؤدِّي إلى انحطاط الإنسان ، وشعوره بالذل ، والمهانة ، وعدم احترامه لنفسه والشعور بالخزي فيصبح إنساناً مهاناً ، مبتذلاً ، لا كرامة له ، ولا عزة ، فالفضائل ، والرذائل إذاً هي التي تجازي الإنسان جزاءً أخلاقياً ، يشعر به في نفسه ، ويرى آثاره فيما يسبغه على نفسه بأكملها من شعور بالعزة والكرامة ، أو المهانة ، والذل(٣) .

---

(١) مسند أحمد عن طريق أبي أمامه الجزء الخامس صـ ٢٥٢ .

(٢) النور : ٣١ .

(٣) انظر دستور الأخلاق في الاسلام .

والقرآن الكريم حافل بالكثير من الآيات الكريمة التي تبيّن لنا هذا الجزاء الأخلاقي الذي تؤدّي إليه ممارسة الفضيلة ، أو الرذيلة ، ومن ذلك مثلاً ما تشير إليه الآيات الكريمة من أثر الصَّلاة ، والصدقة ، والصيام ، وغير ذلك من آثار أخلاقية في النفس ، ويتضح ذلك مثلاً ـ بالنسبة إلى الصَّلاة ـ في قول الله تعالي :

﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر اللهأكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾(١)

ففي هذه الآية اتضح لنا أن أداء الصَّلاة كاملة يؤدِّي بالإنسان إلى الإبتعاد عن الفواحش ، والمنكرات ، وتجعل الإنسان على اتصال دائم بالمنبع الشامل لجميع الكمالات الأخلاقية . [فهي اتصال بالله يخجل صاحبه ، ويستحي أن يصطحب معه كبائر الذنوب ، وفواحشها ليلقى الله بها ، وهي تطهره ، وتجرده ولا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما] . (٢)

وكذلك الأمر بالنسبة للصدقة إذ يقول الله تعالى :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ . (٣)

فالصدقة تطهِّر النفس الإنسانية من أدران الشح والبخل ، وتزكيها ، وتُبعدها عن الحرص الزائد على الدنيا .

والصوم :

﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . (٤)

فهو يقوِّي النفس على الصبر ، وعلى القدرة على التحمل .

والحج :

﴿ وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ﴾ . (٥)

---

(١) العنكبوت : ٤٥

(٢) في ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٧٣٨ .

(٣) التوبة : ١٠٣ .

(٤) البقرة : ١٨٣ .

(٥) الحج٢٨ .

والحج أيضا له منافع كثيرة تؤدِّي إلى الطهر ، والسمو بالإنسان .

وهكذا يتضح لنا أنّ الفضيلة هي التي تسمو بالنفس ، وترقى بالشعور الانساني.

وكذلك الرذيلة إنّها تدنّس النفس ، وتطمس نورها ، وتؤدي بها إلى الفساد ، ونفي الإيمان عنها .

وقد بيَّن الرسول ﷺ أنّ المداومة على الصدق ، يؤدِّي إلى تطبع النفس به ، وأنّ المداومة على الكذب يؤدِّي كذلك إلى أن يكتب الإنسان عند الله كذاباً .

يقول ﷺ :

{ عليكم بالصدق إنّ الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنّة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً } . (١)

يقول الدكتور « محمد عبد الله دراز »

[ليس يكفي أن يُقال : إنّ الخير يطهِّر القلب ، ويقوِّي الإرادة الطيبّة ويدعمها ، وإنّ الشر يفسد النفس ويدنسها ، ذلك أنّ أثرهما يذهب إلى ما هو أبعد بما لهما من انعكاسات وأصداء حتى في الذكاء : إن اضطراب الهوى يصدىء مرآة الفكر ، ويشوّه إدراكها للحقيقة ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (٢) على حين أنّ التوازن الناشئ عن الصلاح يجعل الإنسان قادراً

---

(١) البخاري كتاب الأدب : باب ٦٩ الجزء السابع صـ ٩٥ .

(٢) المطففين : ١٤ .

على تمييز الحق والباطل ، والخير والشر ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ (١) ... وهكذا تتلقى كل قوة من قوانا نصيبها من الجزاء الأخلاقي فنفسنا بأكملها إذن هي التي نعمل على أن تنقذها ، ونكملها أو نضللها ونجردها . ﴿ ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها ﴾ (٢)] (٣)

هذا عن الجزاء الأخلاقي الذي يعترف به الإسلام ، إنه يؤدي إلى أن تصبح للإنسان مَلَكَة مهتدية مستقيمة على منهج الله ، تجد طمأنينتها ، وراحتها النفسية في اتباعها لهذا المنهج ، واستقامتها عليه ، وتجد شقاءها في الإبتعاد عنه .

ب ـ الجزاء القانوني :

وهذا الجزاء في الحقيقة يعني « العقاب » فالجرائم هي التي تقام عليها حدود الله تعالى ، والدولة هي التي تقوم بتنفيذ أحكام الله في المجرمين الذين يعيثون في الأرض فساداً ، ويعملون على إشاعة المنكرات في المجتمع وإقامة الحدود عليهم يكون تأديباً لهم على ما اقترفوه من جرائم تخدش الشعور العام ، وتسيء القدوة في المجتمع .

والغرض من هذه الجزاءات المحافظة على النظام الإجتماعي في المجتمع المسلم ، والمحافظة على نظافة المجتمع ، ونظافة مشاعر أفراده بشيوع الفضائل ، ومحاربة الرذائل ، والمنكرات .

وهذا الجزاء الذي يقع على الإنسان من الخارج ، والجزاء الأخلاقي الذي يقع على الإنسان من داخل نفسه يشتركان في أنّهما يتمان في هذه الحياة الدنيا ، وعند هذين الجزاءين تتوقف الأخلاق الوضعيّة ، التي تحرص على المحافظة على

---

(١) الأنفال ٢٩ .

(٢) الشمس.

(٣) دستور الأخلاق في القرآن صـ ٦٠٢ .

قوانينها الوضعيّة ، وتطبّقها على المنحرفين أخلاقياً فتعاقبهم على ما يصدر منهم من انتهاكات لهذه القوانين .

ولكن الأخلاق الإسلامية تتميّز بأنّها إلى جانب احتوائها على هذين اللونين من الجزاءات تضم لوناً آخر مهماً وهو الجزاء الإلهي الذي يتم في الآخرة .

جـ ـ الجزاء الإلهي :

تقف جميع الأخلاق الوضعيّة بجزاءاتها عند حدود هذه الحياة الدنيا ، لا تتجاوزها لأنّها لا تؤمن بالآخرة ، حيث سيحاسب الله تعالى فيه الناس على ماقدموا من عمل في هذه الدنيا ، بينما الأخلاق الدينيّة عامة تؤسّس أخلاقها على أن الجزاء الأكمل ، والأوفى ، والعدل سيتم يوم القيامة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ﴾ . (١)

فالدنيا هي مزرعة الآخرة ، فمن زرع الخير ، وامتثل لمنهج الله كان جزاؤه الجنة ، ومن حاد عن هذا المنهج ، واتبع هواه كان جزاؤه جهنم وبئس المهاد .

هذه عقيدة أساسية تقوم عليها الأديان السماويّة كلها بلا استثناء ، والله تعالى قد قرن الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر وما سيكون فيه .

والوضعيّون الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر يعيبون على الأخلاق الدينيّة قيامها على عقيدة الجزاء ، حيث نجد « أوجست كونت » يصم الأخلاق الدينية بأنها أخلاق نفعية (٢) فما دام الإنسان ـ في نظره ـ مدعو للامتثال للأخلاق رغبةً في الحصول على الثواب ، ورهبةً من العقاب فهي أخلاق نفعيّة ـ في نظره ـ بينما الأخلاق الوضعيّة تستهدف الواجب الأخلاقي فقط ، ولا غاية لها ولا هدف سواه .

وفي الحقيقة فإنّ هذا الهراء الذي يتفوّه به الوضعيّون لا أساس له من الصحة ، وهو كله باطل ، ولا حق فيه ، وذلك لأنّ :

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) أنظر الأخلاق في الفلسفة الحديثة : ترجمة عبد الحليم محمود صـ .

الإسلام ـ كما رأينا فيما سبق ـ يبني إلزامه الأخلاقي ، وأوامره كلها في الحقيقة على مباديء وأسس هامة ورئيسية وهي :

أولا :

الإيمان بأنّ الله تعالى وحده هو المشرع وهو وحده المصدر الذي يستقي منه المؤمنون مباديء أخلاقهم ، وقيمهم ، لأنه خالقهم وهو أعلم بما يصلح حياتهم ، ولذلك فهم يؤمنون إيماناً جازماً بأنّه تعالى لا يأمر إلاّ بما فيه الحق ، والخير ، والإحسان ، ولا ينهى إلاّ عن الشر ، والباطل ، والضلال ، وأوامر القرآن كلها في الحقيقة تستهدف الأخلاق وتقوم أساساً على الأخلاق ، فالله تعالى يوجِّهنا بتعليماته ، وأوامره إلى غايات أخلاقية في ذاتها .

ثانيا :

الإيمان بأن الله تعالى هو العليم الخبير ، فهو وحده العالم بما تخفي الصدور ، وما تعلن ، فليس لعلمه تعالى حدود فكل خطرات النفوس ووساوس الصدور يعلمها الله ، ولا يخفى عليه شيء من ذلك ، وبذلك يشعر المسلم أن الله تعالى مطلع عليه ، وهو معه أينما كان ، وأينما توجّه ، فلا يتجه بأعماله إلا إلى الغايات الأخلاقية النبيلة التي وجَّهه الله إليها .

ثالثا :

الإيمان بأن هناك حياة أخرى سيبعث فيها الله تعالى الناس جميعاً ، وسيجازيهم على ما قدّموا من أعمال إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

فهذه الأسس هي التي أقام الإسلام أوامره ، وإلزامه عليها ، ويتبيّن لنا من ذلك أن السمة المميّزة لهذه الأوامر ، والتكاليف أنّها تستهدف غايات أخلاقية نبيلة ، وليس التركيز فيها على الثواب والعقاب فقط ، فنظراً لأن الله

تعالى خالق الانسان فهو سبحانه يعلم اختلاف نفوس البشر ، وتفاوتهم فهناك صنف من الناس لا يهمه إلاّ المبدأ الأخلاقي في ذاته بصرف النظر عن أي مكافأة أو نتيجة فباعثه أداء الواجب الأخلاقي وهناك نفوس تتطلع إلى المكافأة والمثوبة أولاً فيكون باعثها للالتزام بالتكاليف الحصول على الثواب ، وهكذا تنوعت الأساليب القرآنية تبعاً لتنوُع النفوس ، فما دام الجميع في النهاية يهدفون إلى رضا الله تعالى فليس هناك مانع من تنوع الأساليب القرآنية .

فهناك نفوس يغريها طلب الثواب ، والمكافأة ، وقد لا تستجيب لمبدأ الإلزام إن دعوناها إليه باسم المبدأ الأخلاقي وباسم الواجب فقط ، ولكن يمكن بعد ذلك أن تستجيب ، وتمتثل لأمر الواجب بعد الإغراء بالثواب والأجر .

يوضح هذه الحقيقة الدكتور محمد عبد الله دراز فيقول :

[كيف تُقنع بالواجب إنساناً مستغرقاً في شئونه ، أو آخر مستسلماً لشهواته إذا كنت تطلب منه أن ينقطع تماماً عن ماضيه كله على صورة تَحول عنيف ، وأن يُخضع نفسه لقاعدة جافة لم يدرك بعد ملاءمتها ؟
وإذا كنت فضلاً عن ذلك تعمد إلى منعه من أن يلقي نظرةً واحدة على أى شيء من شأنه أن يسوغ في نظره أمرك إياه وإلا أصبح عديم الأخلاق ؟
ألم يكن أكثر تعقلاً وإنسانية لكي تلقن تلميذك أوليّات الحياة الأخلاقية أن تبدأ بوضع نفسك مكانه وتنظر من الزاوية التي ينظر منها ؟ وأن تحاول أن تعطيه بدل ما تريد أن تسحبه منه ، وأن تريه أنّ طريق الواجب هي في الوقت نفسه طريق الذكاء والذوق الحسن ، ... إنه كلما عرف بطريقة أفضل فائدة الاستقامة شيئاً فشيئاً .. فلسوف يتسنى له أن يتذوق حلاوة الخير وربما استطاع عند بلوغ هذا الحد أن ينفصل تماماً عن كل مؤثّر أجنبي كيما يستسلم استسلاماً كاملاً للواجب من أجل الواجب دون أن تقلقه عواطفه الذاتية (١)

وهكذا يتضح لنا تهافت ما زعمه الوضعيّون من أنّ الأخلاق الدينيّة أخلاق منفعة تستهدف الثواب ، والمكافأة فقط ، فقد رأينا أن الإسلام يحرص علي تنويع الأساليب تبعاً لتنوع النفوس ، وهذا نوع من التربية القرآنية .

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن صـ ٣٣٥ .

ومع كل ذلك فإنّ ممّا يثبت أن الإسلام يدعو إلى غايات أخلاقية ، وذلك باسم الواجب الأخلاقي ، والمبادىء الأخلاقية في ذاتها أنّ القرآن الكريم في معظم آياته يبيّن لنا أنّ أوامره ، وتكاليفه إنّما هي في الحقيقة النور الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأنها هي الحق ، والعدل ، وهي الصراط المستقيم فهي في ذاتها قيمة أخلاقية محضة .

يقول الله تعالي :

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ . (١)

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ . (٢)

﴿ أوَمَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ . (٣)

فتكاليف القرآن الكريم هي في ذاتها هدىً للمتقين ، وهي الصراط المستقيم ، وهي الحق في ذاتها :

﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُ من ربهم ﴾ . (٤)

فمثل هذه الآيات تؤكّد على أنّ الاسلام في جوهره ، وفي ذاته إنما هو الأخلاق ، والقيم ، وهو لا يدعو إلاّ إلى مبادىء الحق ، والعدل والإحسان وكل ما يأمر به إنما يمثّل هذه الحقيقة .

يقول تعالى :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ . (٥)

﴿ قل إنّما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحـق ﴾ . (٦)

(١) المائدة : ١٧٤ . (٢) الأعراف : ٣٢ (٣) الأنعام : ١٢٢ .
(٤) البقرة : ٢٦ (٥) النمل : ٩٠ . (٦) الأعراف : ٣٢ .

ويقول تعالى :

﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل أمر ربي بالقسط ﴾ (١)

وهكذا يتضح لنا أن أوامر القرآن كلها أوامر أخلاقية فمن ذلك مثلاً قول الله تعالى :

﴿ ليس البِّر أن تولَوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ، ولكن البِّر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبه ذوي القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصّلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرَّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ . (٢)

فهذه الآية الكريمة بيّنت لنا جماع البر ، وجماع الإيمان ، وبيّنت ما يجب على المسلم الإتصاف به من فضائل الأخلاق .

وكذلك يبيّن هذا المعنى ، وهذا القصد قول الله تعالى :

﴿ قل تعالوا اتل ما حّرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلِّف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . (٣)

---

(١) الأعراف : ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣ .

فهل بعد هذه المبادئ الأخلاقية التي أوجبها ، وأمر الله تعالى بها بأسلوب رائع ، وقوي يمكن أن يُقال إنّ الأخلاق الاسلامية تقوم لطلب المنفعة ، والثواب ؟

إن هذه الآيات كما رأينا لم يذكر فيها الجزاء ، ولم يرد فيها ذكر الجنة أو النار فكل ما فيها حضٌ وإلزام بالصفات الأخلاقية لذاتها ، ولقيمتها ، ولأنها هي الحق ، والعدل ، وما عداها هو الضلال ، وهو الباطل ، وأنها هي الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

ومع ذلك فإنّ هذه الأخلاق تستند إلى عقيدة الجزاء ، وتؤمن بالعدالة الإلهية المطلقة إذ لا يُعقل أن يسوِّي الله بين المسلمين ، والكفار ، ولا بين الصالحين والمجرمين .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ . (١)

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ . (٢)

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾ . (٣)

وهكذا يقرر الله تعالى مبدأ الجزاء ، وتحقيق العدل الإلهي المطلق ، وذلك يوم القيامة ومع ذلك فإننا نجد في القرآن آيات كثيرة تبيّن لنا أنّ الجزاء الإلهي لا يقتصر على اليوم الآخر فقط ، بل في الدنيا أيضاً تظهر آثار هذا الجزاء العادل ، فالصالحون سيجدون تسهيلاً من الله تعالى لهم في كل أعمالهم ، وتيسيراً لها ، والفاسدون سيلقون في حياتهم الدنيا كل الشقاء والهوان .

---

(١) الجاثية : ٢١ .

(٢) ص : ٢٨ .

(٣) ن : ٣٥ ـ ٣٦ .

يوضح ذلك قول الله تعالى :

﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردُّون إلى أشدِّ العذاب وما الله بغافل عمّا تعملون ﴾ . (١)

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . (٢)

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . (٣)

وقد بيّن الله لنا أنّ الصالحين من عباده يدعونه أن يؤتيهم في الدنيا، والآخرة حسنة .

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ . (٤)

﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ . (٥)

ومن ألوان الجزاءات الإلهية في الدنيا ، والتي تظهر آثارها على المؤمنين ، والفاسقين ما بيّنته الآيات الكريمة من أنّ الله تعالى سينزل الطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين الصالحين الذين اختاروا طريق الهدى ، ومنهج الله فهؤلاء سيهديهم الله، ويزيدهم نوراً على نور ويصلح بالهم .

وهذا يتضح لنا في مثل قول الله تعالى :

﴿ ويزيد الذين اهتدوا هدىً ﴾ . (٦)

﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ . (٧)

﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ . (٨)

---

(١) البقرة : ٨٥ . (٢) النحل : ٩٧ .

(٣) النور : ١٩ . (٤) البقرة : ٢٠١ .

(٥) الزمر : ١٠ . (٦) الأنبياء : ٧٦ .

(٧) الفتح ٤ و١٨ . (٨) الحديد : ٢٨

﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (١)

وكذلك الأمر بالنسبة لجماعة المسلمين فقد بيَّن الله تعالى أنّه سيمكن لهم في الأرض إن هم تمسكوا بمنهجه ، وأقاموا دينه، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر :

يقول تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنّنّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ . (٢)

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ . (٣)

﴿ كتب الله لأغلبَّن أنا ورسلي ﴾ . (٤)

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ . (٥)

على أن الجزاء الأكمل والأوفى هو الجزاء الروحي الذي يتمثّل في رضا الله ، وحبه للمسلمين المتقين :

﴿ إن اللّهيحب المحسنين ﴾ (٦) ﴿ يحب المقسطين ﴾ (٧)

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٨)

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .

(٢) النور : ٥٥ .

(٣) محمد : ٧ .

(٤) المجادلة : ٢١ .

(٥) المنافقون : ٨ .

(٦) البقرة : ١٩٣ .

(٧) المائدة : ٤٢ .

(٨) النحل : ١٢٨ .

هذا ما بيّنه القرآن الكريم من ألوان الجزاءات الإلهية للمتقين ، والصالحين في هذه الدنيا .

ونقيض ذلك أعده الله للفاسقين ، والمفسدين كما يتضح لنا في مثل قوله تعالى :

﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ (١)

﴿ أولئك في الأذلين ﴾ . (٢)

﴿ وأن الله مخزي الكافرين ﴾ . (٣)

وكذلك بيَّن اللهتعالى أنّ الذين اختاروا الضلالة على الهدى فإنّ الله تعالى لن يهديهم:

﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾ . (٤)

ويتركهم الله للشيطان :

﴿ ومن يَعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً ﴾ . (٥)

ويقودهم في الظلمات :

﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ . (٦)

وقد بينّ الله تعالى أيضا أنّ هؤلاء مبعدون عن رحمته ، وحبه فهو تعالى :

﴿ لا يحب الظالمين ﴾ . (٧)

﴿ لا يحب الخائنين ﴾ . (٨)

﴿ لا يحب المستكبرين ﴾ . (٩)

وقد اتضح لنا من النصوص السابقة أنّ الجزاءات التي بيّنتها إنّما هي جزاءات روحية ، وجزاءات أخلاقية ، ولم يرد ذكر الجزاء المادي في القرآن الكريم إلا في موضع وحيد في القرآن الكريم (*)

---

(١) آل عمران : ١٢ . (٢) المجادلة : ٣٠ . (٣) التوبة : ٢

(٤) النحل : ١٠٤ . (٥) الزخرف : ٣٦ . (٦) البقرة : ٢٥٧ .

(٧) ال عمران : ٥٧ . (٨) الأنفال : ٥٨ . (٩) النحل : ٢٣

(*) أنظر : دستور الأخلاق في القرآن صـ ٣٤٥ .

وهو في قول الله تعالى :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ . (١)

﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ . (٢)

هذا بالنسبة للجزاء الإلهي في الدنيا ، ولكن الله تعالى بيّن لنا أنّ الجزاء الأوفى ، والأتم سيكون يوم القيامة ، لأن الجزاء في الدنيا غير تام ، بل قد يكون ابتلاءً من الله تعالى ، كما أن الكفّار سينالون جزاء ما قدّموه من أعمال صالحة في الدنيا فقط ، وفي الآخرة سينالون عقابهم من الله لكفرهم ، وإعراضهم عن الحق .

يقول تعالى :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ . (٣)

ولذلك فإن المؤمن عليه أن ينشد الجزاء في الآخرة ، فالدنيا إلى زوال ، والآخرة هي المستقر ، فالمؤمنون سيُخلّدون في الجنة ، والنعيم ، والكفار سيخلّدون في النار ، وبئس المصير .

فالجزاء الإلهي حق ، وعدل ، والله تعالى هو الذي أوجب على نفسه مكافأة المؤمنين على ما قدموا من أعمال صالحة في الحياة الدنيا وذلك بإدخالهم الجنة .

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم ألوانا عديدة من الجزاءات التي أعدّها لعباده المتقين فجمع بين الجزاءات المادّية ، والروحية والمعنويّة ، والملاحظ أنّ الجزاءات المعنوية هي التي ركز عليها القرآن ، حيث بيّن تعالى أنّ أفضل الجزاء ، وأكمله هو القرب من الله تعالى ، والنظر إلى وجهه الكريم ، فينعمون برضاء الله عنهم ومحبته لهم .

﴿ ومغفرة من الله ورضوان ﴾ . (٤)

---

(١) الطلاق : ٢ ـ ٣ .

(٢) الطلاق : ٤ .

(٣) سورة هود :آية ١٥ ـ ١٦ .

(٤) آل عمران : ١٥ .

﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ . (١)

والنعيم الذي أعده الله تعالى لعباده المتقين في الجنّة لا يمكن تصوّره ، والله تعالى يقول :

﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين ﴾ . (٢)

ويقول تعالى في حديث قدسي :

﴿ أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ (٣)

وفي المقابل فإنّ الله تعالى قد أعدّ للكفار ، والفاسدين ألواناً عديدة من العذاب يوم القيامة في جهنم ، وبئس المهاد .

وهكذا اتضح لنا أنّ الأخلاق في الإسلام ترتبط ارتباطا وثيقاً بفكرة الجزاء .

هذه الفكرة التي تقوم علي مبدأ الإلزام ، فما دام هناك إلزام وتكليف فلابد أن يكون هناك جزاء يتمثّل في الثواب أو العقاب .

وقد رأينا مدى سعة الجزاء وتنوعه في الإسلام ، وكيف أنّه لا يقتصر على الجزاء المادي فقط ، بل إنّه يمتد فيشمل الجانبين المادي ، والمعنوي ، ويركز على الجانب المعنوي والأخلاقي ، ويوجه المسلمين إلى طلب رضا الله، ومحبته والقرب منه .

وبذلك تتهافت دعوى الوضعيين من أنّ الجزاء في الإسلام يؤدّي إلى اعتبار الأخلاق في الإسلام أخلاقاً نفعية .

---

(١) القيامة آية ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) السجدة : ١٧ .

(٣)البخاري : كتاب التفسير باب ٣٣ .

سادسا : الواقعية المثالية :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بسمة « الواقعية » ولكن لا نعني بهذه الصفة ما يعنيه بها الوضعيّون ، والماديون بصفة عامة الذين ينادون بترك الإنسان مسايراً رغباته ، ودوافعه بحجة أنّ هذا هو الواقع الذي هو عليه ، فهم لا يعترفون إلاّ بالواقع الملموس ، وينكرون ما عداه ، وينادون بأن تؤخذ الأخلاق وتستقى من هذا الواقع الذي يعيشه الناس بحجة أنّ « ماينبغي أن يكون » ، والمثاليات ليس لها وجود إلاّ في خيالات الفلاسفة ، وأوهامهم . فالإسلام بأخلاقه يترفّع عن هذا التصوّر الهابط الذي يُسبغ صفة الشرعّية على الهابطين ، ويعترف بما هم عليه من انحطاط ، ولا ينكره عليهم .

وانما الذي نعنيه بواقعية الأخلاق الإسلامية هو أنّها تعترف بالواقع الذي خلق الله تعالى عليه الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة فيه الروح التي تنزع به إلى التسامي ، والتحليق في أجواء المثالية ، والروحانية ، وفيه قبضة الطين التي تجذبه إلى الأرض ، وإلى الشهوات ، وتحقيق الدوافع الفطرية التي خلقها الله تعالى فيه .

يقول الله تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين فإذا سويّته ، ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾. (١)

﴿ وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه ، ونفخ فيه من روحه ﴾ . (٢) فالأخلاق الإسلامية « واقعية » لأنها تراعي هذه الطبيعة المزدوجة فهي لّما كانت أخلاقا ربّانيّة المصدر فقد راعت هذه الطبيعة البشرية لأن الله تعالى هو خالق الإنسان ، وهو أعلم به. ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ . (٣) .

(١) ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) السجدة ٧-٩ .

(٣) الملك : ١٤ .

فالله تعالى أعلم بهذا الإنسان ، وبما هو عليه من ضعف ، وما فيه من دوافع خلقها اللهتعالى فيه ، وتطالبه باشباعها .

فالإسلام يعترف بهذه الدوافع ، ولا يستقذرها ، ولا يكبتها ، وإنّما تتجلّى واقعيته في أنه يوجِّهها التوجيه المناسب ، ويصرفها في مصرفها الذي أحله الله تعالى ، ويدعو الإنسان مع ذلك إلى عدم الإستغراق في تلبية هذه الدوافع ، والإستسلام لها ، بل يوجِّهه إلى ضبطها ، والتحكم فيها .فالأخلاق الإسلامية تتميز بأنّها أخلاق واقعيّة ومثالية في آن معاً ، فهي دائماً وأبداً تستحث الإنسان على الترفّع عن ، الدنايا وتبعث في نفسه حب السمو ، والرفعة بما ترسمه له من مثل عليا تدعوه إلى تحقيقها في نفسه وفي واقعه الذي يعيش فيه ...... فهي تدعوه إلى الترفّع بهذا الواقع إلى أعلى ما يمكنه ، وإلى التحليق في أجواء الروحانية ، والمثالية بقدر ما يمكنه وبقدر استطاعته ، فهي لا تعترف بالواقع الهابط الذي يهبط إليه الهابطون بمحض إرادتهم تلبية لدافع الهوى ، والشهوة .

إن الأخلاق الإسلاميّة تنأى بالإنسان عن الإستسلام للهوى ، وعبادة الشهوات والنزوات الشيطانيّة ، ولذلك أكثر القرآن الكريم من ذم الهوى في مثل قول الله تعالى :

﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ .(١)

﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ . (٢)

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ . (٣)

﴿ ومن أضلُ ممِن اتبع هواه ﴾ . (٤)

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون ﴾ .(٥)

---

(١) ص : ٢٦ . (٢) النساء : ١٣٥ .

(٣)المؤمنون : ٧١ .

(٤) القصص : ٥٠ . (٥) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦ .

وقوله تعالى :

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ . (١)

فالقرآن الكريم ذمّ اتّباع الهوى لأنّ صاحبه أعمى عن رؤية الحق ، فهو يتمسّك بالباطل ، وما تزينه له شهوات نفسه ، منتهكاً في سبيل ذلك حرمات الله .

فالأخلاق الإسلامية توجّه المسلم التوجيه الصحيح لتلبية دوافعه الفطرية ، وتحدّد له الحدود التي لا يجوز له انتهاكها ، وإلاّ وقع في الحرام ، والمحظور ، فهي لا تعترف بالرذائل التي يهبط إليها الناس متحللين من ضوابط الأخلاق ، والقيم بل إنّها تدعو الهابطين إلى الإنابة إلى الله ، والتوبة إليه ممّا وقعوا فيه من الذنوب ، والكبائر فمزية المتقين التي وصفهم الله تعالى بها هي أنّهم يرجعون إلى الله، ويتوبون ممّا اقترفوا من ذنوب .

يقول الله تعالى :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلاّ الله، ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ . (٢)

فواقع الإنسان هو أنه يمكنه الإرتفاع والسمو ، والتطهّر ممّا وقع فيه من الذنوب ، وهذا ما راعته الأخلاق الإسلامية فهي تأخذ في اعتبارها هذا الإنسان وقدراته ، وقوته ، وضعفه ، وحاجاته ، ودوافعه فتراعي كل ذلك في تكاليفها فهي لا تطلب من الإنسان أن يكون كالملائكة في سلوكه ، وإنما تعامله كإنسان تعلو به الروح تارة ، وتهبط به تارةً أخرى ، ولكن مع ذلك فباب التوبة مفتوح أمامه ، وعليه الإسراع بالتوبة ، وتدارك ما وقع فيه خطأ وزلة .

وتتجلى واقعية الأخلاق الإسلامية في مراعاتها التفاوت القائم بين البشر فهم ليسوا كلهم على درجة واحدة من إمكان السمو ، والترفع ، والتسابق في فعل الخير ، بل

---

(١) الكهف : ٢٨ .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

هم أنواع كما نصّ على ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالي :

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ . (١)

[فالظالم لنفسه : هو المفرِّط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرملت . « ومنهم مقتصد » هو المؤدِّي للواجبات ، التارك للحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات »

[والسابق بالخيرات : هو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات ، والمكروهات وبعض المباحات] . (٢)

ولذلك فقد راعت الأخلاق الإسلامية هذا التفاوت بين البشر فحدَّدت في كل عمل أخلاقي درجةً أدنى لا يصحُ للعمل أن يهبط دونها ، وإلاَّ فقد انتهك الإنسان حدود الأخلاقية ، ثم فتحت المجال أمام المتسابقين في فعل الخير ، وحثَّتهم ، ورغَبتهم في تجاوز هذه المرحلة إلى المراحل العليا السامية . فالأخلاق الإسلامية « تعيِّن في كل عمل يقبل التحديد درجتين من الخير ، وتعطي لكلٍ منهما علامات مميِّزة ومحدَّدة بدرجة كافية : الحدّ الأدنى الذي لا يهبط العمل دونه إلاّ إذا أخلَّ بالواجب ، ثم ما يعلو فوق ذلك دون تجاوز للحد الأقصى ، وبعبارة أخرى الخير الإلزامي ، والخير المرغوب فيه » . (٣)

فالأخلاق الاسلامية تفتح أمام النفس البشرية آفاق الخير ، وتستثيرها للتسابق في فعل الخير ، ولذلك كانت مراتب الدين ثلاث مرتبة الاسلام ، ومرتبة الايمان ، ومرتبة الاحسان ، وهذه المرتبة الأخيرة أعلى المراتب ولا يصل إليها إلاّ ذوو العزائم القويّة ، وأصحاب النفوس العالية الذين لا يقنعون بالوقوف عند الحدّ الأدنى للواجبات والأوامر ، وإنّما يتطلعون إلى المراتب العليا ، والقرآن الكريم يستحث

---

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) نقلاً عن تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٨٨٣ .

(٣) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ٩٢ .

المسلمين دوماً على بذل الجهد ، والعمل لبلوغ مرتبة الاحسان ومن ذلك مثلاً قول الله تعالى :

﴿ ونِعم أجر العاملين ﴾ . (١)

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ . (٢)

ويدعونا القرآن إلى استباق الخيرات في مثل قوله تعالى :

﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ . (٣)

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ . (٤)

﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ . (٥)

والآيات التي تحث المسلمين على بذل الجهد ، والسمو بأنفسهم ، والرفعة في طلب أرقى مراتب الكمال ، والخير ، وتحقيق المثل العليا الأخلاقية كثيرة جداً في القرآن الكريم فهي مع اعترافها بواقع الناس ، وقدراتهم ـ تبعث في نفوس المسلمين حب التسامي ، وبذل الجهد لاختيار أعلى الدرجات الأخلاقية ، فليس من بذل الجهد في التكاليف الأخلاقية كمن قنع بأدنى منزلة للواجب الأخلاقي فالله تعالى يقول :

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ . (٦)

---

(١) ال عمران : ١٣٦ .

(٢) التوبة : ١٠٥ .

(٣) المائدة : ٤٨ .

(٤) الزمر : ٥٥ .

(٥) الواقعة : ١٠ ـ ١١ .

(٦) النساء : ٩٥ .

فالجميع وعدهم الله بالخير ، ولكن لا يتساوون في المنزلة ولا في الدرجة ، فالأخلاق الإسلامية تشجّع المسلمين على بلوغ المرتبة التي يحب الله أهلها وهي مرتبة الاحسان .

﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ . (١)

وتدعونا هذه الأخلاق إلى العفو ، والتسامح والأمثلة على ذلك كثيرةٌ جداً في كتاب الله ، فمع أنّ الله تعالى يقرر في كتابه الكريم أنّه :

﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾

إلاّ أنّه مع ذلك وفي نفس الآية يحثنا على العفو فيقول تعالى :

﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ . (٢)

ومع أن الأخلاق الإسلامية تدعونا إلى إمهال المدين ، والصبر عليه إن كان عاجزاً عن الوفاء بدينه فهذا أدنى درجات الواجب الأخلاقي ، ولكن مع ذلك فإن الله يحبّب إلينا إعفاءه نهائياً من هذا الدين كما في قوله تعالى :

﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ﴾ . (٣)

وكذلك حثّ القرآن على العفو كما في قوله تعالى :

﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ . (٤)

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ .(٥)

---

(١) آل عمران : ١٩٣ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

(٣) البقرة : ٢٨٠ .

(٤) البقرة : ٢٣٧ .

(٥) البقرة ٢١٩ .

وهكذا آيات كثيرة تستنهض هممنا ، وأن نتمسك بالحل الأمثل كما في قوله تعالي:

﴿ وأن تصبروا خير لكم ﴾ . (١)

﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾ . (٢)

ومن مظاهر واقعيّة الأخلاق الإسلامية بل التكاليف الإسلامية كلها السهولة واليسر ، ذلك لأنّ الله تعالى كما قرر في كتابه الكريم :

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ . (٣)

﴿ لا يكلّف اللهنفساً إلا ما آتاها ﴾ . (٤)

فهي أخلاق سمحة ميسورةٌ لا إرهاق فيها ، ولا إعنات بل تستريح لها النفوس التقية ، النقية ، وتؤيدها العقول السليمة .

يقول تعالي :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ . (٥)

﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ . (٦)

فهي تراعي أحوال الناس جميعا ، وترحم ما فيهم من ضعف ، فتعفي المرضى والعجزة ، وترخّص لهم فمن ذلك أنّ الله تعالي أعفى العاجزين من فريضة الجهاد

يقول تعالي :

﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ﴾ . (٧)

---

(١) النساء : ٢٥ .

(٢) البقرة : ١٨٤ .

(٣) البقرة : ٢٨٦ .

(٤) الطلاق : ٧ .

(٥) البقرة : ١٨٥ .

(٦) الحج : ٧٨ .

(٧) الفتح : ١٧ .

وكذلك تتجلى واقعية الأخلاق الإسلاميّة في أنّها راعت النساء والضعفاء من الرجال والولدان ففي حين يجب على القادرين الهجرة ، وترك بلاد الكفر فقد أعفى الله من هذا الواجب هؤلاء الضعفة . كما في قوله تعالى :

﴿ إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً ﴾ . (١)

وكذلك راعت هذه الأخلاق الإسلامية الظروف الاستثنائية التي تعرض للمسلم في حياته ، ومن ذلك مثلاً أنّ الله تعالى رخّص للمسافر قصر الصّلاة أثناء السفر ، والفطر في رمضان أثناء السفر .

يقول تعالى :

﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصّلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ . (٢)

﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيام أخر ﴾ . (٣)

وتتجلى واقعية الأخلاق الاسلامية أيضاً أنها في حالات الضرورة تلغي التكليف ، وتسقطه حتّى لا يقع الضرر منه على المسلمين لأنّ القاعدة الأخلاقية التي يقوم عليها ديننا الاسلامي الحنيف هي : { لا ضرر ولا ضرار }

ويتضح ذلك في مثل قول الله تعالى :

﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ . (٤)

---

(١) النساء : ٩٧ ـ ٩٩ .

(٢) النساء : ١٠١ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

(٤) المائدة : ٣

[أى مَنْ احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرّمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله ، والله غفور رحيم له لأنّه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر ، وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفر له] . (١)

وبعد فهذه هي المظاهر التي يتجلى فيها مدى التيسير ، ورفع الحرج عن المسلمين ، ومراعاة واقعهم ، وضعفهم والأمثلة كثيرة على ذلك ، وهي إن دلت على شيء فهي تدل علي ما في هذه الأخلاق من رفعة ، وسمو ، ولا شك في ذلك فهي الأخلاق الربّانية الآتية من عند الله العليم الخبير بأحوال عباده ، وما يصلح لهم في حياتهم فهي الأخلاق الوحيدة التي راعت أحوال الناس ، وظروفهم ، وفي نفس الوقت فتحت لهم آفاق الخير ، والمثالية ، ودعتهم إلى السمو ، والرفعة وهذه هي الواقعية المثالية تتجلى في أخلاقنا الاسلامية .

سابعا : التوازن :

وهذه خاصيّة أخرى تتميّز بها الأخلاق الإسلاميّة ، وهي تعني التوسّط ، أو التعادل بين طرفين متقابلين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير .

والأخلاق في الإسلام تقف في موقف العدل بين المذاهب المتطرفة التي فرضت على الإنسان كثيراً من القيود ، وألواناً من الحرمان ، والتقشّف ما أنزل الله بها من سلطان ، فأدّت بالإنسان إلى كبت دوافعه ، ومتطلبات جسده ، وبين المذاهب التي أنزلت الإنسان إلى منزلة سواء مع الحيوان فأطلقت لشهواته العنان يفعل ما يشاء دون وازع ، ودون رادع من أيّ شيء كما هو الحال بالنسبة للمذهب الوضعي الذي يدعو الناس إلى فعل ما يبدو لهم مناسباً بحجة أنّ كلمة « ماينبغي أن يكون » يجب أن تترك مكانها لتحل محلها كلمة « ماذا يفعل الناس في الواقع » ؟ ليكون هو المقرر للأخلاق التي عليها الناس ، وهذا ما يؤدّي بالتالي إلى سيادة الهوى والشهوات .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٢٢ .

والإسلام بأخلاقه السامية يقف في موقف متوازن بين هاتين النظرتين المتطرفتين ويتلافى ما فيهما من قصور وعيوب . فالأخلاق الإسلامية تعامل الانسان على طبيعته التي خلقه اللهعليها فهو كائن فيه الروح ، والمادة ، وفيه العقل ، والشهوة ، وفيه الاستعداد للفجور ، وللتقوى .

﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها ﴾ . (١)

ولذلك فالأخلاق الإسلامية تعمل جاهدة على تشجيع الانسان على تزكية نفسه وتطهير روحه من أدران الرذائل ، والسمو ، والرفعة بها إلى أرقى المراتب الإنسانية ، فهي تعمل على ازدهار جميع نواحي النفس الإنسانية بالتوازن فلا يطغى جانب من جوانب هذه النفس على الجوانب الأخرى فيؤدّي بالتالي إلى الانحراف الذي وقعت فيه المذاهب الوضعيّة حيث نجد بعضها يعمل على كبت الدوافع التي خلقها الله تعالى في الإنسان ، والرهبنة ، وترك زينة الحياة الدنيا ، والطيّبات التي جعلها الله تعالي في هذه الدنيا لعباده أجمعين ، وبعضها على الطرف المقابل لا تحرِّم على الناس شيئاً ، وتدعوهم إلى تلبية جميع الدوافع دون ضبط ، ولا التزام بدعوى الحرية الشخصية .

ولذلك فقد وقعت هذه المذاهب جميعها في التخبّط ، والإضطراب .

ويسلم من هذا الإضطراب المنهج الاسلامي الأصيل لأنّه منهج الله تعالى الذي وضّحه للمسلمين في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، فهو تنزيل الحكيم الحميد .

فهذا المنهج بأخلاقه السمحة ، السامية يقف في موقف الوسط ليوازن بين متطلبات الروح ، والجسد ، وبين الحياة الدنيا ، والآخرة ، فتعطي كل جانب من هذه الجوانب ما يستحقه ، ويجعل من هذه الدنيا مزرعة للآخرة .

---

(١) الشمس : ٧ ـ ١٠ .

ولذلك فقد أنكر الله تعالى على الذين حّرموا علي أنفسهم الطيّبات ، والزينة التي جعلها الله تعالى لهم في الدنيا ، كما أنكر في الوقت نفســه على المترفين ترفهم ، وانحطاطهم ، وتكالبهم على متاع الدنيا فقط .

يقول الله تعالي :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين ، قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ﴾ . (١)

ففي هذه الآيات ينكر الله تعالى على الذي يحرِّم على نفسه « شيئا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع الله » . (٢)

وهكذا يتضح لنا أنّ الأخلاق الاسلامية تقوم علي التوازن بين الجانبين المادي ، والروحي فتشبع كلاً منهما بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر .

ولهذا فقد أنكر الرسول ﷺ على بعض الصحابة الذين حرّموا على أنفسهم أشياء أحلّها الله ، وذلك رغبةً في الرهبنة .

وقال عليه الصلاة والسلام :

{ أمّا اني أخشاكم لله وأتقاكم ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس منّي } . (٣)

---

(١) الأعراف : ٣١ـ ٣٢

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٣٣٨ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الصوم جـ ٢ .

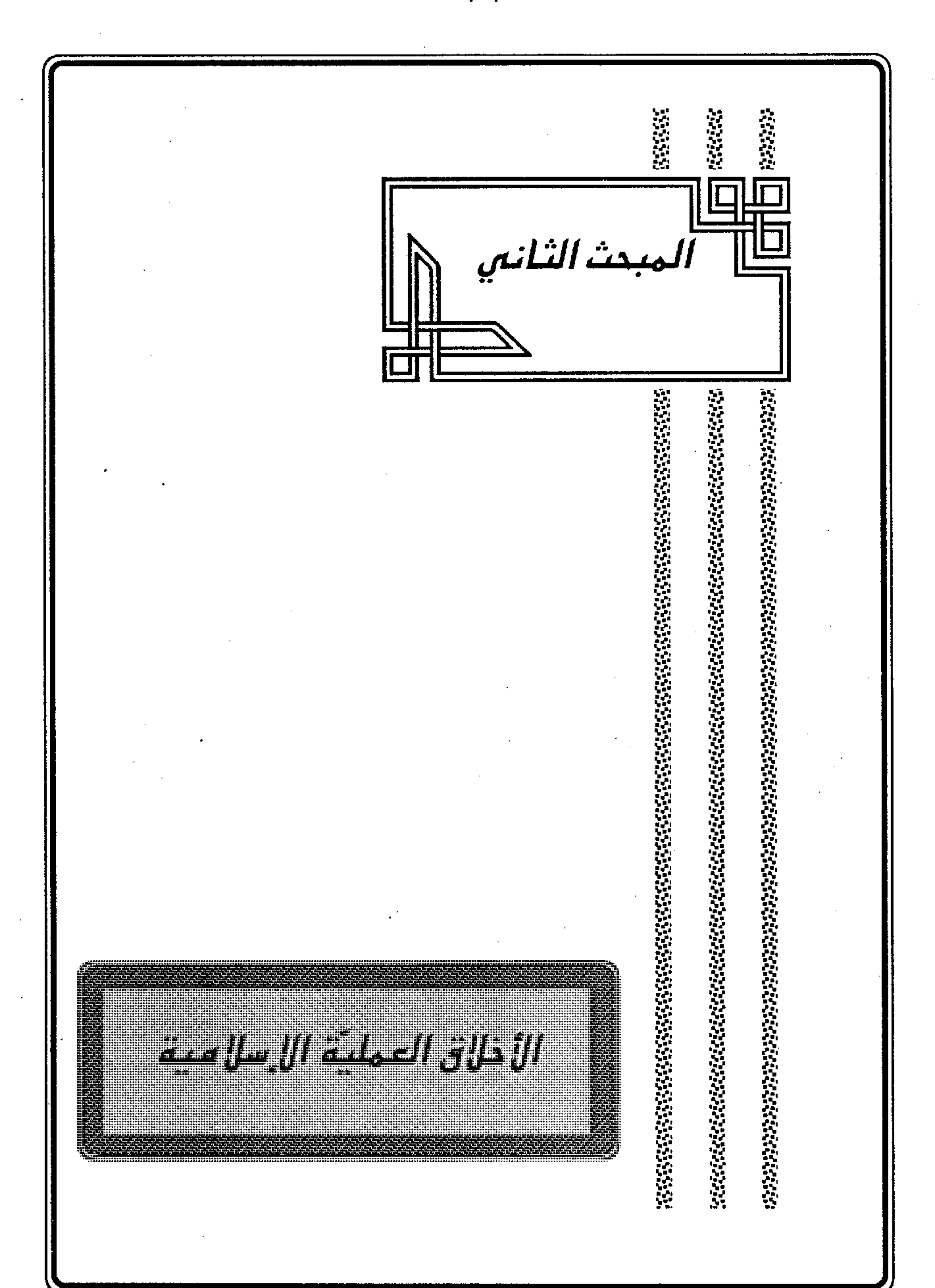
وقال عليه السّلام لمن رأى منه إفراطا في العبادة ، والصيام ، والقيام على حساب جسمه وأهله ، ومجتمعه :

{ إنّ لبدنك عليك حقاً ، وإنّ لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً فأعط كل ذي حقٍ حقه } . (١)

وبذلك تعلّم صحابة رسول الله ﷺ أن يوازنوا بين متطلبات الروح والبدن ، ومتطلبات الدنيا ، والآخرة فلا يطغى جانب منها على الآخر أبداً كما هو حال المذاهب البشرية القاصرة .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الصوم باب ٥٥ حق الجسم في الصوم جـ ٢ صـ ٢٤ من الكتب الستة .


المبحث الثاني
الأخلاق العمليّة الإسلامية

المبحث الثاني
الأخلاق العمليّة الاسلامية
١ ـ أخلاق الفرد :

ا ـ اخلاص النية :

اهتمت الأخلاق الإسلامية أولاً ، وقبل كل شيء بتربية الفرد المسلم تربيةً إسلامية لأنّ صلاح الفرد يؤدّي بالتالي إلى صلاح المجتمع وسعادته . وصلاح الفرد يقوم أساساً على صلاح باطنه ، ولذلك فقد اتجهت الأخلاق الاسلامية بتوجيهاتها السامية إلى حث الفرد على تزكية نفسه ، وطهارة قلبه ، وسموّ روحه أولاً وقبل كل شيء .

ومن هنا تفترق الأخلاق الاسلامية عن الأخلاق الوضعيّة فعلى حين لا تهتمُ الأخيرة إلاّ بالمظاهر الخارجيّة ، وشكل أداء الفعل تركز الأخلاق الاسلامية على باطن الانسان ، وقلبه ، وتعتبر صلاح هذا الباطن دليلاً على صلاح الفعل ، وقبوله عند الله .

ولهذا فإنّ الأخلاق الإسلامية أولاً ، وقبل كل شيء تؤكد على نيّة الفاعل وقصده من فعله [والنيّة ، والإرادة ، والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة ، وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل (العلم) يقدمه لأنّه أصله ، وشرطه ، (والعمل) يتبعه لأنّه ثمرته وفرعه .] . (١)

والنيّة محلها القلب ، ولهذا كان اهتمام الرسول عليه الصّلاة والسلام بقلب المؤمن ، فصلاح هذا القلب دليل على صلاح الجوارح كما قال ﷺ :

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٤ صـ ٣٦٥ .

{ ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب } . (١)

وقال عليه الصلاة والسلام :

{ إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ، وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم } . (٢)

وقد وجَّه الرسول ﷺ المؤمنين إلى أن يقصدوا بأعمالهم وجه الله تعالى ، فينشدوا مرضاته ، ويبتغوا رضوانه وحده . فالهدف الوحيد ، والغاية من الأخلاق الاسلامية هي مرضاة الله تعالى ، وإلى هذا الهدف يجب على المسلم أن يتجه ، وأن يقصد بعمله ، وإلى هذا يشير رسول الله ﷺ بقوله :

{ إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه } . (٣)

ولذلك فقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى لا يقبل العمل إذا خالطه الرياء ، وطلب السمعة ، بل لابد أن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى ، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ حين أتاه رجل وسأله قائلاً:

{ يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فَمَنْ في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله » } . (٤)

فنية الإنسان ، وقصده من فعله هي التي تحكم على فعله إن كان أخلاقياً أم لا ، ولذلك فإنَّ المسلم يجب عليه أن يتوخىَ في كل سلوكياته مرضاة الله تعالى وحده [إن الهدف الذي ينبغي لنشاط المؤمن الطائع أن يتوخَاه وهو يؤدي واجبه لا يكمن في طيّبات هذه الدنيا ولا في السرور والمجد في الأخرى ، ولا في إشباع

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الإيمان : باب ٣٩ [فضل من استبرأ لدينه] صـ ١٩ الجزء الأول .

(٢) صحيح مسلم : كتاب اللباس باب ١٠ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي جـ ١ صـ ٢ الباب الأول .

(٤) صحيح مسلم : كتاب الامارة باب ٤٢ رقم الحديث ١٤٩ صـ ١٥١٢ .

شعـوره الخيّر ، بل ولا في إكمـال وجوده الباطن .. ..إنه الله الله الذي يجب أن يكون نصب أعيننا ، وأيّة غاية أخرى تدفع الإنسان للعمل هي في ذاتها انتفاء للقيمة وعدم .] . (١)

وهكذا تفـترق الأخـلاق الإسـلاميّة عن غيرها بأنّ الأصل فيهـا هو اتجاه القلب ونية الانسان ، وقصده من فعله ، فالله تعالى هو المطّلع على السّر ، وأخفى ، وهو العليم بنوايا عباده ، ولذلك فهو يجازي الناس على حسب نيّاتهم ، فمن ابتغى بعمله وجه الله تعالى فهـو الذي سيقـبل الله تعالى منـه ، ويجزيه أجره بأحسن ما يكون .

وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم في آيات كثيرة أذكر منها قوله تعالى :

﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعِفون ﴾ . (٢)

﴿ وَسَيُجَنَّبهـا الأتقى الذي يؤتـي مـاله يتَزَكّى ومـا لأحدٍ عنده من نـعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ . (٣)

﴿ وما تنفقون إلاّ ابتـغاءَ وجـه الله ومـا تنـفقوا من خير يوفَّ إلـيكم وأنتم لا تظلمون ﴾ . (٤)

وهكذا نجد أنّ التوجيه القرآني الأول للإنسان هو أن يبتغي بعمله وجه الله تعالى فهذا هو هـدف الأخلاق الاسلامية ، وغايتها الوحيدة التي ينبغي للمسلم أن يضعها نصب عينيه ، ويعمل على تحقيقها . وفي إطار هـذا الهدف ، وهذه الغاية هناك توجيهـات مـن الله تعـالى للفـرد المسلم إلى الفضـائل التي يجب عليه أن يتوخاها ، ويتخلّق بها في سلوكه ، ويحرص على التحلي بها في كل أمور حياته .

---

(١) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ٦٨٠ .

(٢) الروم : ٣٩ .

(٣) الليل : ١٧ ــ ٢٠ .

(٤) البقرة : ٢٧٢ .

وفيما يلي أهم هذه الفضائل :

أو لا :

تـقوى الله :

إن الفضيلة الأولى التي يوجّهنا الله تعالى إليها ، والتي تدور الفضائل الأخرى في ركابها وفي فلكها هي فضيلة التقوى .

وقد ورد ذكر هذه الفضيلة [أكثر من مائتين وعشرين مرة في القرآن] (١)

والتقوى في أصل معناها [اتقاء غضب الله تعالى ، وسخطه ، وعذابه باجتناب ما نهى عنه من أخلاق وأفعال ، ومواقف ... والتزام ما أمر به من أخلاق وأفعال ومواقف ، وحثّ عليه ، وبشّر صاحبـه ، وهو تعـالى لا ينهى إلاّ عمّا فيه ضرر للإنسان وللانسانية ، ولا يأمر إلاّ بما فيه خيرهما ، وبعبارة أخرى إنّ المقصد أو الهدف المتوخّى من الأمر بالتقوى والحث عليها إيقاظ الضمائر وجعلها رقيبة على أصحابها ، وتنبيههم إلى العواقب الدنيوية والأخروية في حالتي الطاعة والمعصية ، والإحسان والإساءة ، والتزام مكارم الأخلاق ، وصالح المواقف ، والعقائد والأعمال ، واجتناب البغي والاثم والفواحش والشرك بالله ، وبعبارة أخرى إصلاح الإنسان ، وتوجـيه المسلم إلى كل ما فيه الخير والصلاح ، وإشعاره بالخوف من الله عز وجل ، وجعله يتجنّب كل مافيه شر وضرر .] . (٢)

والتقوى إنما تكون في القلب ، وهذا يدلنا على مدى عناية الأخلاق القرآنية بطهارة القلب ، ونقاوته ، والله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم جعل هذه الفضيلة هي المركز الذي تدور حوله بقيّة الفضائل لأنّها تعني مراقبة الله تعالى في السر والعلن ، وفي كل ما يقدم عليه من أمرٍ ، فيحقق بذلك طهارة نفسه ، وسمو روحه .

(١) محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن صـ ٤٥٣ .

(١) محمد عزه دروزه : الدستور القرآني صـ ٣٥٦ .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) . (١)

فالله تعالى وحده هو العليم بمـــا تكنّه الصـــدور ، وما تُخفيه .

ويقول تعالى :

﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ . (٢)

﴿ فإنّها من تقوى القلوب ﴾ . (٣)

وإلى هذا أشار الرسول ﷺ حين قال :

{ التقوى ها هنا } ـ وأشار إلى صدره مكرراً قولته ثلاثاً .

ونص الحديث هو :

أن رسول الله ﷺ قال :

{ لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه } . (٤)

فالقلب هو محل التقوى ، وهو جوهر الفضيلة وأساسها .

{ يروى الترمذي بإسناد حسن عن أبي ذر ، وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قـال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » } .(٥)

---

(١) النجم : ٣٢ .

(٢) الحجرات آية ٣ .

(٣) الحج آية ٣٢ .

(٤) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب : ١٠ رقم الحديث ٢٥٦٤ الجزء الرابع ص ٤٥

(٥) سنن الترمذي ..

[وحينما يتقي الإنسان ربه في كل أحواله الظاهرة والباطنة فلابدّ أن يكون مخلصاً لله في تقواه ، وفي هذا تكمن الروح الأخلاقية السامية البعيدة عن النفاق والرياء والسمعة ، وطلب الثناء من الناس ، أو اجتلاب المصالح النفسيّة أو المادية منهم] . (١)

وهناك آيات كثيرة تجمع كثيراً من الفضائل الأخلاقية ـ وصف الله تعالى بها المتقين من عباده ، فالتقوى هي المؤهلة لاتصاف المسلم بها وذلك مثل قول الله تعالى :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيّين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصّلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصّابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (٢)

وبين الله تعالى أن أكرم الناس عنده هم المتقون كما في قوله تعالى :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . (٣)

وقد بينت الآيات الكثيرة أنّ الله تعالى أعدّ الأجر العظيم للمتقين الذين حققوا بفضل تمسّكهم بهذه الفضيلة جميع مكارم الأخلاق التي يدعو إليها الاسلام ومن هذه الآيات مثلاً قول الله تعالى :

﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ . (٤)

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ . (٥)

---

(١)عبد الرحمن حبنكة الميداني : الأخلاق الاسلامية جـ ١ صـ ٤٥

(٢)البقرة : ١٢٧ .

(٣)الحجرات : ١٣ .

(٤)آل عمران : ١٥ .

(٥)الطلاق : ٢ .

وقوله تعالى :

﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ . (١)

فالفضيلة الأساسية التي يدعو القرآن المسلمين إلى تحقيقها في أنفسهم هي فضيلة التقوى ، وما الفضائل الأخرى إلاّ أغصان من دوحة التقوى وشجرتها .

ومن هذه الفضائل أذكر :

ثالثا :

فضيلة الصدق :

يعتبر « الصدق » من أهم الفضائل التي يدعونا إليها القرآن الكريم ، وذلك في مثل قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين ﴾ . (٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً ﴾ . (٣)

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ . (٤)

وهكذا نجد أن فضيلة التقوى هي الفضيلة الرئيسية التي يؤدي الالتزام بها إلى الإلتزام بالصدق وغيره من الفضائل فالمتقون هم الذين يصدقون في أقوالهم ، وأفعالهم .

---

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) التوبة : ١١٩ .

(٣) الأحزاب : ٧٠ .

(٤) الزمر : ٣٣ .

وكفى بالصدق فخراً ، وكونه أعظم فضيلة أن الله تعالى وصف به وعده في قوله تعالي :

﴿ أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيّئاتهم في أصحاب الجنّة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ . (١)

وهو من أفعال الله تعالى كما يتضح من قوله تعالى :

﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . (٢)

وهو من صفات الأنبياء والمرسلين : فقد وصف الله تعالى به رسوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللهورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ .(٣)

وقد وُصف به يوسف عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ . (٤)

وإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى :

﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبياً ﴾ (٥)

فالاسلام يدعو إلى الصدق في كل الأقوال ، والأفعال لأنَّ الصدق يهدي إلى البر والكذب يهدي إلى الفجور . وفي هذا يقول رسول الله ﷺ :

{ إن الصدق يهدي إلى البّر ، وإن البِّر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صِديقاً ، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذَّاباً } (٦)

---

(١) الأحقاف : ١٦ (٢) آل عمران : ٩٥ . (٣) الأحزاب : ٢٢ .

(٤) يوسف : ٤٦ . (٥) مريم : ٤١ .

(٦) صحيح البخاري : كتاب الأدب باب ٦٩ جـ ٧ صـ ٩٥ من مجموعة الكتب الستة .

وهكذا يرشدنا الدين الاسلامي الحنيف إلى ضرورة قول الصدق ، والإخبار بالواقع ، وتجنب الكذب ، وذلك ليقوم المجتمع على علاقات وثيقة وصادقة فالصدق هو الفضيلة الأولى ، والدعامة القوية التي يقوم عليها بناء المجتمع الاسلامي .

والكذب في المقابل هو الرذيلة التي نهانا عنها ديننا الاسلامي الحنيف لأنّه يُعتبر عنصر إفساد للمجتمع ، وهدم للأبنية التي يقوم عليها .

[وقد بلغ عدد كلمة الكذب ومشتقاتها نحو مائتين وخمسين ، وكلمة الصدق ومشتقاتها نحو مائة وخمسين ، ووردت الكلمات ومشتقاتها في السور المكية والمدنية معاً ممَا يدل على ما أعارته حكمة التنزيل لهذين الخلقين من اهتمام عظيم من حيث إنّهما من أمهات الأخلاق المتضادة ، والصدق من أفضلها ، والكذب من أرذلها ، وكلاهما يقعان من الإنسان قولاً وفعلاً .

وحينما يسود الصدق تتوطد الثقة بين أبناء المجتمع ، وتسير أمورهم في طريق الحق ، واليسر والخير والطمأنينة ، وحينما يسود الكذب تنعدم الثقة ، والطمأنينة ، ويتصدع البنيان ، ويختل سير الأمور .

ويتجسد الصدق فيما يتجسّد فيه في شهادة الحق وقول الحق ، وتأييد الحق ، وفعل الحق ، وأداء الحق والوفاء بالوعد ، ورعاية العهد ، ويتجسد الكذب فيما يتجسد فيه في النفاق والرياء وشهادة الزور وقول الزور ، وإنكار الحق ، والممارأة فيه ، وإخلاف الوعد ، ونقض العهد ، والنميمة بين الناس والإفتراء عليهم ، الإرجاف بينهم] . (١)

وقد ذكر « ابن كثير » في تفسير قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٢)

قصة « كعب بن مالك » الذي تخلّف عن غزوة تبوك ، وكيف أنّ الصدق هو الذي نجّاه حيث لم يكذب على رسول الله ﷺ ، ولم يختلق عذراً عن تخلّفه عن الغـزوة

(١) محمد عزه دروزة : الدستور القرآني صـ ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٢) التوبة : ١١٩ .

يقول في هذا كعب بن مالك :

{ فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مِمَا أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وأنـي لأرجو أن يحفظني الله عـز وجـل فيما بقي } . (١)

فالصدق كان سبباً في نجاته ، وفي تفريج همه ، وكربته .

وهكذا الأمر بالنسبة للمسلمين جميعاً .

رابعا :

العفة وغضّ البصر :

من الفضائل التي حث الاسلام أفراد المجتمع على التمسك بها فضيلة العفة ، وذلك لكي تصان الأعراض ، والحرمات فلا تنتهك ، ومن الفضائل المؤدية إليها غض البصر عن محارم الله.

ومن الآيات في ذلك قول الله تعالى :

﴿ قل للمؤمنين يغضّوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهنّ أو آبائهن أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهن أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ . (٢)

ففي هذه الآيات الكريمة يوجّه الله تعالى المؤمنين ، والمؤمنات جميعاً إلى ضرورة غض البصر عن المحرمات ، وذلك ليكون المجتمع الإسلامي نظيفاً لا تهاج فيه الشهوات ، ولا تستثار ، فتصان فيه الحقوق ، والحرمات .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٦١٨ .

(٢)النور : ٣٠ــ ٣١ .

وفيه توجيه للمؤمنات بضرورة الحشمة ، والحجاب ، وعدم إبداء الزينة للأجانب وذلك لأن المرأة هي مصدر الفتنة ـ ولذلك فقد حرص التوجيه القرآني على حثهن على الاحتشام ، والابتعاد عن التبرج ، وابداء الزينة للحفاظ على نظافة المجتمع الاسلامي ، ومشاعر المسلمين [وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ، ويقظة الرقابة ، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى ، ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة بوصفها سبباً ونتيجة ، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير ، وعالم الواقع . (١)

وبعد أن وجّه الله تعالى عباده المؤمنين إلى غض البصر ، وحفظ الفرج ، وجّههم إلى الفضيلة المؤدية إلى ذلك وهي فضيلة العفة وهي التي تقي الانسان من الوقوع في الحرام ، وارتكاب ما لا يحلّ له سواء كان بيده ، أو بلسانه أو غير ذلك .

ومن الآيات الحاثة على العفة قوله تعالي :

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم اللهمن فضله ﴾ . (٢)

يقول صاحب الكشاف في تفسيره للآية الكريمة :

« ليستعفف » : أى ليجتهد في العفة ، وظلف النفس كأنّ المستعفف طالب من نفسه العفاف ، وحاملها عليه .

« الذين لا يجدون نكاحاً » أى استطاعة تزوّج ، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال .

« حتى يغنيهم الله من فضله » ترجيةً للمستعفين ، وتقدمه وعد بالتفضل عليهم بالغنى ليكون انتظار ذلك ، وتأميله لطفاً لهم في استعفافهم ، وربطاً على قلو بهم ، [وما أحسن مارتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غضُّ البصر ، ثمّ بالنكاح الذي يحصن به الدين ، ويقع به الإستغناء بالحلال عن الحرام ثمّ بالحمل على النفس الأمّارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه] . (٣)

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٥ صـ ٢٥١٢ .   (٢) سورة النور : آية ٣٣ .

(٣) الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل جـ ٣ صـ ٦٥ طبعة عام ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م مطبعة الحلبي تحقيق : محمد الصادق قمحاوي .

ومن الآيات كذلك التي تأمر بالعفة قول الله تعالى :

﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهنّ غير متبرجاتٍ بزينة وأن يستعففن خير لهن ﴾ . (١)

يقول صاحب الكشاف في تفسير الآية :

« غير متبرجات بزينة » : أى غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفيّة التي أرادها في قوله : ﴿ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهن ﴾ أو غير قاصدات بالوضع التبرج ولكن التخفف إذا احتجن إليه ، والإستعفاف من الوضع خير لهن .

« لما ذكر الجائز عقبه بالمستحبّ بعثاً منه على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها » (٢) ففي قوله تعالى : ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ حث للمسلمات على العفة ، والإلتزام بها ، فهي خير في كل حال .

وكذلك يمتد مفهوم العفة ليشمل نزاهة النفس ، والأمانة كما في قول الله تعالى :

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياًفليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ . (٣)

ففي هذه الآية الكريمة توجيه من الله تعالى للأوصياء على أموال اليتامى بالتعفف عن أخذ شيء من أموالهم ، وخاصة إذا كان الوصي غنياً ، أما إذا كان فقيراً فقد بيّن الله تعالى أنّه لا بأس من أن يأخذ قليلاً ليستعين به في حياته .

وقد كان من بين المسلمين أناس فقراء ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتعففون عن سؤال الناس وفي هؤلاء نزل قول الله تعالى :

﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض

---

(١) النور : آية ٦٠ .

(٢) الكشاف جـ ٣ صـ ٧٦ .

(٣) النساء : آية ٦ .

يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾. (١)

فالعفة إذاً من الفضائل التي نبذ إليها الإسلام ، وحث المسلمين عليها لأنها تؤدّي إلى نظافة المشاعر ، وصيانة الأعراض والحرمات .

خامسا :

الصبر :

الصبر من الفضائل الهامة التي يدعونا إلى التحلي بها القرآن الكريم ، ويلحّ عليها إلى درجة أنّ هذه الكلمة قد وردت في القـــرآن الكريم أكــثر من مائة مرة . (٢)

والصبر هو :[قوة خلقيّة من قوى الإرادة تمكّن الإنسان من ضبط نفسه لتحمّل المتاعب والمشقات والآلام ، وضبطها عن الإندفاع بعوامل الضجر ، والجزع .] (٣)

والميادين والمجالات التي يدعونا القرآن الكريم إلى الصبر ، والتحمل فيها كثيرة منها الصبر والتحمّل عند وقوع الشدائد والمصائب ، والرضا بالقضاء والقدر ، والصبر على طاعة الله ، وتحمُّل مشقّات التكليف ، والصبر عن الشهوات وعدم الانسياق وراء أهواء النفس ، وتحمّل المشاق النفسيّة ، والجسديّة والتضحية في سبيل الله تعالى :

ومن الآيات التي وجّه الله تعالى المسلمين فيها إلى الصبر قول الله تعالى :

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالواإنّا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . (٤)

---

(١) البقرة : ٢٧٣ .

(٢) أنظر المعجم المفهرس .

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكه : الأخلاق الإسلامية جـ ٢ صـ ٢٩٣ .

(٤) البقرة : ١٥٧ .

ففي هذه الآية الكريمة يبيّن الله تعالى لنا أنّ الابتلاء بالمصائب إنّما هو اختبار من الله تعالى كما قال صاحب الكشاف :

[ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون ، وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة ، وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا ؟] . (١)

فالابتلاء بالمصائب اختبار من الله تعالى كما قال تعالى :

﴿ ولنبلونكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾. (٢)

والصبر في الاسلام يعتمد على حقيقتين خطيرتين : (٣)

الأولى : تتعلق بطبيعة الحياة الدنيا ، وكونها دار ابتلاء واختبار ، وليست دار جزاء وقرار ، ولذلك فالمسلم معرّض في هذه الدنيا لألوان الابتلاء من الله تعالى ، وليس أمام الانسان إلاّ الصبر على هذا البلاء .

الثانية : تتعلق بطبيعة الايمان ، فلابد أن يخضع للإبتلاء مصداقاً لقول الله تعالى :

﴿ أحَسب النّاس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنّا الذين من قبلهم فيلعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ﴾ . (٤)

فالجزاء الإلهي يكون على ما قدّم الإنسان في هذه الحياة من خير أوشر حتى تُقام عليه الحجة يوم القيامة فلا يستطيع الإنكار ، ولذلك لا يكون الجزاء على ما سبق في علم الله تعالى ، بل على ما قَدَّم الانسان من أعمال .

وفي هذا يقول تعالى :

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولّما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ . (٥)

---

(١) الكشاف : صـ ٣٢٣ .

(٢) محمد : ٣١ .

(٣) أنظر : خلق المسلم : محمد الغزالي صـ ١٣٨ ــ ١٣٩ الطبعة الثامنة عام ١٤٠٩ هـ دار القلم .

(٤) العنكبوت : ٢ ــ ٣ .

(٥) آل عمران : ١٤٢ .

وقد ضرب رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أروع الأمثلة في الصبر على ما ابتلاهم الله تعالى به في هذه الدنيا ، وبالصبر على أذى أقوامهم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى .

ومما يدل على ذلك قول الله تعالى عن سيِّدنا أيوب « عليه السَّلام » :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربَّه أنّي مسَّني الشيطان بنُصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنّا وجدناه صابراً نعِم العبد إنّه أوَّاب ﴾ . (١)

فقد شهد الله تعالى لسيِّدنا « أيوب » عليه السَّلام بأنّه كان صابراً ، وأنّه نعِم العبد ، فقد صبر عليه الصَّلاة والسلام على ما ابتلاه الله به من المصائب ، وتلقّى كل ذلك بالتسليم ، والرضا بقضاء الله وقدره .

وكذلك كان صبر « إبراهيم » ، وابنه اسماعيل عليهما الصَّلاة والسلام مضرب المثل فقد صبرا على أمر الله ، وامتثل كلاهما لتحقيق الرؤيا التي رآها ابراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام والتي قَصَّها علينا الله تعالى في كتابه الكريم في ذكر قصة « إبراهيم » عليه السلام مع قومه **إذ يقول تعالى :**

﴿ فأرادوا به كيداًفجعلناهم الأسفلين ، وقال إنّي ذاهب إلى ربي سيهدين ربِّ هب لي من الصَّالحين فبشَّرناه بغلام حليم فلمَّا بلغ معه السعي قال : يابنيَّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصَّابرين فلمَّا اسلما وتلَّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين إنَّ هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبحٍ عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين ﴾ . (٢) .

---

(١) ص : ٤٤ .

(٢) الصافات : من ٩٩ إلى ١١٠ .

فهذه القصة يتضح فيها مدى صبر كل من إبراهيم ، وإبنه اسماعيل عليهما أفضل الصلاة ، وأتم التسليم في الامتثال والاذعان لأمر الله، وبلوغهما بهذا الصبر درجة المحسنين ، وهي أعلى مراتب الدين .

وكذلك فقد صبر إبراهيم عليه السلام على ما لقيه من أذى قومه له في سبيل الدعوة إلى الله، وكذلك صبر سيدنا نوح عليه السلام **كما يقول تعالى :**

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ . (١)

وصبر سيدنا محمد ﷺ على أذى قومه ، وناله على أيديهم الأذى الكبير فقد افتروا عليه ألواناً من الافتراءات فاتهموه بالكذب وبالسحر ، والسفه ، وما إلى ذلك من تهم صبر عليها .

وقد برأه الله تعالى مما نسبوه إليه عليه الصلاة والسلام ، كما في قوله تعالى :

﴿ وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ . (٢)

وقد لحقه منهم الأذى الجسدي ، فصبر على كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الله تعالى وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى :

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون ﴾ . (٣)

وكذلك يقول تعالى :

﴿ واصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ . (٤)

(١) العنكبوت : آية ١٥ .

(٢) الحاقة ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) الأحقاف : ٣٥ .

(٤) النحل : ١٢٨ .

ولقد أعدَّ الله للصابرين الجزاء العظيم ، والأجر الكريم الذي لا يخطر على بال كما يدل على ذلك قول الله تعالى :

﴿ قل : يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة إنَّما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ .(١)

سادسا :

الإيثار :

الإيثار خلق من أخلاق الاسلام التي حثَّ عليها ، ورغَّب فيها ، وقد تحقَّق فعلاً بين المسلمين حيث ضرب الأنصار أروع الأمثلة في إيثار المهاجرين على أنفسهم ، ولو كان بهم حاجة .

ويتجلى ذلك في قول الله تعالى :

﴿ والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يُحبُّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مِّما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ . (٢)

نقل الفخر الرازي حديث ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال للأنصار :

{ إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم ، وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم فقالوا لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ، ولا نشاركهم في الغنيمة « فأنزل الله تعالي ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ » فبيَّن أنَّ هذا الايثار ليس عن غنى عن المال ، ولكنه عن حاجة وخصاصة وهي الفقر . } . (٣)

---

(١) الزمر : ١٠ .

(٢) سورة الحشر : آية ٩

(٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي : جـ ٢٩ صـ ٢٨٧ .

وقد بّينت الآيات الكريمة أنّ الأنصار أعطو الفيء للمهاجرين ، وفضّلوهم على أنفسهم برحابة صدر كما قال « القرطبي » في تفسير قوله تعالى : ﴿ والذين تبوّءوا الدار والايمان ﴾ : [ابتداء كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم ، فانّهم سلّموا ذلك الفيء للمهاجرين وكأنه قال : الفيء للفقراء المهاجرين والأنصار ، يحبون لهم لم يحسدوهم علي ما صفا لهم من الفيء] . (١)

فالأنصار قدّموا المهاجرين على أنفسهم ، وآثروهم بأموالهم ، وحاجاتهم ، وكل ذلك ابتغاءً لوجه الله تعالى ، فهم يؤمنون حقّ الايمان بأنّ ما يبذلونه إنّما مأجورون عليه من الله تعالى الذي يضاعف الحسنة بعشرة أمثالها .

وهذا هو في الحقيقة ما يزكي نفوسهم ، ويشّجعهم على الايثار الحقيقي ، إذ ما الذي كان سيدفع الإنسان للإيثار ، والبذل ، والعطاء ما لم يؤمن أنّ الله سيعوِّضه عن كل ما يبذله بالأجر والثواب يوم القيامة ؟ وسيضاعف له الأجر يوم القيامة ؟ فالله تعالى يقول في كتابه الكريم :

﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ﴾. (٢)

وبذلك يتبيّن لنا أنّ ما يّدعيه الوضعيّون من أنهّم يدعون إلى « الإيثار » والمحبة بأخلاقهم الوضعيّة إنّما هو لغو ، ولا فائدة منه ، إذ ما الذي يدفع الإنسان إلى إيثار غيره على نفسه إن لم يعلم أنّ هناك أجراً على ذلك من الله تعالى ؟

والأخلاق التي دعا إليها الاسلام ، وحثَ الأفراد على التمسك بها كثيرة جداً ، وهي كلها تؤكّد على الاخلاص لله وسلامة الباطن ، وخلوّه من النفاق ، والرياء ، والحث على التقوى التي هي الفضيلة الأم التي تدور في فلكها بقية الفضائل ، وفي نفس الوقت نهي الإسلام عن الرذائل ، ومنكرات الأخلاق كالكذب ، والغيبة ، والنميمة ، وسوء الظن ، والبخل ، والإسراف ، والتكبر . وغير ذلك من الرذائل ، التي يمكن أن تندرج تحت قاعدة عدم اتباع الهوى .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٨ صـ ٢٣ .

(٢) التغابن : ١٧ .

وهناك آيات كريمات جمع الله تعالى فيها الوصايا الأخلاقية التي يجب على الفرد المسلم أن يتوخّاها ، ويحرص عليها في سلوكه ، ومن هذه الآيات مثلاً قول الله تعالى :

﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكرون ﴾ . (١)

وقد نقل « الرازي » في تفسيره « عن ابن مسعود رضي الله عنه : إنّ أجمع آية في القرآن لخير وشرٍ هذه الآية .

وعن قتادة : ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يُعمل ويُستَحب إلاّ أمر الله تعالى به في هذه الآية ، وليس من خلقٍ سيء إلاّ نهى الله تعــالى عنه في هذه الآية ، وروى القاضي في تفسيره عن ابن ماجة عن عليّ عليه السّلام أنّه قال :

أمر الله تعالى نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج وأنا معه ، وأبو بكر فوقفنا على مجلسٍ عليهم الوقار فقال أبو بكر : ممّن القوم ؟ فقالوا من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول اللهﷺ إلى الشهادتين ، وإلى أن ينصروه فإنّ قريشاً كذّبوه ، فقال مقرون بن عمرو : إلام تدعونا أخا قريش ؟ فتلا رسول اللهﷺ عليهم [إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... الآية فقال مقرون بن عمرو : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قوم كذّبوك ، وظاهروا عليك] . (٢)

وجاء في تفسير « القرطبي » في معنى « العدل » المذكور في الآية :

« العدل » : هو كل مفروض من عقائد ، وشرائع في أداء الأمانات ، وترك الظلم والإنصاف ، وإعطاء الحق .

« والإحسان » : هو فعل كل مندوب إليه فمن الأشياء ماهو كله مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض إلاّ أنّ حدَّ الإجزاء منه داخل في العدل ، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل الإحسان .

---

(١) النحل : آية ٩٠ .

(٢) التفسير الكبير : للفخر الرازي : جـ ٢٠ صـ ١٠٠ .

ونقل القرطبي قول ابن العربي في تفسير العدل بأنه : [العدل بين العبد وبين ربه : إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والإجتناب للزواجر ، والإمتثال للأوامر ، وأمّا العدل بينه وبين نفسه فمنعها ممّا فيه هلاكها ، قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ وعزوب الأطماع ، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى ، وأمّا العدل بينه وبين الخلق : فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ أو كثر ، والإنصاف من نفسك لهم من كل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ، ولا فعل لا في سر ولا في علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقلُّ ذلك الإنصاف ، وترك الأذى . (١)

وعن معنى الفحشاء يقول « القرطبي » : [الفحشاء : الفحش : وهو كل قبيح من قولٍ أو فعلٍ ، وعن ابن عبّاس : هو الزنى] .

والمنكر : ما أنكره الشرع بالنهي عنه وهو يعمُّ جميع المعاصي ، والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها ، وقيل : هو الشرك ، والبغي : هو الكبر ، والظلم والحقد والتعدّي ، وحقيقته : تجاوز الحدّ ، وهو داخل تحت المنكر لكنه تعالى خصّه بالذكر إهتماماً به لشدة ضرره . (٢)

وهناك آية أخرى تجمع في مفهومها الأمر بجميع الفضائل الأخلاقية ، وتنهى عن جميع الرذائل وهي قول الله تعالى :

﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ . (٣)

وقد جاء في تفسير الألوسي أنه :

[قد ذكر غير واحد أنه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية ، وزبدتها كما قالوا : تحري حسن المعاشرة مع الناس ، وتوخي بذل المجهود في الإحسان إليهم ، والمداراة منهم ، والإغضاء عن مساويهم ، وجعلوا نحو ذلك زبدة الخير] . (٤)

(١) أبو عبد الله القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ١٠ صـ ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) نفسه صـ ١٦٧ .

(٣) الأعراف : ١٩٩ .

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني جـ ٩ صـ ١٤٧ .

ويقول صاحب الكشاف :

[خذ العفو : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم ، وما أتى منهم ، وتسهَّل من غير كلفة ، ولا تداقّهم ، ولا تطلب منهم الجهد ، وما يشقُّ عليهم حتى لا ينفروا كقوله ﷺ : يسِّروا ولا تعسِّروا .. وعن جعفر الصادق : أمر الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق منها] . (١)

ومن هذا يتضح لنا أنّ الأخلاق الإسلامية قد حوت بين دفّتيها ، وجمعت بين طياتها كل الفضائل ، والمكارم الأخلاقية التي تؤمن بها النفوس التقيّة النقّية ،وترتاح لها القلوب الزكية ، وتسلِّم بها العقول السليمة ، والآيات القرآنّية كثيرة جداً في توجيه الإنسان إلى طهارة نفسه ، ونقاوة قلبه ، وتزكية روحه فلم تترك هذه الآيات شيئاً من فضائل الأخلاق إلاّ ، وأمرت به الفرد المسلم أن يتحلَّى به ، ولم تترك رذيلة من الرذائل إلا ونهت عنها ، وحذرت المسلم من إتيانها ، ويطول بنا البحث لو أنّنا درسنا كل هذه الفضائل الأخلاقية ولكننا نقول إنّ الله تعالى وجّه المسلمين في مجال الأخلاق الفردية ، والسلوك العملي إلى أن يتوخَّوا بأعمالهم مرضاة الله تعالى فيجعلوا نيّتهم ، وقصدهم الأول هو رضا الله تعالى ، والتقرب إليه ، وقد قرر الله تعالى أنّه لا يأمر إلاّ بالعدل ، الإحسان ، ولا ينهى إلاّ عن الفحشاء والمنكر ، ولذلك فإنّ المسلم يجعل هدفه ، وغايته رضا الله تعالى ، ويجعل الفضيلة الأساسية التي يتحلى بها هي فضيلة « التقوى » فهي الكفيلة بإيقاظ ضميره ، وتنبيهه إلى ضرورة الإلتزام بمكارم الأخلاق التي حدّدها الله تعالى في كتابه الكريم ، وضرورة الإنتهاء عن الرذائل التي نهانا عنها سبحانه وتعالى ، وعدم اتباع الهوى والنزوات الشيطانية .

---

(١) الكشاف : جـ ٢ صـ ١٣٨ ـ ١٣٩ .

ب ـ الأخلاق الأسرية :

اهتم الإسلام بالأسرة اهتماماً كبيراً لأنّ الأسرة هي النواة التي تتكون منها المجتمعات ،فإذا صلحت صلح المجتمع ،وإذا فسدت فسد المجتمع ، ولذلك كانت عناية القرآن الكريم العظيمة بالأسرة ، ووضعه للأسس ، والمباديء التي تقوم عليها ، فقد حدّد الله تعالى في كتابه الكريم القوانين الأخلاقية التي تنّظم العلاقات التي تقوم بين أفراد الأسرة الواحدة ، والتي تقوم على تقوى الله أساساً والمحبة ، والمودة ، والبر وغير ذلك من مباديء أخلاقية عالية .

ومن ذلك أنّ الإسلام قد أسبغ على الرابطة الزوجية معنى التقديس والإحترام ، وأقامها ، ووطدها على دعائم متينة من المحبة ، والمودة ، وجعل الهدف منها إنشاء الأسرة ، والتوالد ، والتكاثر ، وإثراء المجتمع الإسلامي بالأبناء الصالحين الذين يسهمون في تقدم هذا المجتمع ورقيه .

ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . (١)

فالحياة الزوجيّة تقوم على الإلف ، والسكن ، والطمأنينة ، فهي المحضن الأول لتنشئة الأطفال نشأة سليمة ، فالمودة والرحمة المقصـــودة في الآية [ما كان منهما بعصمة الزواج قطعاً أى جعل بينكم بالزواج الذي شرعه الله لكم تواداً وتراحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ، ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم ﴾ . (٢)

---

(١) الروم : ٢١ .

(٢) تفسير أبي السعود المسّمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ٧ صـ ٥٦ .

وقد اهتمت الأخلاق الاسلامية بتحديد أدقّ العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة وإقامتها على أساسٍ متين من تقوى الله ، وابتغاء مرضاته ، فلم تترك هذه الأخلاق صغيرة ولا كبيرة في مجال السلوك إلاّ ووجّهت إليه كل فردٍ من أفراد الأسرة ، فوجّهت كلاً من الزوجين إلى حسن العشرة ، والإحترام المتبادل ، حتّى في حال الكراهية .

يقول الله تعالى :

﴿ وعاشروهن بمعروف فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ . (١)

فالأخلاق الاسلامية تدعو إلى العشرة بالمعروف ، وعدم الإستجابة لعاطفة الكراهية ، ونزوات الشياطين ، وتسبغ على الحياة الزوجية معاني الاستقرار ، والسكينة ، والرحمة ، وذلك لتحقيق الغايات النبيلة التي تهدف إليها هذه الحياة .

وبالنسبة إلى الأبناء فقد رسمت الأخلاق الإسلامية الأسس العامة التي يجب على الوالدين مراعاتها في تربية أبنائهم التربية الإسلامية ، وتقويمهم بمباديء الأخلاق الساميّة ، والقيم العليا ، وذلك ما يُفهم من قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها النّاس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾.(٢)

جاء في تفسير ابن كثير عن عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى :﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ﴾ يقول : [أدّبوهم ، وعلموهم ، وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ﴾ يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ،

---

(١) النساء : ١٩ .

(٢) التحريم : ٦ .

وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وقال مجاهد : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ قال : اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله ، وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله ، وتأمرهم به ، وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها ، وزجرتهم عنها وهكذا قال الضّحاك : حق على المسلم أن يعلّم أهله من قرابته ، وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه] . (١)

ومن هذا يتضح لنا عظم مسئولية الوالدين في غرس مبادىء الدين الاسلامي الحنيف في قلوب أبنائهم ، وتوجيههم إلى مكارم الأخلاق الاسلامية ، وحثّهم عليها ، ومن الآيات التي تبّين هذا الواجب على الوالدين أيضا ما يفهم من قول الله تعالى :

﴿ يا أيّها النبيُّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنْ من جلابيبهن ﴾ (٢)

فهذا التوجيه القرآني ليس خاصاً بالرسول ﷺ بل إنه يتجه أيضاً إلى الوالدين لضرورة ملاحظة البنات ، وتنشئتهن على الاحتشام ، والعفة والحرص على الحجاب ، والتمسك بآداب الاسلام ، وأخلاقه .

وكذلك رسمت الأخلاق الاسلامية المبادىء العامة في معاملة الأبناء لوالديهم فلابدّ أن تقوم هذه العلاقة على مبادىء الحب ، والرحمة ، والاحسان ، والعرفان بالجميل من الأبناء للوالدين ، وهذا ما ترشد إليه الآيات الكريمة في قول الله تعالى :
﴿ وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى ﴾ . (٣)

﴿ وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ، وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ . (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٦١٠ ـ ٦١١ .
(٢) الأحزاب : ٥٩ .
(٣) النساء : ٣٦ .
(٤) الإسراء ٢٣ ـ ٢٤ .

جاء في تفسير الكشّاف :

إنّ الابن [مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ، ولين الجانب والاحتمال حتّى لا يقول لهما إذا أضجره منهما ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما أفٍ فضلاً عَما يزيد عليه ، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان إليهما بتوحيده ، ونظمها في سلك القضاء بهما معاً ، ثم ضيّق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخِّص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضـجر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة] . (١)

فالله تعالى أمر الأبناء بمعاملة الوالدين معاملة حسنة ، تقوم على الاعتراف بفضلهما ، وما بذلا من جهد في سبيل تربية أبنائهم ، فلا بّد أن تقوم هذه المعاملة من قبل الأبناء على أساس الاحترام ، والحب ، وعرفان الجميل .

وفي هذا يقول تعالى :

﴿ ووَصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ . (٢)

فطاعة الوالدين ، والإمتثال لأوامرهما إنّما تكون في حدود طاعة الله تعالى لأنّه لا طاعة لمخلوق ـ مهما كان ـ في معصية الله .

(١) الكشّاف : جـ ٢ صـ ٤٤٤ .
(٢) لقمان : ١٤ ـ ١٥ .

جـ ـ الأخلاق الاجتماعية :

إن الأخلاق الاسلاميّة تهدف أولاً وأخيراً إلى خلق مجتمع تسوده العدالة ، والمحبة ، والتعاون ، والإخاء ، ولذلك حدَّدت المبادىء والأسس العامة التي تحكم العلاقات بين أفراد المجتمع لاقامة المجتمع الصالح .

ومن هذه المبادىء العامة مبدأ المساواة بين البشر فالناس كلهم سواسية في الاسلام ، وليس هناك ميزة لأحدٍ على غيره إلا « بالتقوى » فبمقدار ما يكون المرء متقياً لله في أعماله ترتفع درجته ، ومكانته عند الله .

يقول تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . (١)

فهذه الآية تؤكّد وحدة المنشأ فالناس جميعاً من أصلٍ واحدٍ ، ولا فضل لأحدٍ على آخر إلاّ بمقدار تسابقه في مرضاة الله تعالى ، والإمتثال لأوامره ، واجتناب نواهيه ومن المبادىء الأخلاقية الهامة التي حرص عليها الاسلام ، مبدأ الأخوة الاسلامية والتعاون بين المسلمين جميعاً وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ . (٢)

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ . (٣)

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(٣) الحجرات : ١٠ .

ويقول رسول الله ﷺ :

{ إياكم والظن فإنّ الظن أكذب الحديث ولا تحسّسوا ، ولا تجسّسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا } . (١)

وهكذا تتوالى التوجيهات من الله تعالى ، ومن رسوله ﷺ إلى المسلمين بأنهم جميعاً إخوة في العقيدة متساوون في الحقوق ، والواجبات ، وبذلك تشيع المحبة ، والألفة فيما بينهم ، والتعاون على البر والتقوى كما يقول تعالى :

﴿ وتعاونوا على البِّر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ . (٢)

فالاسلام يحرص على جعل المسلمين متعاونين فيما بينهم ، متضامنين لِمَا فيه خير مجتمعهم .

ومن المباديء الأخلاقية الهامة التي يحرص الاسلام على تثبيتها ، والدعوة إليها مباديء التسامح ، والعفو ، والمسالمة فيما بين المسلمين ، والتواصي بالحق ، والصبر ، وتجنّب سوء الظن بعضهم ببعض ، وتجنّب السخرية من بعضهم لأنّ ذلك يؤدِّي إلى الشحناء ، والبغضاء ، والإسلام حريص كل الحرص على إشاعة المودة بين المسلمين .

يقول تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ . (٣)

كما نهى الاسلام عن الافتراء ، والغيبة كما قال تعالى :

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ . (٤)

(١) صحيح البخاري : كتاب الأدب باب ٥٧ صـ ٨٨ . الكتب الستة جـ ٧ .

(٢) المائده : ٢ .

(٣) الحجرات : ١١ .

(٤) الحجرات : ١٢ .

فالمسلم له حرمة صانها الإسلام ، ونهى عن التعرض لها من قبل الغير ، ولذلك نهى الاسلام عن التجسس ، وسوء الظن ، والقذف ، والغدر ، والخداع ، وشهادة الزور ، وقول السوء ، وكتمان الحق ، واحتقار الناس .

وفي الجملة فإنّ الاسلام أقام أخلاقه الاجتماعية على أساس المحبة ، والعدل ، والمساواة ، ولقد تحققت هذه المبادىء فعلاً في واقع المسلمين في المجتمع الذي أنشأه رسول اللهﷺ ، حيث حقّق عليه السلام في عالم الواقع لا الخيال جميع المثل العليا ، والمبادىء الأخلاقية الحقّة التي كانت تداعب خيال الفلاسفة ، والمصلحين ، ولكنهم جميعاً عجزوا عن تحقيقها ، فحقّقها الاسلام ، وضرب صحابة رسول اللهﷺ أروع الأمثلة في تحقيق هذه المثل العليا ، فكانوا بحقٍّ خير أمة أخرجت للناس ، ولقد قاموا بواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر على خير وجه ، فكان كل واحد منهم حريصاً على إشاعة مبادىء الأخلاق الإسلامية في المجتمع الإسلامي ، وذلك بالدعوة إلى الإمتثال لكل ما أمر الله به من أخلاق ، والنهي عن كل الرذائل ، والمنكرات وكان كل واحدٍ منهم سداً منيعاً في وجه هذه المنكرات ، حريصاً على التصدي لها ، وعلى القضاء عليها منذ نشأتها ، لئلا تشيع الفاحشة بين المسلمين ، فكانت الغيرة على القيم الأخلاقية هي التي تدفعهم إلى محاربة الرذائل والمنكرات ، وهذا هو عين ما تهدف إليه الأخلاق الاسلامية الاجتماعية وهو أن يقوم كل فردٍ في المجتمع بدور الرقيب على الحفاظ على المجتمع نظيفاً من المنكرات ، والفواحش ، ولهذا امتدح الله تعالى المسلمين بقوله تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . (١)

وامتدحهم أيضاً بقوله تعالى بأنهم :

﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ﴾ . (٢)

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) التوبة : ١١٢ .

وقال تعالى :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾ .(١)

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ في هذا الواجب على المسلمين ومن ذلك مارواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال :

{ والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهنّ عن المنكر ، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً ثم تدعونه فلا يستجاب لك } . (٢)

وكذلك قال رسول الله ﷺ :

{ من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان } . (٣)

ولقد قام المسلمون في مجتمع رسول الله ﷺ ، بهذا الواجب على أكمل وجه امتثالاً لأمر الله تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ . (٤)

فكان كل واحد منهم حارساً على الحفاظ على المعاني الاسلامية الخالدة ، والأخلاق السامية التي يدعو الاسلام إليها ، وعلى محاربة المنكرات ، والرذائل ، وبذلك نشأ في عالم الحقيقة ما عجزت البشرية طوال تاريخها عن تحقيقه .. نشأ مجتمع يقوم على فضائل الصدق ، والمحبة ، والعدل ، والمساواة ، والإخاء ، فتحققت المباديء النظرية ، وتطابقت مع الواقع العملي . فكان هذا المجتمع هو القدوة ، وهو المثل الأعلى الذي تتجه إليه أنظار المسلمين في كل العصور لأنه هو المجتمع الوحيد الذي ضرب أفراده أروع الأمثلة في تحقيق مباديء الأخلاق الاسلامية العليا ، والتاريخ الاسلامي خير دليل على ذلك .

---

(١) التوبة : ٢٠٨ .

(٢) رياض الصالحين صـ ١٠٣ رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) صحيح مسلم جـ ١ صـ ٦٩ .

(٤) آل عمران : ١٠٤ .

د ـ اخلاق الحكم والسياسة :

رسمت الأخلاق الاسلامية أيضاً للرؤساء ، والحكاّم المسلمين الأسس والمبادىء الهامة التي تبيّن ما يجب أن تقوم عليه علاقاتهم مع أفراد شعوبهم ، ومن هذه المبادىء مبدأ الشورى الذي جعله الله تعالى مبدأ أساسياً للحكم .

يقول الله تعالى :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ﴾ . (١)

فالأمر من الله تعالى لرسوله عليه الصّلاة والسّلام ، ولكن الأمرعام لجميع الذين يتولون شئون المسلمين ، ويحكمون فيهم ، فواجب عليهم مشاورة قومهم قبل الإقدام على اتخاذ القرارات ، وخاصة في الأمور الهامة كالحرب وغيرها .

يقول صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى :

﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ أي في أمر الحرب ونحوه ممِا لا ينزل عليك فيه وحي لتستظهر برأيهم ، ولما فيه من تطييب نفوسهم ، والرفع من أقدارهم ، وعن الحسن رضي الله عنه : قد علم الله أنّه ما به إليهم حاجة ، ولكنه أراد أن يستنّ به من بعده ، وعن النبيّ ﷺ :

{ **ماتشاور قوم قطّ إلا هدوا لأرشد أمرهم** } وعن أبي هريرة رضي الله عنه :

{ مارأيت أحداً أكثر مشاورةٍ من أصحاب الرسول ﷺ } . (٢)

وإلى جانب مبدأ الشورى تقرر الأخلاق الاسلامية مبدأ العدالة ، وضرورة تحقيقها ، والحكم على الناس بموجبها .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) الكشاف : جـ ١ صـ ٧٤٤ .

يقول الله تعالى :

﴿ إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنّ الله نَعما يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً ﴾ .(١)

فعلى الحاكم أن يتوخّى تحقيق العدل في حكمه ، وعدم الظلم ، والجور على أحد ، كما أنّ من المبادىء الهامة التي قررتها الأخلاق الإسلامية في ميدان الحكم والسياسة مبدأ التحاكم إلى كتاب الله تعالى ، وسُنّة رسوله ﷺ .

يقول تعالى :

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ . (٢)

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولّوا فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ . (٣)

وهكذا فقد حدَّدت الأخلاق الاسلامية المبادىء الكليّة العامة للحكم والسياسة وهي مبادىء الشورى ، والعدالة ، والتحاكم إلى شرع الله الذي لن يتحقق إيمان المسلم إلاّ بالاحتكام إليه . وإلى جانب ذلك فإن على الدولة أن تراعي جميع الفضائل الأخلاقية التي جاء بها الإسلام وأمر بها من الوفاء بالعهود ، والمعاهدات ، والدفاع عن الشعوب المسلمة ، ومساعدة الضعفاء ، والفقراء وتأمين الحياة الكريمة ، وسبل العيش الكريم لهم ، ومحاربة الفساد ، والمفسدين في الأرض ، والعمل على نظافة المجتمع الاسلامي من شيوع المنكرات والفواحش .

---

(١) النساء : ٥٨ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) المائدة : ٤٩ .

فكل هذه المباديء والقيم التي أمر الاسلام بها الحكام والرؤساء أن يراعوها في أقوالهم ، وأفعالهم ، ومعاملاتهم ، ـ ويطول بنا البحث لو عددناها فيجب عليهم أن يضعوا نصب أعينهم ضرورة تقوى الله تعالى في كل ما يقدمون عليه ، فتقوى الله تعالى هي التي يتحقق بها جميع الفضائل والقيم الأخلاقية في الاسلام ، وهي العاصم الذي يعصم الأفراد ، والمجتمعات من الوقوع في أدران الرذيلة ، ومستنقعاتها ، ولذلك فقد ربطت الآيات الكريمة بين الفضائل الأخلاقية ، وبين تقوى الله تعالى ، ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

يقول الله تعالى :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مِمّا يمكرون إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .(١)

ففي هذه الآية ربط الله تعالى بين الصبر ، وبين التقوى ، فتقوى الله تعالى هي الحافز للإنسان على الصبر ، والاحسان .

وكذلك قول الله تعالى :

﴿ ولتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور ﴾ . (٢)

والعدل يرتبط بالتقوى أيضاً يقول تعالي :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون ﴾ . (٣)

---

(١) النحل : ١٢٥ ـ ١٢٨ .

(٢) آل عمران : ١٨٦ .

(٣) المائدة : ٨

ويقول تعالى :

﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ . (١)

وهناك آيات كثيرة غيرها تؤكِّد ارتباط التقوى بالإيمان بالله تعالى ومنها قول الله تعالى :

﴿ ولو أنّهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ .(٢)

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ . (٣)

﴿ ألا إنَّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾ . (٤)

ومن هذا نصل إلى أنّ « التقوى » هي دليل على صحة إيمان الانسان ومِمّا لا شك فيه أنّ الايمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر حين يتغلغل في قلب الإنسان هو الذي يحثّه على التقوى ، وعلى الالتزام بجميع الفضائل الأخلاقية التي أمر بها الله تعالي ، والإنتهاء عن جميع الرذائل التي نهى عنها ، وخير دليل على ذلك ما تجلى من صحابة رسول الله ﷺ من بطولات سطّرها لهم التاريخ بأحرفٍ من نور ، ضربوا فيها أروع الأمثلة في التحلي بجميع مكارم الأخلاق في جميع المجالات والميادين ، فقد غذّى الرسول ﷺ أرواحهم بتعاليم القرآن، وغرس الايمان في قلوبهم غرساً آتى ثماره اليانعة في ذلك المجتمع الذي ربّاه رسول الله ﷺ على عينه ، [فكان هذا الإيمان مدرسة خلقيّة ، وتربية نفسيّة تملي على صاحبها

---

(١) الفتح : ٢٦ .

(٢) البقرة : ١٠٣ .

(٣) الأعراف : ١٥٦ .

(٤) يونس : ٦٢ ـ ٦٣ .

الفضائل الخلقية من صرامة إرادة ، وقوة نفس ، ومحاسبتها . والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية ، والسقطات البشرية حتى إذا جمحت السورة البهيمّية في حين من الأحيان ، وسقط الانسان سقطة ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون تحوّل هذا الايمان نفساً لوّامة عنيفة ، ووخزاً لاذغاً للضمير ، وخيالاً مروعاً لا يرتاح معه صاحبه حتّى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرِّض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحمّلها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله ، وعقوبة الآخرة] .

[وقد حدّثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلاّ في التاريخ الاسلامي الديني ، فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنّ ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال : { يارسول الله إنّي ظلمت نفسي ، وزنيت ، وأريد أن تطهِّرني } فردّه فلما كان من الغد أتاه فقال : { يارسول الله إني قد زنيت } فردّه الثانية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا ما نعلمه إلاّ وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فلما أتاه الثالثة أرسل إليهم أيضاً فأخبروه أنّه لا بأس به ، ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرُجم] . (١)

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان ، وعفافه ، وكرامته يملِك نفسه النزع أمام المطامع ، والشهوات الجارفة وفي الخلوة ، والوحدة حيث لا يراها أحد وفي سلطانه ، ونفوذه حيث لا يخاف أحداً ، وقد وقع في تاريخ الفتح الاسلامي من قضايا العفاف عند المغنم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلاّ نتيجة رسوخ الايمان ، ومراقبة الله ، واستحضار علمه في كل مكان ، وزمان . (٢)

---

(١) أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صـ ٩٠ ـ ٩١ دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة : السابعة عام ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ .

(٢) نفسه صـ .

وهناك الكثير من الأمثلة التي تمتليء بها صفحات طويلة من المجلّدات ، والتي ضرب فيها صحابة رسول الله ﷺ أروع الأمثلة على الإمتثال لأوامر الله ، والتحلي بالفضائل الأخلاقية التي أمر بها سبحانه وتعالى ، والتي سطّرها التاريخ الاسلامي ، والتي عجزت البشرية في جميع عصورها عن تحقيق أمثالها . ويكفي أن نضرب لذلك مثلاً بما حدث في الحضارة الغربية التي جنّدت أموالها ، وخبراتها العلميّة ، وكل ما تملكه من وسائل في سبيل منع الخمر ، وتحريمها ، ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل الذريع ، وما ذاك في الحقيقة إلاّ لافتقادها إلى الإيمان بالله تعالى . هذا الايمان هو الذي جعل المسلمين ينتهون عن شرب الخمر بمجرد أن نهاهم الله تعالى عنها في آية واحدة ، فالأخلاق الاسلامية تعتمد على الايمان بالله واليوم الآخر ، وتقوم على هذا الايمان ، وهذا ما تفتقده الأخلاق الوضعيّة .

الخاتمة

من خلال هذا البحث نصل إلى النتائج الآتية :

أولا :

إتضح لنا أنّ ضلال المدرسة الوضعية ، وتَخبّطها كان ناشئاً أساساً من إنكارها لعالم الغيب ، واعتباره وهماً ، وخرافة ، وأسطورة ، وعدم إيمانها إلا بالمحسوس فقط .

ونظراً لانطلاقها من نقطة خاطئة فقد كانت جميع النتائج التي توصلّت إليها خاطئة أيضاً :

أ ـ فبالنسبة للدين لم يهمها إلاّ أنّه عامل من عوامل ترابط أبناء المجتمع الواحد ، فنظرت إليه على أنه مبدأ للنظام السياسي ، فاهتمت بالشكل ، وأهملت المضمون ، وتعامت عن الحقيقة الجوهرية للدين وهي أنّه علاقة بين العبد وربه تقوم على أساس التعبّد ، والخشوع ، والمناجاة ، وجاء اختراعها للدين الوضعي أشبه بعبث الأطفال ، والمجانين .

ب ـ وبالنسبة للأخلاق فقد كان ضلالها مترتباً على إنكارها للوحي السماوي معلماً وهادياً للبشرية إلى ما فيه خيرها ، وسعادتها ، واعتمادها على العلم الوضعي وحده ، وما سيتوصّل إليه من توصيات في هذا الشأن ، فكانت النتيجة هي هذه الحيرة ، والتخبّط ، والضلال الذي وقعوا فيه ، ويشهد به واقعهم .

ثانيا :

اتضح لنا بالأدلة القاطعة أنّ عقول البشر ، وما توصلّت إليه من اختراعات ، قاصرة جميعها عن التوصّل إلى منهج يضمن للناس السعادة النفسية ، والطمأنينة القلبيّة في ظله .

وتبيّن لنا أن الدين ، والأخلاق لا يمكن أن يكونا من وضع البشر أبداً ، وإنّما ذلك لله وحده ، وضلّ من قال بغير ذلك .

ثالثا :

إنّ الوضعيّين القائلين بالنسبيّة في مجال الأخلاق إنّما يهدفون في الحقيقة إلى دفع الإنسانية إلى التحلل الخلقي ، والإنحلال ، والإنحطاط إلى مستوى البهائم ، وذلك بالدعوة إلى ترك الناس يعيشون على هواهم دون وازع يردعهم من دين ، ولا خلق .

رابعا :

تبيّن لنا بمختلف الأدلة أنّ الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يحقق سعادة الإنسان ، وطمأنينة روحه ، واستقرار نفسه ، وذلك بتلبية حاجات نفسه ، وروحه ضمن الحدود التي رسمها الله تعالى ، وحدّدها ، وأنّ غيره من المناهج البشرية القاصرة لا يجني الإنسان من ورائها إلاّ التخبّط ، والإضطراب ، والحيرة .

واتضح لنا أنّ الأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الوحيدة التي تدعو الإنسان إلى السموّ الروحي ، والترفّع عن الدنايا ، وتحقيق المثل العليا الأخلاقية في عالم الواقع ، وأنها أخلاق ثابتة ثبات الجبال الراسيات لا يمكن أن تتغيّر ، وتتبدّل فمهما تغيّرت أحوال الحياة ، وتطورت فإنّ الأخلاق في الإسلام ستظل ثابتة المباديء والأسس إلى يوم القيامة ، وذلك لأنّها أخلاق ربانيّة المصدر ، آتية من عند الله تعالى خالق الإنسان العليم الخبير بما يصلح حياته ، ويؤدّي إلى سعادته في الدنيا والآخرة .

وعلى المسلمين واجب عظيم ألا وهو واجب الدعوة إلى دين الله تعالى ، وبيان ما فيه من عظمة ، ورفعة ، إلى جانب ما في المذاهب الوضعيّة القاصرة من ضلال ، وضياع ، ليأخذوا بيد البشريّة إلى الفوز ، والفلاح في الدنيا والآخرة .

وإنني أبتهل إلى المولى القدير أن أكون قد وُفّقت في هذا البحث وأن يتقبّله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به المسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ الإتجـــاه الأخـــلاقي فـــي الإســـلام : مقداد يالجن ـ الطبعة الأولى عام ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٣ م .
٣ ـ اتجاهات الفلسفة المعاصرة تأليف : اميل بربيه ـ ترجمة د .محمود قاسم مراجعة د . محمد محمد القصاص .
٤ ـ إحياء علوم الدين : الإمام أبي حامد الغزالي ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .
٥ ـ الأدب المفرد : للإمام البخاري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٦ ـ الأخلاق : أحمد أمين ـ الناشر : مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة العاشرة عام ١٩٨٥ م .
٧ ـ الأخـــلاق بين الفـــلاسفة وحكمـــاء الإســـلام : د . مصـــطفى حلـــمي الناشر : دار الثقافة العربية عام ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م .
٨ ـ الأخلاق بين الفلسفة وعلم الإجتماع : د . السيد محمد بدوي ـ دار المعارف طبعة عام ١٩٦٧ م .
٩ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني ـ دار القلم دمشق ـ بيروت الطبعة الأولى عام ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .
١٠ـ الأخلاق الإسلامية د . حسن الشرقاوي ـ دار المعرفة الجامعية الأسكندرية طبعة عام ١٩٨٥ .
١١ـ الأخـــلاق في الإســـلام مع المقارنة بالديانات السماوية والأخـــلاق الوضعيّة تأليف : د . يعقـــوب المليـــجي مؤسســـة الثقافـــة الجامعـــية بالأسكندرية ط عـــام ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥ م .
١٢ـ الأخلاق في الإسلام :د.محمد يوسف موسى.مؤسسة المطبوعات الحديثة . ط عام ١٣٧٩ هـ .
١٣ـ الأخلاق الغربيّة في الميزان : د . حسن الشرقاوي ـ دار المعرفـــة الجامعية الأسكندرية .

١٤ـ الأخلاق في الفلسفة الحديثة : تأليف أندريه كريسون ـ ترجمة د . عبد الحليم محمود ، أبو بكر زكري . دار إحياء الكتب العربية طبعة عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م.

١٥ـ الأخلاق للمدارس الثانوية ـ تأليف : أحمد أمين ، أمين مرسي قنديل ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة . عام ١٩٤٥ .

١٦ـ الأخلاق النظرية د. عبد الرحمن بدوي . وكالة المطبوعات ـ الكويت عام١٩٧٥م ـ الطبعة الثانية .

١٧ـ الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية ـ تأليف : ليفي بريل ، ترجمة د . محمود قاسم ـ مراجعة د . السيد محمد بدوي . نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

١٨ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

١٩ـ أسس علم الإجتماع : د. حسن شحاته سعفان . الطبعة التاسعة . دار النهضة العربية .

٢٠ـ الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية أبو الأعلى المودودي .

٢١ـ أسس الفلسفة : توفيق الطويل ـ الطبعة السابعة عام ١٩٧٩ .

٢٢ـ الإسلام ومشكلات الحضارة : سيد قطب . دار الشروق . الطبعة الثامنة عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م .

٢٣ـ الإسلام والعصر الحديث : وحيد الدين خان . ترجمة : ظفر الإسلام خان . دار النفائس ـ الطبعة الثالثة عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٤ـ الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان . ترجمة : ظفر الإسلام خان ، مراجعة : د.عبد الصبور شاهين . المختار الإسلامي للطبع والنشر .

٢٥ـ الإسلام والإتجاهات العلمية المعاصرة . يحيى هاشم حسن ـ دارالمعارف .

٢٦ـ أصول البحث الإجتماعي : د. عبد الباسط محمد حسن . الناشر : مكتبة وهبه ـ الطبعة الحادية عشر عام ١٩٩٠ .

٢٧ـ أصول المذهب الإجتماعي في دراسة الأخلاق : د. السيد محمد بدوي . فصل من مجلة الأسكندرية .
٢٨ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية تحقيق : محمد حامد الفقي ـ دار المعرفة بيروت .
٢٩ـ الله جل جلاله : عباس محمود العقاد ـ المكتبة العصرية .
٣٠ـ الله جل جلاله : سعيد حوّى .الطبعة الثالثة عامام ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م .
٣١ـ الله يتجلى في عصر العلم : تأليف نخبة من العلماء الأمريكيّن . ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .الناشر:مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ط :٣ عام ١٩٦٨ م .
٣٢ـ الإنسان بين المادية والإسلام : محمد قطب . دار الشروق ـ الطبعة الخامسة عام ١٣٩٨م ـ ١٩٧٨م .
٣٣ـ الإنسان ذلك المجهول : تأليف : الكسس كارل . تعريب : شفيق أسعد فريد مكتبة المعارف ـ بيروت . طبعة عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .
٣٤ـ إنسانية الإنسان نقد علمي للحضارة الماديّة : رينيه دوبو . تعريب الدكتور نبيل صبحي الطويل . مؤسسة الرسالة . الطبعة الثالثة عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
٣٥ـ إميل دوركايم : د. مريم أحمد مصطفى عبد الحميد . دار المعرفة الجامعية الأسكندرية عام ١٩٨٦م.
٣٦ـ أوجست كونت : مصطفى الخشاب .الطبعة الثانية عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م . مطبعة لجنة البيان العربي .
٣٧ـ تاريخ علم الإجتماع : د. محمود عوده . دار النهضة العربية . بيروت .
٣٨ـ تاريخ الفكر الإجتماعي والمدارس الإجتماعية : د. حسن شحاته سعفان . الطبعة الثالثة عام ١٩٦٥ . الناشر : دار النهضة العربية .
٣٩ـ تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم .
٤٠ـ تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط : يوسف كرم . دار القلم . بيروت.
٤١ـ تاريخ الفلسفة اليونانية : يوسف كرم . دار القلم . بيروت ـ الطبعة الثالثة .
٤٢ـ تاريخ الفلسفة : د. محمد عزيز نظمي سالم . الناشر : مؤسسة شباب الجامعة . الأسكندرية .

٤٣ـ تاريخ الفلسفة اليونانية : وولتر ستيس. ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد . الطبعة الأولى عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

٤٤ـ تاريخ الفلاسفة اليونانيين : عَرّبه عن الفرنسيّة : عبد الله حسنين المعري . مطبعة التمدده ـ القاهرة عام ١٩٥٤ .

٤٥ـ تاريخ الفلسفة الغربية : تأليف : برتراندرسل . ترجمة . د. زكي نجيب محمود ، مراجعة د . أحمد أمين .

٤٦ـ تاريخ الفكر الفلسفي من طاليس إلى أفلاطون : د. محمد علي أبو ريان . دار المعرفة الجامعية عام ١٩٨٧ .

٤٧ـ تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية : تأليف : أبو بكر زكري . الطبعة الرابعة عام ١٣٨٤هـ ١٩٦٥ـ الناشر : دار الفكر العربي .

٤٨ـ تأملات في سلوك الإنسان : إلكسس كارل . ترجمة الدكتور محمد محمد القصاص مراجعة الدكتور محمد قاسم . مكتبة مصر .

٤٩ـ التربية الأخلاقية : اميل دوركايم . ترجمة : السيد محمد بدوي ، مراجعة علي عبد الواحد وافي .

٥٠ـ التطور في الحياة والمجتمع : د. السيد محمد بدوي . دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ـ طبعة عام ١٩٨٨م .

٥١ـ التطور والثبات في حياة البشرية : محمد قطب . دار الشروق ـ الطبعة الخامسة عام ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

٥٢ـ تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي : دار الكتب العلميّة . بيروت ـ الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ .

٥٣ـ التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . الطبعة الثالثة .

٥٤ـ التفكير فريضة إسلامية : عباس محمود العقاد . دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

٥٥ـ تكوين العقل الحديث : جون هرمان راندال . الناشر : دار الثقافة ـ بيروت .
ترجمة الدكتور جورج طعمه ـ مراجعة الأستاذ برهان الدين الدجاني .
٥٦ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : لإبن مسكوية .
تحقيق وشرح : ابن الخطيب . الطبعة الأولى .
٥٧ـ تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث : أندريه كريسون ـ منشورات بحر المتوسط ، وعويدات بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٢
٥٨ـ التوحيد الخالص أو الإسلام والعقل : د. عبد الحليم محمود . دار الكتب الحديثة .
٥٩ـ الجامع لأحكام القرآن : للإمام أبي عبد الله القرطبي .
٦٠ـ جامع البيان في تفسير القرآن : أبي جعفر محمد بن جرير الطبري . دار المعرفة ـ بيروت .
٦١ـ جاهلية القرن العشرين : محمد قطب . دار الشروق ـ طبعة عام ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٦٢ـ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : تأليف : محمد علي يوسف ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .
٦٣ـ الحجاب : أبو الأعلى المودودي .
٦٤ـ خرافات عن الأجناس : جوان كوماس ـ ترجمة د . محمد رياض ـ مراجعة د. محمد عوض محمد ـ الناشر : مكتبة نهضة مصر .
٦٥ـ خريف الفكر اليوناني : عبد الرحمن بدوي ـ الطبعة الخامسة عام ١٩٧٩م .
الناشر : وكالة المطبوعات : الكويت .
٦٦ـ خصائص التصوّر الإسلامي : سيد قطب . دار الشروق ـ الطبعة السابعة .
عام ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .
٦٧ـ الخصائص العامة للإسلام : يوسف القرضاوي . الناشر : مكتبة وهبه بالقاهرة ، الطبعة الثانية عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

٦٨ـ خلق المسلم : محمد الغزالي ـ الطبعة الثانية عام ١٤٠٩هـ . دار القلم .

٦٩ـ الخطر اليهودي : بروتوكولات حكماء صهيون . ترجمة : محمد خليفه التونسي ـ تقدير الكتاب عباس محمود العقاد ـ مكتبة دار التراث .

٧٠ـ دراسات في الفلسفة الحديثة المعاصرة : يحيى هويدي . الناشر : دار النهضة العربية عام ١٩٦٨ م .

٧١ـ دراسات في الأديان : بركات عبد الفتاح دويدار طبعة عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

٧٢ـ دراسات في الإجتماع الديني : سامية مصطفى الخشاب . دار المعارف . الطبعة الأولى عام ١٩٨٨ م .

٧٣ـ دراست ومذاهب : محمد عزيز نظمي . الناشر مؤسسة شباب الجامعة عام ١٩٨٨ .

٧٤ـ دراسات فلسفية وأخلاقية : د . محمد كمال جعفر . الناشر : مكتبة دار العلوم عام ١٩٧٨م .

٧٥ـ دراسات إسلامية في العلاقات الإجتماعية والدولية : محمد عبد الله دراز . دار المعرفة الجامعية الأسكندرية عام ١٩٨٩ .

٧٦ـ دراسات في النفس الإنسانية : محمد قطب . دار الشروق ـ الطبعة الرابعة عام ١٤٠٠هـ .

٧٧ـ دروس في الفلسفة الوضعيّة : أوجست كونت ـ مترجم عن اللغة الفرنسيّة . ترجمة د. عبد الله الكوكي .

٧٨ـ دستور الأخلاق في القرآن : محمد عبد الله دراز ـ ترجمة : د . عبد الصبور شاهين . مراجعة د. السيد محمد بدوي ـ الطبعة السادسة عام ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة .

٧٩ـ الدستور القرآني والسنة النبويّة في شئون الحياة : محمد عزة دروزه ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٨٠ـ درء تعارض العقل والنقل : ابن تيميّة . تحقيق د . محمد رشاد سالم ـ الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١ م .
٨١ـ الدعوة الإسلامية : د . أحمد أحمد غلوش .
٨٢ـ الدين : د . محمد عبد الله دراز . بحوث ممهِّدة لدراسة تاريخ الأديان .
٨٣ـ الدين القيِّم : أبو الأعلي المودودي . دار الفكر للطباعة والنشر .
٨٤ـ الدين في مواجهة العلم : تأليف : وحيد الدين خان . ترجمة : ظفر الإسلام خان مراجعة عبد الحلم عويس . دار النفائس بيروت . طبعة عام ١٤٠١هـ .
٨٥ـ ربيع الفكر اليوناني : عبد الرحمن بدوي . وكالة المطبوعات الكويت الطبعة الخامسة عام ١٩٧٩ .
٨٦ـ رسالة التوحيد : الإمام محمد عبده ـ دار المنار .
٨٧ـ رسالة الرد على الدهريّيّن الإمام محمد عبده ـ مطبعة محمد محمد مطر بمصر .
٨٨ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : تأليف : الألوسي البغداد ي ـ الطبعة : الرابعة عام ١٤٠٥هـ ـ دار إحياء التراث العربي . بيروت .
٨٩ـ رياض الصالحين : أبي زكريا النووي ـ الطبعة الأولى عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م . دار الكتاب العربي .
٩٠ـ سلسلة تراث الإنسانية : طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
٩١ـ سنن الترمذي : من موسوعة الكتب الستة .
٩٢ـ سنن النسائي : من موسوعة الكتب الستة .
٩٣ـ صحيح البخاري : من موسوعة الكتب الستة .
٩٤ـ صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . من موسوعة الكتب الستة .
٩٥ـ العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع : د. محمد بيصار ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الرابعة عام ١٩٧٣ م .

٩٦ ـ علم الإجتماع ومدارسه : د . مصطفى الخشّاب . الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية .
٩٧ ـ علم الإجتماع والمنهج العلمي : د. محمد علي محمد ـ دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ط ٣ عام ١٩٨٨ م .
٩٨ ـ علم الإجتماع : د . عبد الحميد لطفي ـ الطبعة العاشرة عام ١٩٨٧م دار المعارف .
٩٩ ـ علم الإجتماع : د . علي عبد الواحد وافي ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر الطبعة الثانية .
١٠٠ـ علم إجتماع القيم : د . محمد أحمد بيومي . دار المعرفة الجامعية الأسكندرية عام ١٩٩٠ م .
١٠١ـ علم الإجتماع الديني : د . محمد أحمد بيومي . دار المعرفة الجامعية الأسكندرية .
١٠٢ـ علم الإجتماع والفلسفة : قباري محمد إسماعيل . الطبعة الأولي . دار المعرفة الجامعية عام ١٩٨٩ م .
١٠٣ـ علم الأخلاق إلى نيقوماخوس : تأليف : أرسطو طاليس . ترجمه إلى العربية أحمد لطفي السيد . دار صادر عام ١٣٤٣هـ .
١٠٤ـ العلم يدعو إلى الإيمان : كريسي موريسون . ترجمة : محمود صالح الفلكي . الطبعة الأولى عام ١٩٨٦ ـ دار القلم بيروت .
١٠٥ـ العلم والدين في الفلسفة المعاصرة : اميل بوترو . ترجمه : الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٠٦ـ العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصر :
تأليف : د . سفر عبد الرحمن الحوالي مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع .
الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .
١٠٧ـ فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي الشوكاني . دار الفكر ـ بيروت .

١٠٨ـ الفراغ الروحي وأثره على البشرية : رسالة دكتوراه في العقيدة :
للطالب : جميل عبيد عبد المحسن القرارعة عام ١٤٠٤هـ ـ ١٤٠٥ هـ .
١٠٩ـ فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية .
تأليف : د. محمد يوسف موسى ـ الطبعة الثالثة .
الناشر : مؤسسة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٦٣ م .
١١٠ـ فلسفة العصور الوسطى : عبد الرحمن بدوي . الطبعة الثالثة عام ١٩٧٩م
الناشر : وكالة المطبوعات ـ الكويت .
١١١ـ فلسفة ابن رشد : ابن رشد . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت . الطبعة الأولى عام ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢ م .
١١٢ـ الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب : تأليف : الدكتور محمد بيصار . دار الكتاب اللبناني / بيروت عام ١٩٧٣ م .
١١٣ـ فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها : توفيق الطويل . الطبعة الرابعة عام ١٩٧٩م دار النهضة العربية .
١١٤ـ الفلسفة اليونانية أصولها وتطوراتها : البير ريفو . ترجمة : د . عبد الحليم محمود ، وأبو بكر زكري . الناشر مكتبة دار العروبة.
١١٥ـ فلسفة أوجست كونت : ليفي بريل . ترجمة : د . محمود قاسم ، د. السيد محمد بدوي ـ مكتبة الأنجلو .
١١٦ـ فلسفتنا : محمد باقر الصدر ـ دار التعارف للمطبوعات .
١١٧ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار : للدكتور : محمد البهي . دار الفكر ـ الطبعة السادسة عام ١٩٧٣ م .
١١٨ـ الفكر الإجتماعي والمدارس الإجتماعية : حسن شحاته سعفان ، الطبعة الثالثة عام ١٩٦٥ م ـ الناشر : دار النهضة العربية .
١١٩ـ في ظلال القرآن : سيد قطب . دار الشروق بيروت طبعة عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣ م .
١٢٠ـ قصة الحضارة : ول ديورانت طبعة عام ١٤٠٨ هـ دار الجيل . بيروت .

١٢١ـ قصة الفلسفة : ول ديورانت : ترجمه : د. فتح الله محمد المشعشع ـ مكتبة المعارف بيروت الطبعة الخامسة عام ١٤٠٥ هـ .

١٢٢ـ قصة الفلسفة اليونانية : تصنيف زكـــي نجيب محمود ، أحمد أمين ـ الطبعة : الثامنة . مكتبة النهضة المضرية .

١٢٣ـ قصة الفلسفة الحديثة : تصنيف زكي نجيب محمود ، أحمد أمين . الناشر : مكتبة النهضة المصرية . الطبعة السادسة عام ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

١٢٤ـ قصة الصراع بين الدين والفلسفة : د . توفيق الطويل . الطبعة الثالثة عام ١٩٧٩م . دار النهضة العربية .

١٢٥ـ قواعد المنهج في علم الإجتماع : تأليف : اميـــل دوركايـــــم . ترجمه : د . محمود قاسم ، د . السيد محمد بدوي . دار المعرفة الجامعيّة عام ١٩٨٨ م .

١٢٦ـ قضية التصوف : د . عبد الحليم محمود ـ دار المعارف ـ الطبعة الثانية .

١٢٧ـ كلمات في مباديء علم الأخلاق : د . محمد عبد الله دراز . المطبعة العالمية عام ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣ م .

١٢٨ـ الكشـــاف عـــن حقائـــق التـــنزيل للإمـــام الزمخـــشري . طبعة عام ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢م . مطبعة الطبي ـ تحقيق محمد الصادق قمحاوي .

١٢٩ـ لسان العرب : ابن منظور ـ مكتبة الفيصلية . دار صادر بيروت .

١٣٠ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوي ـ الطبعة السابعة عام ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م . دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٣١ـ ماهي الأبستمولوجيا : د . محمد وقيدي . دار الحداثـة . الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م .

١٣٢ـ مباحث في فلسفة الأخلاق : محمد يوسف موسى ـ طبعة عام ١٣٦٨ هـ ١٩٤٨ م .

١٣٣ـ مباحث ونظريات في علم الأخلاق : تأليف : أبو بكر زكري ، عبد العزيز أحمد ـ الطبعة الرابعة عام ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م دار الفكر العربي .
١٣٤ـ مبادىء علم الإجتماع : د .. السيد محمد بدوي . دار المعرفة الجامعية طبعه عام ١٩٨٨م .
١٣٥ـ مبادىء الفلسفة : تأليف : أ . س رابوبرت . ترجمة : د. أحمد أمين مطبعة المصباح عام ١٣٣٦هـ ـ ١٩١٨م .
١٣٦ـ مبادىء الفلسفة والأخلاق : د . زكريا إبراهيم الناشر : مكتبة مصر .
١٣٧ـ المجمل في تاريخ علم الأخلاق : تألف : هـ . سدجويك . ترجمة : د . توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدي .الطبعة الأولى عام ١٩٤٩ م دار نشر الثقافة بالأسكندرية .
١٣٨ـ المدخل إلى الفلسفة : آزفولد كولبه . ترجمة : أبو العلا عفيفي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة ١٩٤٢ م .
١٣٩ـ مدخل جديد إلى الفلسفة : د . عبد الرحمن بدوي. الطبعة الثانية عام ١٩٧٩ م الناشر : وكالة المطبوعات ـ الكويت .
١٤٠ـ المدخل إلى علم الأخلاق : تأليف : وليام ليلى . ترجمة : د . علي عبد المعطي محمد ـ دار المعرفة الجامعية عام ١٩٨٥ .
١٤١ـ مدخل إلى فلسفة الأخلاق :تأليف : أبو بكر زكري ـ الطبعة الأولى عام ١٩٦٧م .
١٤٢ـ مدخل إلى القرآن الكريم : د . محمد عبد الله دراز . ترجمة : محمد عبد العظيم علي . مراجعة : د . السيد محمد بدوي ـ طبعة عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .
١٤٣ـ مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب . دار الشروق ـ الطبعة الأولى عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م .
١٤٤ـ المذاهب الأخلاقية عرض ونقد : عادل الحوا . مطبعة الجامعة السورية عام ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م .
١٤٥ـ المرجع في تاريخ الأخلاق . د : محمد عبد الرحمن مرحبا . الطبعة الأولى عام ١٩٨٨ .

١٤٦ـ مسائل فلسفية : زكي نجيب محمود وآخرون .

١٤٧ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل : مجموعة الكتب الستة .

١٤٨ـ المرجع في الفكر الفلسفي : دكتورة نوال الصراف الصايغ ـ دار الفكر العربي .

١٤٩ـ المشكلة الخلقية : زكريا إبراهيم . الناشر : مكتبة مصر . الطبعة الثانية عام ١٩٧٥ م .

١٥٠ـ مشكلة الإنسان : زكريا إبراهيم ـ مكتبة مصر .

١٥١ـ مشكلة الفلسفة : زكريا إبراهيم ـ الناشر : مكتبة مصر .

١٥٢ـ مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا . ج.بنروبي . ترجمة : د . عبد الرحمن بدوي . الطبعة الثانية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٥٣ـ المشكلة الأخلاقية والفلاسفة : تأليف : أندريه كريسون . ترجمة : د. عبد الحليم محمود ، أبو بكر زكري . دار إحياء الكتب العربية طبع عام ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م .

١٥٤ـ مع الفيلسوف : تأليف : د . محمد ثابت الفندي . دار النهضة العربية بيروت . طبعة عام ١٩٨٠ .

١٥٥ـ المعرفة : محمد فتحي الشنيطي . الناشر : مكتبة القاهرة الحديثة . عام ١٩٥٦ م .

١٥٦ـ المعجم الفلسفي : د . جميل صليبا . دار الكتاب اللبناني ـ بيروت . طبعة عام ١٩٨٢م .

١٥٧ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت .

١٥٨ـ معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية : د . أحمد زكي بدوي ـ مكتبة لبنان .

١٥٩ـ المفردات في غريب القرآن : أبي القاسم المعروف بالراغب الأصفهاني . تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني . نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي . الطبعة الأخيرة عام ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م .

١٦٠ـ مفتاح دار السعادة : لإبن القيِّم .

١٦١ـ مقومات التصور الإسلامي : سيد قطب .دار الشروق . الطبعة الثانية عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٦٢ـ مقدمة ابن خلدون للعلامة ابن خلدون . الطبعة الرابعة عام ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

١٦٣ـ منهج القرآن والعلم في إثبات الألوهية : رسالة لنيل درجة الماجستير في العقيدة من جامعة أم القرى للطالب : عبد الله عثمان الكوكي .

١٦٤ـ منهج التربية الإسلامية : محمد قطب . دار الشروق . الطبعة السابعة عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

١٦٥ـ المنقذ من الضلال : للإمام الغزالي .

١٦٦ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة : نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل وآخرون ـ راجعها وأشرف عليها د . زكي نجيب محمود . دار القلم : بيروت .

١٦٧ـ الموضوعية في العلوم الإنسانية : د. صلاح قنصوة ـ الطبعة الثانية عام ١٩٨٤م .الناشر دار التنوير للطباعة والنشر .

١٦٨ـ موطأ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه : من موسوعة الكتب الستة .

١٦٩ـ نحن والحضارة الغربية : أبو الأعلى المودودي . نشر: دار الفكر .

١٧٠ـ نحو فلسفة علميّة : زكي نجيب محمود .

١٧١ـ نشأة الدين : د . علي سامي النشار . الناشر دار نشر الثقافة بالأسكندرية طبعة عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩ م .

١٧٢ـ نظام الحياة في الإسلام : أبو الأعلى المودودي .

١٧٣ـ نظرية المعرفة عند المدرسة الفرنسية : مصطفى الخشاب . الطبعة الأولى عام ١٣٧١هـ ١٩٥٢م . مطبعة لجنة البيان العربي .

١٧٤ـ نظرية علم الإجتماع . تأليف : نيقولا تيماشيف ترجمة : الدكتور محمود عوددة وآخرون مراجعة : د . محمد عاطف غيث . دار المعرفة الجامعية الأسكندرية . عام ١٩٩٠ م .

١٧٥ـ نظريات ومذاهب اجتماعية : د . السيد محمد بدوي طبعة عام ١٩٦٩ .

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة

محتويات الرسالة